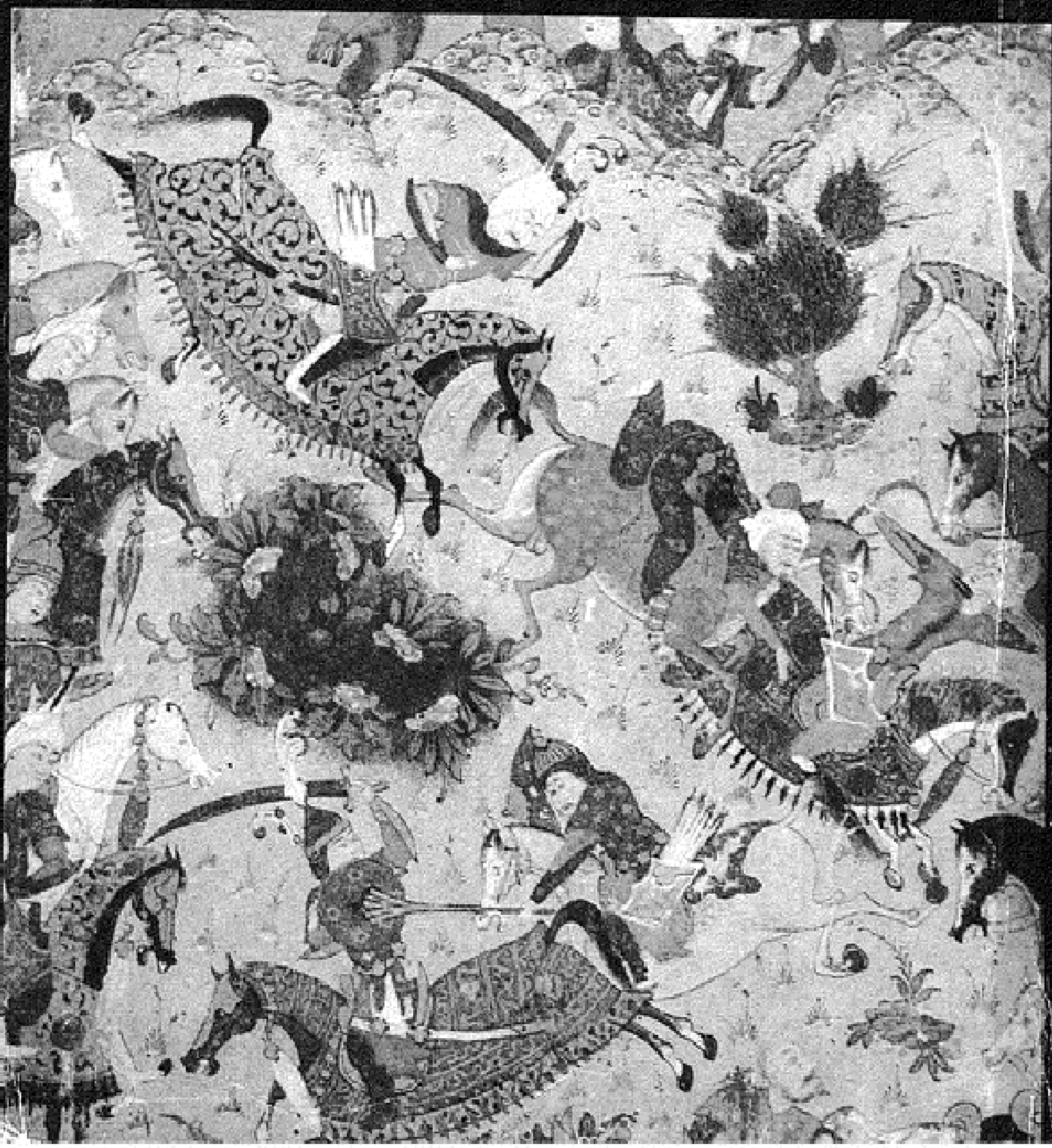
الألف كتاب
الثاني
١٢٦

العثمانيون في أوروبا

تأليف: بول كولز
ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



العثمانيون في أوربا

الألف كتاب الثاني

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعي المطيعي

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفني

محمد قطب

الإخراج الفني

محسنة عطية

العثمانيون في أوربا

تأليف

بول كولز

ترجمة

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب

THE OTTOMAN IMPACT ON EUROPE

by

PAUL COLES

مقدمة المترجم

صدر كتاب كولز هذا الذى نقدم اليوم ترجمته الكاملة للعربية ضمن سلسلة (مكتبة الحضارة الأوربية) Library of European Civilization وهذا لا يخلو من دلالة اذ أن هذا يعنى أن العثمانيين يشكلون عنصرا من عناصر الحضارة الأوربية الحديثة والمعاصرة ، وهو ما يثبته هذا الكتاب •

ـ والأستاذ الدكتور كولز ، كان يشغل حال تأليفه كتابه هذا ، وظيفة أستاذ العلوم الاجتماعية فى جامعة براد فورد ولهذا فهو لا يقدم لنا تاريخا تقليديا ، يكتفى بعرض الأحداث زمنيا بشكل ممل ، وانما هو يقدم لنا تاريخا حضاريا ثقافيا ، يهتم بالفكرة ، وهو شغوف بالمقارنة والتحليل واستخلاص النتائج ، وربط الماضى بالحاضر •

ـ والكتاب وثائقى من الطراز الأول ، وهو زاخر بالصور ، الرسوم المعاصرة للأحداث (١٠٩ رسم وصورة) وكان نقل هذا العدد الكبير للطبعة العربية أمرا مرهقا ، ومع ذلك سعينا الى طبع هذه الصور نظرا لأهميتها •

ـ وفى ثنايا الكتاب يستخدم المؤلف ألفاظ : الترك ، والعثمانيين ، والمسلمين ، على نحو تبادلى ، فهو مثلا يقول

طورا : هاجم الترك فينا ، وطورا تراجع العثمانيــون عن أسوار فينا ، بل انه فى الباب الأخير يجعل عنوانا لاحــدى فقراته : تراجع الاسلام ، وهو يقصد تراجع العثمانيين ، لهذا فقد فضلت توحيد اللفظ الدال ليكون هو اللفظ الوارد فى عنوان الكتاب (العثمانيون) الا اذا كان السياق يقتضى غير ذلك عندئذ استخدمت لفظ الترك •

ــ وهــذا الكتــاب فى جانب منه ، صفحة من تاريخ المسلمين فى شرق أوروبا . فى بلغاريا ، وفى رومانيــا ، فى يوغســلافيا وفى تشيكوســلوفاكيا وفى شــمال شرق اليونان ، وفى ألبانيا ، وفى المجر ، وهم مسلمون بالملايين، عمى تاريخهم الكتاب الغربيون ، وأهمل تاريخهم الكتاب العرب • وهؤلاء المسلمون فى آوروبا ، هم من أهل البــلاد الأصليين ، انهم ألبان وتشيك ويوغسلاف ، ومجر وبلغار ••• وليســوا أتراكا من الناحيــة العرقيــة ، وان تثقفوا بالثقافة التركية •

ــ وقد قسم المؤلف كتابه الى خمسة فصول ، هى :

١ ــ ظهور القوة العثمانية •

٢ ــ بنية الدولة العثمانية •

٣ ــ الحروب ضد الغرب (١٥٢٠ ــ ١٥٨١) •

٤ ــ الأثر العثمانى •

٥ ــ بداية النهاية •

وسنعرض فى الصفحات التالية بعض أهم الأفكار التى وردت فى هذه الفصول •

ــ يتناول المؤلف فى الباب الأول ، الظروف التاريخية لظهور القوة العثمانية ، وهــو بمثــابة تمهيــد بين يدى الموضوع . خاصة بالنسبة للقــارىء الغــربى الذى يفتقد المعلومات عن التاريخ الاسلامى ، فيبين أن انطلاقة الشعوب التركية المونجولية خلال الفترة التى تبدأ منذ حوالى ١٠٠٠

للميلاد ، عندما وصلت لمنطقة الشرق الأوسط استوعبتها الحضارة الاسلامية العريقة • وقد شكلت هذه الهجرات موجات أثرت على أوروبا ، كالموجة الهندية الأوربية ، فالتركية المغولية ، فالموجة التركية مرة أخرى • ثم يتعرض لمعلومات معروفة مطروقة عن امارة أرطغول وتوسعها ، مبينا جهود أورخان فمراد الأول فى اقرار الدولة والانتقال بها الى مرحلة الاستقرار والعقلانية •• ويعرض المؤلف لمبررات اتخاذ العثمانيين لعقيدة السنة مذهبا ، وما نتج عن ذلك من تسامح دينى ، ويؤكد أن دعم الحكام العثمانيين للمذهب السنى أدى الى ازدهار النظم التعليمية ، ثم يتحدث عن التنظيمات العسكرية العثمانية بايجاز •

ويؤكد المؤلف أن أورخان هو الذى قاد شعبه فى أول فتح لهم فى أوروبا ، وأن الترك كانوا منذ سنة ١٣٥٠ يتحركون فى أوروبا كغزاة مستقلين وكمستوطنين •

ثم يتعرض المؤلف بشىء من التفصيل للأوضاع السياسية والعسكرية والاجتماعية فى مناطق شرق أوروبا قبل قوعها تحت السيطرة العثمانية ، فهذا الفصل اذن كما سبق أن ألمحنا ، تمهيد بين يدى الموضوع ، وان كان لا يخلو من تحليلات غير مألوفة كقوله ان العثمانيين بتمركزهم فى شرق أوروبا منذ القرن الرابع عشر هم الذين حموا بيزنطة من السقوط على يد امبراطورية الصرب التى كانت قد بلغت أقصى اتساعها على عهد ستيفان دوسان ، وكانت القسطنطينية هى غاية الصرب ، لولا اصطدامهم بالعثمانيين فى أوروبا الذين حالوا بينهم وبين بغيتهم • تحليل جدير بالتأمل ، وأفكار غير مألوفة فى الكتابات العربية عن أوروبا، وعن الدولة العثمانية ، على سواء •

– أما الباب الثانى فعن بنية الدولة العثمانية ، والمؤلف لا يغرق فى استخدام المصطلحات العثمانية ، كما ينحو كثيرا نحو الدراسة المقارنة ، وتعرض كثيرا للأفكار الاسلامية ، وقد أخطأ فى فهم بعضها وقد علقنا على ذلك فى

حينه ، ونعيد التعليق هنا • وان كان لابد من أن يقع هذا الباحث وغيره من الغربيين فى بعض الأخطاء عندما يتناولون تاريخنا • وعلى آية حال فقد كان من الواضح أن الأخطاء التى وقع فيها صاحبنا ، كانت غالبا عن سوء فهم لا سوء طوية • فالمؤلف يفيض فى أهمية علماء الدين السنة كمشرعين محترمين ، يلقون تأييدا من السلاطين ، ويورد نصوصا تضع الشريعة الاسلامية فى مكان حفى ، ويذكر أن الرسول عليه السلام كان يقر الاعراف المحلية طالما لم تكن تتعارض مع شرائع الدين الحنيف ، ولكنه يورد نصا يذكر أن أحد فقهاء المسلمين امتنع عن أكل البطيخ لأنه لم يجد طريقة أكله فى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم • ولا نجد لهذا أصلا ، وان تصرف بعض المتعنتين على هذا النحو ، فليست هذه سنة الرسول، ولا روح الاسلام وبالتالى فليس من مبرر لسوق مثل هذا للدلالة على جمود علماء المسلمين • ورغم أن المؤلف فى الباب الرابع ، وهو من الكتاب لبه ، وفى الباب الخامس ، عن بداية نهاية الدولة العثمانية ، يتحدث مشيدا بسماحة الاسلام وتسامحه مع الأديان الأخرى ، وبتفضيل الرعايا المسيحيين فى البلقان وغيره حكم المسلمين على حكم الكاثوليك ، الا انه يذكر فى هذا الباب الثانى ، شيئا عن عدم تسامح الاسلام مع الأديان الأخرى ، والواقع أن الآيات القرآنية التى تحض على التسامح والدعوة والمجادلة بالحسنى خير دليل على سماحة الاسلام • وليس ثمة مقارنة بين ما شهده المسلمون من عنت بعد سقوط غرناطة فى أيبيريا ، وبين التسامح الذى لقيه النصارى تحت حكم المسلمين فى شرق أوربا أو فى أيبيريا•

وعند حديث المؤلف عن المسئولين الرئيسيين فى الدولة العثمانية يذكر أنهم أربعة ، الصدر الأعظم وقاضى العسكر والدفتردار والنشنجى ، ثم يذكر أن للرقم أربعة دلالة صوفية ، ولا ندرى رقما مقدسا فى الفكر الاسلامى ــ ولعل هذا كان من بين أفكار أهل البدع ، ولكن أساسه منعدم فى الفكر الاسلامى النقى •

ويذكر المؤلف أن العثمانيين لم يستخدموا القوة لاجبار أحد على التحول للاسلام ، حتى الرقيق . كما يذكر مؤكدا بالأدلة أن الرق فى ظل الدولة العثمانية ، وعند المسلمين عامة ، يختلف فى وضعه وطريقة معاملته عما هو معروف لدى الأوروبيين ، فقد كان الرقيق فى رحاب الدولة العثمانية منعما ، بل ان كل من تسنموا ذروة السلطة فى هذه الدولة كانوا رقيقا فى الأصل .

ويربط المؤلف بين الصراع الذى دار فى الدولة العثمانية بين السنة من ناحية وأصحاب البدع (من ناحية أخرى) وحركة الاصلاح الدينى فى أوروبا حيث كان صراع بين الراغبين فى العودة الى المسيحية فى نقائها الأول من ناحية ، وأصحاب البدع (الكاثوليك) من ناحية أخرى ، وتلك فكرة عظيمة ، جديرة بأن يحققها أحد الباحثين ويسهب فيها تفصيلا .

ويبدو أن المؤلف لا ينظر باحترام لفرق الدراويش ويسميهم الهراطقة وأورد صورة لأذكارهم التى تتخذ شكل الرقص (انظر الصور فى هذه الترجمة) ومما يذكر أن شيوع هذه الخرافات فى الدولة العثمانية كان أحد أسباب رفض الحركات السلفية الاسلامية لأسلوب الحياة العثمانى .

والواقع أن الخلفية الثقافية الاجتماعية للمؤلف تجلت أكثر ما تكون وضوحا فى هذا الفصل ، حيث يقارن بين الأرستقراطية الأوربية والارستقراطية العثمانية ، وحيث يتعرض لأساليب السلاطين فى الموازنة بين القوى العسكرية المختلفة ، وحيث يتعرض للدور السىء للدراويش فى الحياة العثمانية .

هذا ما يمكن أن يسمح به المجال فى الحديث عن بعض أفكار هذا الباب ، الزاخر بالتحليلات الاجتماعية .

– أما الباب الثالث ، فيتناول فيه المؤلف الحروب العثمانية الأوروبية فى الفترة من ١٥٢٠ الى ١٥٨١ وكان اختيار عام ١٥٢٠ كبداية للفترة الزمنية راجعا الى احتفاء المؤلف بسليمان القانونى ، كما أن تحديد عام ١٥٨١

كنهاية للفترة التي يتناولها في بابه هذا ، راجع الى أن هذا التاريخ كان ذا دلالة بالنسبة لكل الأطراف ، فقبيل هـــذا التاريخ انصرف العثمانيون للحـرب صـوب الشرق لصـد التهديد الشيعي للعالم الاسلامي ٠٠ وفي هذا الفصل يتحدث المؤلف فيكثر عن السلب والنهب كسمة عثمانية ، ويستخدم المـؤلف في هـذا البـاب كثيرا من المصطلحات التي الفهـا المشتغلون بعلم الاجتماع ، خاصة عند حديثه عن (المجتمع الاسلامي في مقابل (المجتمع) المسيحي و (المؤسسـات) العثمانية ٠٠٠ وما الى ذلك ٠

ويتناول المؤلف الصراع العثماني الأوروبي في جبهتين هما : شرق أوروبا ، وحروب البحر المتوسط ٠

ومن المعلومات الطريفة التي تناولها ، في هذا الباب أن العثمانيين اسـتقبلوا في كثير من بقـاع شرق أوروبا وجزر البحر المتوسط استقبال الفاتحين وان أهل البـلاد كانوا يفضلون حكمهم على حكم الهبسبرج أو الطليان ٠

ويذكر المؤلف من المعلومات ما يؤكد أثر العثمـانيين في نجاح الحـركة الاصـلاحية البروتستنطية في أوروبا ، وكيف أن البروتستنط كانوا يعتبرون أنفسهم كالمسـلمين (محطمي أوثان) ٠ وانها لعمرى لمعلومات جديدة ، جديرة بالتأمل والتدبر ٠

ـ أما الباب الرابع ، فهو من الكتاب لبه ، اذ عنـونه المـؤلف بعنـوان الكتـاب كله ، وهو (الأثر العثمـاني) ويستفتح المؤلف هذا الفصل بالقول بأنه رغم أن العثمانيين فيما يقول معظم المؤرخين الأوربيين ، كانوا مصدر الازعاج الأساسي لأوروبا خاصة ، حتى سنة ١٥٧١ ، اذ أدت هزيمة العثمانيين في معركةليبانتو الى تخفيف وطأتهم على أوروبا، الا أن كولز يرى أن « الوجود العثماني في أوروبا قد أسهم في تطور أوروبا بشكل عظيم ، وزامنه » أي زامن هــذا التطور ويناقش المؤلف في هذا الباب عدة قضـايا هامة ، فهل كان العثمانيون بسيطرتهم على طرق التجارة الشرقيـة

عبر مصر وسوريا ، سببا فى توجه البرتغاليين والأسبان للكشوف الجغرافية ؟ ويخلص بنتيجة عجيبة غير مطروقة فى الكتابات العربية عن أوروبا ـ اذ يؤكد أن محاولة البرتغاليين خنق التجارة العثمانية ، هى التى أدت بالعثمانيين الى الوصول الى أوروبا الدانوبية لفتح الطرق البرية للتجارة •

وهل ظلت أوروبا المسيحية بمعزل عن الاسلام ، بمعنى أن الحدود الفاصلة بين المجتمعين الاسلامى والمسيحى ظلت قائمة ، ويرى كرلز أن وصول جحافل سليمان القانونى الى فينا ، قد جعل هذه الحدود الثقافية ـ ان صح هذا التعبير ـ غير قائمة ، ثم يتعرض كولز بعد ذلك للتأثيرات العثمانية فى مناطق بعينها ، هى : البلقان وأوروبا الدانوبية ، والمناطق التى حكمها الهبسبرج ، ويتعرض للصراع بين المسلمين والكاثوليك فى البحر المتوسط •

والمؤلف خلال هذا يثير قضايا فائقة الأهمية ، نشير لبعضها هنا مجرد اشارة •

ان تطور فكرة التسامح الدينى فى أوروبا ، ما هى الا تأثير اسلامى لا يحتاج للجاج ، فهو يقارن بين ما حاق بالمسلمين فى الأندلس ، وما كان يتمتع به غير المسلمين فى ظل الدولة العثمانية •

والمؤلف يرى ان الوجود الاسلامى فى البحر المتوسط ، والضغط العثمانى على شرق أوروبا ، وسقوط ممتلكات جنوة والبندقية ، قد أثر فى صياغة تاريخ هاتين الدولتين (جنوة والبندقية) فقد أدى الى توجه اقتصاد جنوة توجها غربيا للعمل فى الميدان الأسبانى والبرتغالى ، كما أدى بالاضافة لعوامل أخرى لسقوط الطبقة الوسطى فى جنوة واعتلاء الارستقراطية كما أدى لتغيير اجتماعى واقتصادى كبير فى البندقية •

ويؤكد المؤلف فى هذا الباب أن الضغط العثمانى خاصة فى عهد سليمان القانونى ، قد أسهم فى انفصال فرعى الهبسبرج ، وبالتالى كان هو - أى سليمان - عن غير قصد ، المسئول عن تطور امبراطورية النمسا التى لعبت دورا خطيرا فى التاريخ الأوروبى الحديث .

ويشير المؤلف الى أن خروج المسلمين من أسبانيا ، كان عملا كنسيا . لم يلق ترحيبا من الأسبان ويسوق لذلك أدلة وأمثلة منها أن الحكومة الاسبانية اضطرت فى كثير من الحالات لجلب جنود من ألمانيا والنمسا لقمع ثورات المسلمين فى أسبانيا نظرا لرفض ملاك الأراضى الأسبان التعاون معها فى هذا الصدد .

ومن خلال هذا الباب تتضح الجهود الكنسية الاعلامية التى تظهر للناس فى أوروبا عقائد المسلمين بطريقة غوغائية كاذبة ، مستخدمة فى ذلك حتى الفن .

(انظر الصور الملحقة بالباب الرابع) .

ويشير المؤلف على استحياء فى هذا الباب الى أن كثيرا من الأفكار الاسلامية قد أثرت فى النهضة الأوروبية .

انها أفكار جديرة بالتأمل والدراسة خاصة أنها صادرة عن باحث غربى ، ليس ثمة احتمال فى انحيازه للمسلمين ، قد أصدر كتابه كما سبق أن أشرنا ضمن سلسلة عن مكونات الحضارة الأوروبية .

- وفى الباب الخامس الموسوم باسم (بداية النهاية) يتعرض المؤلف لتحليلات سياسية واقتصادية واجتماعية ونفسية لتفسير بداية انهيار الامبراطورية العثمانية ولعل أروع تحليلاته وأكثرها جدة ، هى التحليلات الاجتماعية والنفسية .

انه يفسر انتصارات العثمانيين المذهلة فى أوائل القرن السادس عشر ، بتناحر أوروبا واستغراقها فى صراعات بين الأسرات الأوروبية الحاكمة كذلك الصراع الذى حدث بين

الهبسبرج ، وأسرة فالوا الملكية الفرنسية ، وصراعات دينية ، تمثلت بشكل واضح في ظهور البروتستنطية وتحدى الكاثوليكية لها • وفى المقابل ، فان أوروبا عندما تخلصت على نحو ما من صراعاتها تلك ، بصلح أوجزبرج فى سنة ١٥٥٥ الذى وضع حدا ولو الى حين لصراع دينى مرير ، وبمعاهدة كاتو كمبرسيس التى أنهت الحروب الايطالية ، فانها ـ أى أوروبا ـ قد استطاعت أن تتصدى للمد العثمانى ، أو على الأقل لم تتح للعثمانيين مزيدا من التقدم •

وحدث أن عادت أوروبا لصراعاتها فى القرن السابع عشر ، ممثلا فى حرب الثلاثين عاما (١٦١٨ ـ ١٦٤٨) وكان يمكن أن تؤدى هذه الحروب الى كارثة باجتياح العثمانيين لأوروبا ، لكن لحسن حظ أوروبا ، كانت الامبراطورية العثمانية فى هذه الفترة قد بدأت تعانى من مشاكل داخلية •

ورغم أن المؤلف يركز على العوامل الاجتماعية فى تفسير الأحداث ، ويذكر انه لم يعد لائقا بالمؤرخين ان يجعلوا الفرد هو قطب الرحى فى تفسير الأحداث التاريخية ، الا انه يعود فيقول ان العامل الفردى يعد من أكثر العوامل فعالية فى تفسير الانهيار العثمانى ، فبعد سليمان القانونى ، لم تشهد الامبراطورية سوى سلاطين غلبت عليهم نزواتهم وعكفوا فى غرف الحريم لا يبعون عنها حولا ، ثم يعود فيقارن هذا الوضع ، بما كان عليه الحال فى أوروبا ، فيذكر أن نمو البيروقراطية الديوانية (أجهزة الحكم) الأوروبية كان حائلا يحول بين ممارسة الحكام الأوروبيين لنزواتهم حتى ولو كانوا حكاما مجانين أو تعوزهم الخبرة ، ثم يعود فيقول ان الدولة العثمانية أيضا كانت تمتلك أجهزة حكم قوية ، لكن هذه الأجهزة كان عمادها الرقيق السلطانى وهذا جعل القرار فى يد السلطان وحده ، ولم يكن من ضير فى هذا اذا كان السلطان كفؤا كسليمان، ولكن

الحكام الذين أتوا بعده لم يكونوا بمثل كفاءته • ويتعرض المؤلف للفكر السياسي الاصلاحي في الدولة العثمانية منذ أوائل القرن السابع عشر ، ويقارنه بالفكر السياسي الأوروبي كعادته ، فيذكر أنه منذ أوائل القرن السابع عشر ، والمفكرون العثمانيون ، يحسون ان هناك شيئا ما يجري على غير ما يرام ، فقد كتب خوجه بك القاضي المسلم المشهور لمراد الرابع مذكرة يبرر بها التدهور بالتخلي عن الكتاب والسنة ، ويطالب بالعودة الى نهج السلف الصالح • ومن الطبيعي ألا يحسن كولز ، فهم هذا ، كغيره من المؤلفين الغربيين ، فهو يفهم العودة للكتاب والسنة على أنها دعوة لعدم التجديد ، وهذا في الفكر الاسلامي غير صحيح ، فالدعوات السلفية الاسلامية ، هي أيضا دعوات تجديد ودعوات تنقية ، ودعوات عودة للأصول الأولى في نفس الوقت •

ثم يبدع المؤلف في التفسير النفسي والاجتماعي للجمود الذي حاق بالطبقة الحاكمة العثمانية في القرن السابع عشر ، فيذكر أن الانتصارات العظمى التي حققها العثمانيون في القرن السادس عشر ، كانت مبهرة لدرجة ربطت المجتمع العثماني عندها ، فلم يستطيعوا تطورا ، ولم يكونوا راغبين في تغيير أساليبهم الحربية والفكرية والادارية القديمة ، لسبب بسيط وهو أنها ارتبطت في عقولهم بالنصر ، ولم يدركوا ــ أي العثمانيون ــ ما ألم بالدنيا من تغير •

وكان مراد الرابع (١٦٢٣ ــ ١٦٤٠) قد بدأ حركة اصلاح كان يمكن أن تؤتي ثمارها لولا موته الباكر •

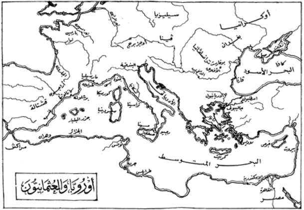
ومن الأفكار الهامة التي تعرض لها المؤلف في هذا الفصل تأكيده على أن العثمانيين لم يجبروا أهل البلاد الأوربية التي فتحوها على الاسلام ، وهذا يفسر لنا أن اسلام أهل البانيا وغيرهم من سكان شرق اوروبا في رومانيا وبلغاريا واليونان (سالونيكا) ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا قد كان رغبة وحبا لا قسرا وقهرا والواقع أن تاريخ المسلمين

فى شرق أوربا وحاضرهم أيضـــا ، فى حاجة الى دراســة متأنية • هم مسلمون من أهل البلاد ، وليسوا تركا ، وان تثقفوا بالثقافة التركيـة • ولعل الكثير من المعلـومات عن مسلمى شرق أوروبا ، والتى بثها المؤلف فى أكثر من فصل من فصول كتابه هذا ، كانت أحـد الدوافع الـكامنة وراء اصرارى على ترجمته •

ويقول المؤلف : « ان المسلمين السنة كانوا يطبقون مبدأ التسامح الدينى مع المسيحيين » • ما أروع هذا !• ولكنه يعود فيقول ان جمـاعات الدراويش بذلت جهـودا لادخال المسيحيين للاسلام بالحسنى •

وفى المقـابل يحدثنـا المـؤلف عن مؤامرات المـاليين اليونانيين ، واليهود ـ خاصة ، على المسلمين واسهامهم فى تجويعهم ••• انه جزاء سنمار• ليس من هدف هذه المقدمة تقديم عرض كامل بكل أفكار الكتـاب وسرده التـاريخى ، وانما هى مجرد اشارات لبعض أفكاره ، وهى فى جملتهـا أفكار وتحليلات جديرة بالنظر •

وعلى الله قصد السبيل


أوروبا والعثمانيون
سيليزيا
فينا
أوكرانيا
بغدان
ترانسلفانيا
بوخارست
الأفلاق
البحر الأسود
كافا
فارنا
أدرنة
استانبول
غاليبولي
الأدرياتيك
البندقية
باريس
أوجزبرج
مارسيليا
جنوة
كورسيكا
سردينيا
برشلونة
جزر البليار
قشتالة
الجزائر
وهران
مراكش
تونس
طرابلس
صقلية
نابولي
البحر المتوسط
كريت
رودس
قبرص
بيروت
الإسكندرية
القاهرة
مصر

مقدمة المؤلف

يذكر لورد أكتون أن التاريخ الحديث يبدأ تحت وطأة الفتوح العثمانية • وليس هذا الكتاب الا تفصيلا يؤكد حكم لورد أكتون هذا ويسبر أغواره •

ومن ناحية التتابع الزمني ، كانت هذه الفتوح قد انطلقت منذ منتصف القرن الرابع عشر ، عندما اقتحم العثمانيون أوروبا ، وتغلغل خطرهم في الوعي الاوربي ، بشكل حاد ، حتى أواخر القرن السابع عشر ، فكما كان فشل حصار فينا الثاني (١٦٨٣) ومعاهدة كارلوفتس (١٦٩٩) تمثلان علامتين على بداية تراجع العثمانيين ، تراجعا أكيدا وان طال أمده وبطؤ ــ عن فتوحاتهم الأوربية ، ففي المقابل ، كانت السنوات الممتدة من العشرينات الى الثمانينات في القرن السادس عشر ، تلقى اهتماما خاصا اذ كان التهديد العثماني فيها قد بلغ ذروته ، خطورة وكثافة •

لقد انشعب العثمانيون أثناء زحفهم ليعملوا في مسرحين حربيين متسمين بالضخامة ، هما : منطقة شرق الدانوب والبلقان وأوروبا البحر الأسود ، من ناحية ، وحوض البحر المتوسط من ناحية أخرى • وكانت التطورات في هذه

المناطق تحكم تتابع القصة • وعلى هذا فان كتابنا هـذا • في الأساس ما هو الا دراسة في تاريخ المواجهـة (تاريخ الحـدود frontier history ولأن المعـركة غالبا ما تتخطى منـاطق الصراع المبـاشر ، كان من الضرورى استحضار النتائج المترتبة على ذلك بشكل واسع •

ولم يكن ثمة مناص من الاهتمام بالحروب ، كظاهرة طفت على سطح الرواية التاريخية • وعلى أية حال ، فانني حاولت تقدير هذه المادة التاريخيـة المتعلقـة بالحـروب ، باعتبارها سجلا لمجتمعات يناقض بعضها بعضـا ، وتناولت هذا من خـلال عمليـات التعـارض والتضارب والتداخل والتغير •

وتقـد قامت الأنسة جوانا باراس ، خبيرة المعلـومات بجامعة برادفورد ، بطبع نسخ عديدة من مسودات هـذا الكتـاب ، وراجعت عـديدا من المراجع ، بسرعة منصفة ودقة • وقد أفادتني نقـدها لتدارك عديد من الأخطاء في التركيب اللغـوى ، والى استبدال بعض الاسـاليب غير المناسبة • كما أنني ممتن للغاية للسيد رونالد دافيدسون هوستون Davidson Houston في مؤسسه Thames Dudson لجمعه الصور والرسوم التوضيحية وتغيره للمناسب • كما كان السيد Stanley Baron محررا صبورا اذ قدم عديدا من المساعدات •

الفصل الاول

ظهور القوة العثمانية

كان انطلاق الشعوب التركية والمونجولية من السهوب الأوراسية Eurasian Steppe ، هو الملمح الذي سيطر على العالم خلال الفترة التي بدأت منذ حوالى سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد • وسواء كان انطلاق هذه الشعوب ، تسللا هادئا وئيدا ، أم غزوا ، فان هؤلاء البداة البرابرة قد أثروا في كل العالم المتحضر ، في الغالب الأعم • اذ لم ينج من السيطرة السياسية لغزاة الاستبس (السهوب) هؤلاء ، سوى المناطق الفقيرة وما حولها ، كاليابان والغرب الأوربى الوسيط ، تلك المناطق التى نادرا ما كانت تستحق عناء الفتح • ولا يمكننا مقارنة فتوحات هذه الشعوب التركية والمونجولية من حيث مداها الجغرافى الواسع ، وفيضها البشرى العميم ، الا بفتوحات القبائل والجماعات ذات الحضارة البرونزية ، التى ازدهرت في الحقبة الممتدة بين القرنين الثامن عشر والخامس عشر قبل ميلاد المسيح (عليه السلام) حيث استخدم رجال هذه الحضارة البرونزية عربات تجرها خيول •

لكن الحضارة الاسلامية العريقة ، ذات الجذور الضاربة عمقا فى منطقة الشرق الأوسط ، قد برهنت على قدرتها على استيعاب وامتصاص هذه العناصر المقتحمة • وعلى الرغم من ذلك ، فقد استفادت المجتمعات الاسلامية ــ رغما عن معاناتها الشديدة ــ من وصول هؤلاء البداة اليها غزاة ومتسللين ، اذ نجم عن ذلك اختلال العلاقات التقليدية فى

المجتمعات الاسلامية • ومن المسلم به أن تحـولات داخليـة بعيدة الأثر ، كان لابد من حدوثها فى المجتمع الاسلامى — قبل قبول التعايش والتكيف بين الحكام الأتراك الجـدد ، وشعوب الشرق الأوسط الأعرق حضارة — بشـكل مرض ، قل هذا الرضا أم كثر • لقد تواكبت الشجاعة العسـكرية الفائقة لهؤلاء الغزاة الذين اعتنقوا الاسلام مع رغبتهم فى الدعوة اليه (الاسـلام) بطرق جـديدة قادتهـا الحـركة الصوفية (١) • وادى هذا لتوسع خريطة العالم الاسـلامى توسعا ملحوظا ، اذ وصل الاسلام الى مناطق لم تكن تدخـل ضمن حدوده التقليدية فمن ناحية ، نجده يتخذ سبيله الى الهند والصين وجزائر الهند الشرقية ، ومن ناحية أخـرى اتخذ سبيله الى آسيا الصغرى وشرق أوروبا • وقد أثـرت هذه الموجة العارمة الممثلة فى الغزو التركى ، فى أوروبا • فحول سنة ١٠٠٠ للميلاد كان ما يطلق عليـه اصطلاحا مد السـهوب ، قد تخطى ثلاثة عشر أو أربعـة عشر قرنا من التفاعل المستمر ، حيث كان طوال هذه الفترة ، يتم دفـع القبيلة اثر القبيلة من أواسط آسيا لتتخـذ طرقهـا صوب الغرب بحثا عن مراع أفضل • ولقد كانت النتيجة المتوقعة هى ظهور موجة عرقية وثقافية ولغوية عبر آسيا ، كما حدث طوال مراحل التاريخ ، التى شهدت الموجة الهندية الأوربية فالتركية المغولية ، فالموجة التركية كرة أخـرى ، وكلهـا موجات وهجرات لغوية وثقافية وعرقية تتجه غربا ، وبينما كانت اللغات تتغير ، فان التكوينات الأساسية ، اقتصادية ، وسـياسية ، وعسـكريه ، والتى كان قوامهـا الفروسـية المتبدية — كان لا يعتريها طوال هذا الوقت تغير ، الا ببطء ممعن • ومع هـذا فقـد اتخـذت المعـارف عن الأساليب والطرائق المتحضرة سبيلها ، كثيفة ، الى قبائل السـهوب هذه ، خلال تلك الفترة • اذ أن العلاقات الوثيقة بين هـذه

---

(١) يستخدم المؤلف هذا اللفظ فى أكثر من مكان فى بحثه هذا بمعنى التنظيمات التى يقوم عليها بعض الدعاة لجمع المريدين والأتباع ، لا بمعنى الجماعات العازفة عن أمور الدنيا — (المترجم) •

القبائل المتبدية والمجتمعات الحضرية والزراعية ، عادة ماتكون جذابة بالنسبة للجماعات البدوية التى تتقبل بشغف وقبول حسن ما تقدمه هذه المجتمعات من غلال ومنسوجات ومصنوعات معدنية ، لتسد احتياجات بيئاتها قليلة العطاء ، التى كان قوام اقتصادها رعيا وصيدا • وقد أدى الاحتكاك التجارى المستمر والتجارب المكتسبة من العمل كجنود مرتزقة فى الجيوش المتحضرة الى أن زادت معرفة هذه القبائل المتبربرة بثراء ومغريات وأعاجيب الحضارات الجنوبية ، فازدادت فى أعين أولئك الخيالة العتاة القادمين من السهوب ، جاذبية الصين والشرق الأوسط وبيزنطة •

ولقد كان تسلل الجماعات المتبدية الى مناطق الاستقرار أسهل ما يكون فى الشرق الأوسط حيث تتداخل الأراضى الزراعية مع المراعى الجافة على نحو ما ، وفى هذه الظروف يستطيع البداة أن يستمروا فى ممارسة أساليبهم وطرائقهم فى العيش على هامش المجتمعات المستقرة اذ كانوا ينتظرون حتى نهاية الحصاد ، فيطعمون قطعانهم على ما يتبقى فى الحقول من بقايا النباتات الجافة ومن خشاش الأرض • كما كانوا يحققون ذاتهم ويحققون رخاء وترفا من خلال تكوين علاقات تجارية مع هذه المجتمعات أو من خلال فرض الاتاوات على الزراع أو أهل الحضر • وعلى هذا فان الخط الفاصل بين الاستبس (السهوب) والأرض الزراعية قد أضحى غير واضح ، وبدات الجماعات الناطقة بالتركية تتسلل بشكل مكثف بين السكان الايرانيين • وقد اعتنق هؤلاء الترك الدين الاسلامى وتمثلوا بالعادات والأخلاق الاسلامية، وان لم ينقدوا هويتهم تماما فى العالم الاسلامى، فقد كان شعورهم بالتفوق والتسلط مرتبطا لديهم بفخرهم ببراعتهم العسكرية وشجاعتهم الفائقة ، مما أبعدهم عن الاندماج الكامل فى المجتمعات الأخرى ، فقد احتفظوا بلغتهم ، وبحظ وافر من التوجه الحربى لسكان السهوب • وثمة عاملان عارضان يسرا دخول الترك فى العالم الاسلامى كأمة متميزة متفتحة ، وأعانا على نجاحهم كقوة عسكرية

وسياسية في الشرق الأوسط ، أولهما ، يتمثل في حقيقة أن الترك عندما ظهروا كعنصر هائل القوة في حياة الاسلام السياسية ، كان الحكام الشيعة يسيطرون في اكثر من مكان، وعلى هذا فعندما اعتنق الحكام والقادة الترك الاسلام مالوا الى اختيار المذهب السني ليؤكدوا استقلالهم عن السلطات الشيعية الواقعة بالقرب منهم (١) ، بالإضافة الى أن العقيدة السنية كانت تمثل عصور العظمة الأولى في التاريخ الاسلامي خاصة في عهد الخلافة الراشدة ، وكانت لا تزال هي عقيدة أغلبية المسلمين • لهذا فان مسلمين كثيرين كانوا يعتبرون دخولهم في طاعة الترك هجرا للبدع ، واحياء لسنن السلف • أما العامل الثاني فكان يتمثل في فكرة المسلمين عن الجهاد (الحرب المقدسة) وهي تلك الحروب التي يشنها الغزاة باعتبارهم حماة العقيدة ، والذين ينظرون لبلائهم في ساحة الوعى كواجب مقدس ، فالرباط والغزو انطلاقا من ثغور الاسلام كان يسبغ على دور الترك شرفا يتلاءم تماما مع تراثهم الحربي • ورغم ان الطمع في الغنائم والاسلاب والرغبة في تحقيق الذات ، كان يمثل عند الترك حافزا أقوى من التقوى والجهاد في سبيل الله (١) ، الا أن فكرة الحرب المقدسة جعلت من الميسور للمحاربين الترك أن يحتلوا في عالم الاسلام مكانا حفيا ، وجعلت المسلمين في المناطق الحضرية يضمون الى أجهزة الحرب التركية ضد جيرانهم من الهندوس والمسيحيين •

لقد شغل احراز الترك للسيطرة السياسية على العالم

---

(١) الواقع أن عقائد السنة بما فيها من بساطة ووضوح هي التي جعلت الترك ـ وهم بداة في الأساس ـ يعتنقونها ، كما أن الغلو والتعقيد في عقائد غير السنة ، قد تسرب في معظمه من عقائد غير اسلامية ، ولما كان الترك قبل الاسلام على الوثنية في الغالب الأعم ، لذا فقد كان اعتناقهم للسنة النقية طريقا طبيعيا ـ (المترجم) •

(١) يميل الكتاب الغربيون لتفسير حركة الجهاد الاسلامي منذ فجر التاريخ الإسلامي ، تفسيرا اقتصاديا • والواقع ان المبالغة في هذا خروج عن الموضوعية التاريخية ، فرغم عدم انكار العامل الاقتصادي الا أن تفريغ حركة المسلمين من الرغبة في الجهاد ونشر الدين وكسب ثواب الله (سبحانه) فيه خروج عن الموضوعية والكتاب المسلمون الذين ردوا على هذه الفرية أكثر من أن يحصوا تحت حصر ـ (المترجم) •

الاسلامى مساحة زمنية امتدت من القرن الحادى عشر الى القرن الثالث عشر ، ثم انقطع التطلع التركى لهذه السيطرة السياسية فى فترة الغـزو المغـولى الذى بدأه جنكيزخان (١٢٠٦ ـ ١٢٢٧) ثم كان احياء هذه السيطرة السياسية التركية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، فكان وصول الموجات التركية الزاحفة الى الشرق الأوسط قدمة من مناطق السهوب قد أحدث تدميرا قاسيا لاقتصاد البلاد ، وأشاع الفوضى السياسية فى هـذه المنطقة التى تشـغل من العالم قلبه • ومع هذا ، فقد أدى ذلك الى انتشـار الاسلام أكثر مما أدى الى اعاقته •

لقد نتج عن الحروب المتتالية فى قلب العالم الاسلامى، سيل دائم من الجند المدربين الذين كانوا شغوفين بخـوض المعارك لتحقيق الكسب المادى ولفرض العقيدة الصحيحة على العالم المسيحى • كما كان الاضطراب الذى سـاد فى قلب العالم الاسلامى والذى يمكن تشبيهه بمذراة هائلة تبعثر كل شىء فى الهواء ـ يمتص المقاتلين من منـاطق السـهوب (الاستبس) ويجلبهم الى قلب العـالم الاسـلامى ، ويدفع الفائض منهم عبر الحدود •

وهكذا توفر التركيب الأساسى من القوى الاجتماعيـة مما يتيح فرصا ضخمة أمام أى أسرة حاكمة مسلمة يكـون لديها القدرة عـلى جلب الاسـتقرار السـياسى فى الشرق الأوسط ، واخضاع هذه الطاقات المتحمسـة لارادة سـلطة واحدة ، وتأسيس جهاز حرب لا مثيل لقوته لاعلان الحـرب ضد الغرب المسيحى •

وفى الواقع ، فاننا نجد أن السلطة المطلقة والموحدة لم تقم ابدا ، وان كان توحيد السلطة على نحو جزئى فى يد السلاطين العثمانيين ، يعطينا دليلا على عظمتهم ويفسر لنـا نجاحهم • فقبل قدوم العثمانيين للشرق الأوسط كان عدم الاستقرار والثورات المستمرة هما سمة هذه المنطقة ، بما نتج عن هذا من تخريب للمناطق التى تمثل بالنسبة للعالم

الاسلامى قلبه ، فقد عانى العراق وسوريا بفظاعة قبل قدوم العثمانيين • وفى الوقت الذى عانت فيه مناطق العالم الاسلامى الهامة ، وجدنا منطقة الأناضول (١) التى كانت أقل قيمة ، قد أصبحت أقل اضطرابا ، وأصبح لها اهمية كبيرة ، فان انتقال المركز الاقتصادى للعالم الاسلامى الى الأناضول ، تلك المنطقة الصيقة ببيزنطة ، وذات المداخل المؤدية للعالم المسيحى الغربى ــ قد مهد لظهور قوة اسلامية فى هذه المنطقة صار فى مكنتها أن تنظم وتشن هجوما شرسا ومتصلا عبر حدود الاسلام الغربية •

فقد كانت الأناضول أو اسيا الصغرى واحدة من الولايات الرومانية الثرية ، وقد سقطت فى هوة الفوضى السياسية ، كما حدث للامبراطورية الرومانية ذاتها ، فقد أصابتهما ــ الامبراطورية والولاية ــ الملاريا والأوبئة ، خاصة الطاعون ، وهاجمها الفرس والعرب فى القرنين السابع والثامن للميلاد غير أن الامبراطورية البيزنطية الفتية قد أحيت فى القرن التاسع ما اندثر من هذا الازدهار، فمنذ القرن التاسع للميلاد ازدهرت الأناضول فى ظل الرقابة الامبراطورية المباشرة لتصبح معين قوة بيزنطة ورخائها • فقد كانت الأناضول تنتج من الفاكهة والحبوب والزيتون واللحوم ما كان يكفى الامبراطورية كنها ، كما كان الفلاحون الأناضوليون هم عصب الجيوش البيزنطية ، وخلال القرن العاشر ، تعرضت الأناضول لضغط القبائل القادمة من سهوب تركستان الجافة ، فكانت المعركة الساحقة الماحقة التى لاقتها القوات البيزنطية على أيدى هؤلاء الغزاة فى معركة منزيكرت (ملاذكرد) سنة

---

(١) كان العرب يطلقون على هذه المنطقة اسم بلاد الروم ، أو أرضروم ، وحتى بعد فتح القسطنطينية أطلق على العثمانيين اسم الروم ، وكذلك كان يطلق على السلاجقة من قبلهم ــ (المترجم) •

انظر : عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ، ١٩٧٤ ، ص ٢٦ •

١٠٧١ (١) ، فاتحة عهد جديد ، شهد تقلصا وانحسارا فى الحدود البيزنطية ، بشكل مستمر ، نتيجة لغارات أمراء الحدود الأتراك ، الذين أسبغ عليهم سلاطين السلاجقة ألقاب (الغزاة) باعتبارهم أدوات ضاغطة على الحدود البيزنطية ، وقد حقق السلاطين السلاجقة نجاحا أوليا فى كفاحهم لتجميع هذه القبائل التركية الشرسة فى تحالف عريض تحت سيطرتهم •

وخلال القرن الثالث عشر ، عمت الاضطرابات على نحو ما ، كلا من السلطنة السلجوقية والامبراطورية البيزنطية • فلم تكن بيزنطة قد أفاقت من أحداث سنة ١٢٠٤ ، عندما استجاب المشاركون فى الحملة الصليبية الرابعة لاستدعاء البنادقة فاستولوا على القسطنطينية ونهبوها ، وأعقب هذا تمرد ولايات اليونان والبلقان وانشقاقها ، واكتملت سلسلة الكوارث والمصائب التى حاقت بالدولة البيزنطية بانتشار الطاعون يحصد سكانها حصدا فى أواخر الأربعينات من القرن الثالث عشر •

وفى نفس الوقت ، فان جهود السلاطين السلاجقة لفرض النظام على القبائل التركية قد ذهبت أدراج الرياح بسبب ما قام به المغول من سلب ونهب اذ كان المغول قد بدأوا فى شن غارات بربرية قاسية وخاطفة ، وأعدوا الحملات ، وجيشوا الجيوش ، موجهين اياها الى آسيا الصغرى مما أدى الى اضعاف قوة السلاطين السلاجقة ، مما مهد لازالتها تماما •

وقد أدى هذا الى تحرر زعماء الثغور (غزاة الحدود) من آخر قيود السلطة المركزية ، ومما زاد من قوة هذه الامارات (المشيخات) الضغط على الحدود البيزنطية ، واستعدت

---

(١) منزيكرت اسم مدينة بارمينية بالقرب من بحيرة وان ، وعندها وقعت المعركة ، وقد حل الدمار بجيش رومانوس الرابع ديوجينس ، البيزنطى ، الذى كان يفوق جيش الب ارسلان السلجوقى عددا ، وقد وقع الامبراطور أسيرا فى أيدى السلاجقة ، ثم افرج عنه •

السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٢م • ص ٨٣٢ – (المترجم) •

للانطلاق في شرق أوروبا ، طالما كانت الظروف الجغرافية مواتية • وكانت الامارة التى أسسها أرطغـول (توفى فى سنة ١٢٨١) فى الداخل ، مظاهرة لمدينة بروصة(١) المطلة على بحر مرمرة ، من بين هذه الامارات المتعـددة (امارات الغزاة ، والغزاة جمع غاز ، وهو لقب الأمير) التى انبثقت عن بقايا الأنظمة السياسية الكبرى والعريقة فى الاناصول، فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر •

وكانت امارة أرطغرل هذه هى أصل الدولة العثمانية وهـذه الامارة ـ عـلى صـغرها ـ كانت تحظى بميزتين ، أولهما أنها من الناحية الجغرافية ، كانت بعيدة عن منطقـة الغزو المغولى ، كما أنها من ناحية أخرى كانت بعيـدة عن الامارات التركية القوية فى جنوب الاناصـول ، وجنـوب غربه • وثانيهما ، أن امارة أرطغرل تلك ، كانت هى الامارة التركية الوحيدة التى كانت بمثابة رباط ، يواجه المناطق البيزنطية التى لم تفتح بعد ، فسـائر الامارات التركية ، خلا امارة أرطغرل هذه ، كانت قد وصلت فى امتدادها الى الساحل ، وعلى هذا فقد كانت امارة أرطغرل ذات سحر خاص بالنسبة للمغامرين واللاجئين والجند المرتزقة ، الدين اسال لعابهم فرص الحصول على الغنائم كما كانت ذات سحر خاص بالنسبة للدراويش الباحثين عن المريدين ، وذات سحر خاص بالنسبة للزراع التواقين للحصول عـلى أرض يزرعونها ، والذين انسابوا أمام المغـول هاربين لا يلوون عـلى شيء • وبينما كانت الامارات التركية الأخـرى فى حالة نزاع بين بعضها والبعض الآخر ، لتقسيم أراضى الدولة البيزنطيـة التى تم الاستيلاء عليها فعلا ، كان الحكام الترك فى امارة أرطغرل مازالوا قادرين على تقديم مسـاحات شـاسعة من الأراضى ، أو اتاحة فرص الغنـائم ، لـكل من ينضوى تحت لوائهم •

---

(١) بروصة أو بروسة هى اسكى شهر ، وفيها ولد عثمان بن أرطغرل الذى ينتسب له العثمانيون ـ (والمترجم) •

تلك الجاذبية الاجتماعية ، وهذه النزعة التوسعية ، قد مكنت العثمانيين من مد سيطرتهم في آسيا الصغرى ، واقتحام البلقان ، في آن واحد • وكان معنى انشاء دولة عثمانية ذات كيان مهيب ، استمرار التوسع ، بالاضافة الى ترويض جموح الغزاة (المحاربين) ليصبح المجتمع داخل هذه الدولة أكثر استقرارا وعقلانية • وكن هذا السحون من انجاز السلطانين : أورخان (١٣٢٦ ــ ١٣٦٢) ومراد الأول (١٣٦٢ ــ ١٣٨٩) ، كما كان استيلاء العثمانيين على المدن الكبرى ــ كما حدث لبروسة في سنة ١٣٢٦ ، ونيقية في سنة ١٣٢٩ ، ونيقوميديا في سنة ١٣٣٧ ، وأدريانبول (١) في اوروبا في سنة ١٣٥٤ ــ قد أرسى الامبراطورية على دعائم استقرار حضرية • وقد كان لتشجيع العثمانيين لمعتنقي المذهب السني ضد أصحاب البدع وعناصر الدراويش غير الجديرين بالثقة ، نتيجتان هامتان ، اذ أدى هذا الى التأكيد نسبيا على التسامح الديني مع الرعايا المسيحيين مما ادى الى حسر الاعتراضات والثورات ضد الحكم العثماني من قبل الفلاحين المسيحيين الاورثوذكس في آسيا الصغرى والبلقان ، كما ساعد هذا على قيام أهل السنة بانشاء مدارس المساجد التي تعد بمصانع علماء ، كانوا خبراء في العقيدة والشريعة كما كانوا منضبطين مهذبين ، مما اهلهم ليكونوا نواة جهاز ادارة مبسط •

على أن الأكثر أهمية في كل هذا ، هو اصلاح النظام العسكري • لقد كانت الأداة الأولى في قوة العثمانيين هي فصائل البدو الفرسان ذات التسليح الخفيف ، مما يتيح لهذه الفصائل سرعة الحركة ، وهذه الفصائل هي التشكيلات العسكرية الطبيعية لشعوب السهوب المحاربة ، وقد استبدلت هذه الفصائل تدريجيا بتوزيع حصص التيمار وأعيد ترتيب هؤلاء الفرسان وفقا لحصصهم من الاقطاع والتيمار والألقاب ، وقد حقق هذا الاصلاح هدفين في نفس الوقت ، اذ ربط

(١) ادرنة في الأطلس المعاصرة ــ (المترجم) •

الفرسان بالسلطان رباطا لا فكاك منه ، كما فتح شهيتهم لمزيد من الفتوحات • وقد دعمت ووزنت هذه القوى المحمولة (الفرسان) بانشاء الانكشارية وهم فرق من العبيد المرتزقة من مشاة الحرس الامبراطورى (السلطانى) يتم تجنيدهم أو اجبارهم على الخدمة ، وكانوا فى الأساس من بين المسيحيين الذين تحولوا عن المسيحية من الشعوب الخاضعة للعثمانيين • لقد كان استخدام الجند الأرقاء لتدعيم سلطة الحاكم الشخصية ، سمة من سمات المجتمع الاسلامى وتقليدا واسع الانتشار منذ وقت باكر • فعادة ما كان الحاكم المسلم يواجه بما يهدد حكمه من قبل العامة والغوغاء ، أو من قبل نبلاء محاربين يدعون حق وراثة الحكم ، لذا فان هذا الحاكم يجد فى نفسه ميلا لزيادة عدد حرسه الخاص وتسليحه ، الى أن يصبح هذا الحرس المكون من عبيده (مماليكه) الشخصيين جيشا قائما بذاته •

وقد قام الترك أنفسهم بدور الجند العبيد فى عهد الخليفة العباسى المعتصم (٨٣٣ ــ ٨٤٢) الذى بدا هذا النظام ، وقلده عدد كبير ممن أتوا بعده ، وقد أصبح الترك الآن فى وضع السادة ، لذا فقد نقلوا هذا النظم جمله وطبقوه على رعاياهم الجدد ، وطوروا التزامات ومزايا كل نوع من الخدمات والأعمال التى كان يتعين على هؤلاء الرعايا الجدد فى المناطق المفتوحة ، أن يقوموا بها • الا أن هذا النظام لم يتم تطويره وتوسيعه حتى منتصف القرن الخامس عشر ، ففى هذا الوقت أصبحت جماعة العبيد التابعة للسلطان موردا ضخما لملء الوظائف الادارية والعسكرية • وكان نظاما التيمار والانكشارية فعالين كل منهما على حده، ولا شك أنهما أصبحا أكثر فعالية بعد تزاوجهما والتنسيق بينهما على أيدى السلاطين العثمانيين • ذلك أن وجود نظامين يخلق توترا دائما بين دعامتى الجيش العثمانى : الفرسان الاحرار ، والمشاة العبيد ، وهو موقف يمكن للحكام

استثماره لمصلحتهم الشخصية (١) • فقد كان ثمة ضرورة اجتماعية لوجود سلطة تحكم وتحفظ التوازن وتضمن الانضباط بين هذه العناصر ، وكان هذا أحد مصادر القوة لحكم السلاطين العثمانيين المطلق • ففى مرحلة الانتقال من فصائل الفرسان البدوية الى دولة امبراطورية عثمانية ، يبدو أن حكم أورخان كان نقطة حاسمة فى تاريخ هذا التطور • ولعل أبلغ رمز لهذا التحول هو النقش الخاص به (أورخان) والذى نقش فى مسجده الجديد فى بروسة بعد فتحها • فنص هذا النقش يؤكد على استمرارية شخصية الغازى للدولة الجديدة ، كما أنه يؤرخ اتخاذ أول أمير عثمانى للقب الامبراطور (سلطان) ، فهو « السلطان ابن سلطان الغزاة • الغازى ابن الغزاة • حاكم الآفاق ، وسيد العالم » •

لقد كان أورخان أيضا هو الذى قاد أفراد شعبه فى أول فتح لهم فى أوروبا ، فقد انتقلوا من آسيا فى سنة ١٣٤٥ كجند مرتزقة فى خدمة البيزنطيين، لكنهم سرعان ما انطلقوا متحررين من السيطرة الامبراطورية ، اذ أنهم منذ سنة ١٣٥٠ تحركوا فى أوروبا كغزاة مستقلين وكمستوطنين ، فاستقروا وشغلوا الساحل الأوربى لبحر مرمرة ، وضغطوا على تراقيا Thrace المورة وفى سنة ١٣٦٣ أرغم الامبراطور البيزنطى على ممتلكاتهم الأوربية • ومن هذه المواقع المميزة انطلق العثمانيون لسد الفراغ الذى نتج عن اضمحلال النفوذ البيزنطى فى جنوب شرق أوروبا • وبنهاية الحقبة رسخوا أقدامهم (أى العثمانيين) فى بلغاريا ووصلوا للدانوب وجبال رودوب Rhodope وقد جعلهم هذا على درجة عالية من التنظيم فى أول مواجهة لهم مع قوة أوربية ، ونعنى بها الصرب •

وكان تحطم وانهيار الدولتين المسيحيتين الهامتين ، الصرب ، فى أواخر القرن الرابع عشر ، والمجر ، فى أوائل

---

(١) المقصود أن هذا يحدث توازنا استراتيجيا فى القوات المسلحة العثمانية ـ (المترجم) •

القرن السادس عشر – نجاحين يحتلان مركزا زمنيا متوسطا في التاريخ الطويل للنجاحات العثمانية في البلقان بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر • فاذا أخذنا في الاعتبار أن أي صراع لابد أن يتعرض لمد وجزر بين القوى المتصارعة، بالاضافة الى انصراف العثمانيين في أحيان كثيرة الى مشاغل أخرى ، اتضح لنا أن هذه الانتصارات العظيمة لابد ان تتلوها فتوحات مرحلية ، فانهيار الصرب هو الذى جعل نهاية بيزنطة وسقوطها ، أمرا محتوما ، كما قدم نموذجا مبدئيا للصورة التى اجتاح العثمانيون على نهجها المجر بعد ذلك • وحتى في منتصف القرن السادس عشر لم تكف العناصر التركية عن التسلل تدريجيا في أوروبا الشرقية رغم أنهم كانوا ما يزالون بعيدين عن السيطرة على كل آسيا الصغرى ، ومن هنا فان الامبراطورية الصربية الضخمة والتى كانت قوية شديدة البأس في ظاهر الأمر ، كانت أولى من العثمانيين في الاستحواذ على القسطنطينية ، والاستحواذ على الميراث البيزنطي ، وكان يبدو أنها ستكون الدرع الأوروبي الواقي في وجه المزيد من التقدم التركي •

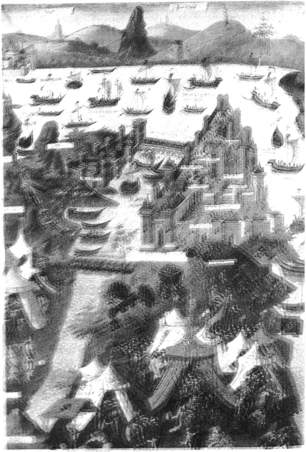
وقد كانت مملكة الصرب القديمة مجرد دولة صغيرة تابعة لبيزنطة ، وكانت تشغل موقعا وسطا بين بيزنطة (التى كانت حدودها تضم مقدونيا الحديثة) والمجر (التى كانت تضم في ذلك الوقت ما يعرف الآن بالبوسنة وكرواتيا والشاطيء الشمالي للدانوب) وبلغاريا (التى كانت تضم وقتها نيس Nis وأراض تابعة لها غربا) • على أن تدهور بيزنطة في القرن الثالث عشر سمح باعادة تكوين صربيا، وتمركزها حول عاصمة جديدة ، هي أوسكوب U kub ومن هذا المركز توسعت صربيا بسرعة تحت حكم ستيفان دوسان Dusan (١٣٣١ – ١٣٥٥) الفعال ، الذى اتخذ لنفسه لقب قيصر الصرب والاغريق ، والحق بحكمه كلا من مقدونيا وتراقيا وابيروس Epirus وتسالي Thessaly

وجعل من بلغاريا كيانا تابعا ، وصل بحدود ممتلكاته الى سواحل البحر المتوسط المواجه لكورفو ، والى بحر ايجة عند سالونيكا ، وقد أرسى دوسان دعائم نظام سياسى ودينى ، المعى ، على النسق البيزنطى ، وأعاد تنظيم الكنيسة الصربية وأحياها لتدعم وتؤيد نظام الحكم الجديد ، وكانت اللغة اليونانية هى لغة الادارة وجند للخدمة المدنية موظفين مدربين فى بيزنطة ، وتوج صرحه الامبراطورى باعلان مجموعة قوانينه الشهيرة التى عرفت بتشريعات دوسان Dusanov zakonik فى سنة ١٣٤٩ .

وعلى الرغم من ذلك فان ذلك الصرح الذى كان يبدو شامخا ، لم يكن فى حقيقته الا شبح امبراطورية ، فقد تجلى هذا الوهن والخواء المريعان أمام الضغط العثمانى المتزايد. اذ اتضح أن هذا المجتمع الذى كونه دوسان كان هشا ، منقسما على نفسه ، ولم يكن ليقوم لولا الفراغ الناجم عن تراخى الحكم البيزنطى ، فلم يكن اتخاذ امبراطورية الصرب للثقافة البيزنطية منهجا الا قناعا أخفى مؤقتا نزعات الفرقة والتشتت الكامنة فى طبقة النبلاء الاقطاعيين الأنانيين ، غير المنضبطين ، والذين لا يمكن الوثوق بهم ، لكن هذا الاخفاء المؤقت ، لم يستأصل جذور هذه الفرقة وذلك التشتت ، فقد كان كثيرون من هؤلاء الزعماء الاقطاعيين والنبلاء ميالين الى السلطان العثمانى ، خلال أزمة سنة ١٣٨٩ . وحتى تشريعات دوسان كانت فى حقيقتها – عند تأملها بامعان – اقطاعية فى مضامينها الأساسية ، ولم تكن بيزنطية الا فى شكل صياغتها . فالمراكز الحضرية ، مثل أوهريد Ohrid وسالونيكا وكافالا Kavala قاومت بشراسة الاندماج فى دولة ذات كيان وحدود . وكان الصراع الاجتماعى الداخلى بين النبلاء والفلاحين قد اتخذ طابع الحدة نتيجة انتشار الطاعون بعد سنة ١٣٤٦ مما سبب نقصا شديدا فى القوى العاملة ، وقد أدى هذا بالتالى إلى قسوة طلبات وتجاوزت الإقطاعيين .

وكان حجم امبراطورية الصرب الهائل ، قد أخفى عن الأنظار حقيقة ضعفها الاستراتيجي ، فقد كانت الدولة تقوم على مناطق يخترقها طريقان متقاطعان للتجارة الدولية والمواصلات : الطريق الممتد شرقا وغربا من راجوسا (الآن دوبروفنك Dubrovin) عبر نوفيبازار Moubazar ونيس Nis وصوفيا Sofia وفيليبوس بوليس Philippolis وأدريانبول Adrianpole (أدرنه) الى القسطنطينية ، والطريق الممتد من الشمال الى الجنوب ، هو ممر مورافا Morava ــ فادر Vader الذي يربط ملتقى الدنواب وسافا Sava عند بلجراد ببحر ايجه عند سالونيكا . وكان المحور الأساسي للامبراطورية هو منطقة تقاطع الطريقين المذكورين أنفا ، مما يمكن الغزاة من الوصول الى قلب امبراطورية الصرب بسهولة ، من الشمال ومن الغرب ، ومن الجنوب ، واذا ما حدث أن فقد القلب ممثلا فى هذه المنطقة ، سقطت المناطق الأخرى المعتمدة عليها ، تباعا دون أن يكون هناك مجال لمناطق أخرى يمكن اللجوء اليها لتنظيم مقاومة أو اتخاذ مواقف دفاعية أو هجومية مضادة ، بالاضافة الى أنه لم يكن ثمة ولاءات محلية عميقة يمكن للحكام الصربيين الوثوق بها عند الهزيمة .

وانطلاقا من هذا الواقع الاجتماعي والجغرافى ، كان الحل الوحيد الفعال المتاح للملكية الصربية ، لمشاكلها تلك ، هو ما لجأت اليه المجر فى أوائل القرن السادس عشر ، ألا وهو انشاء جيش من المرتزقة ، لكن الموارد الصربية كانت تضيع هباء فى تقايد بيزنطى زائف ممثلا فى حفلات البلاط الفاخرة ، وتشييد كنائس فاخرة المبانى ، وبيروقراطية تدعو للسأم . وكانت هذه الرفاهية مقبولة عندما كان السلب من المناطق الحدودية ممكنا ، مما يتيح الانفاق على العسكريين المحترفين ، ولكن غزوات دوسان ، كانت قد وصلت أقصى حدودها ، وبالتالى لم يعد من الممكن الحصول



رسم فرنسي يعود لسنة ١٤٥٥يبين اسطنبول (القسطنطينية) وكيف ملأها العثمانيون
بالقوات البحرية والبرية فى أواخر سنة ١٤٥٣



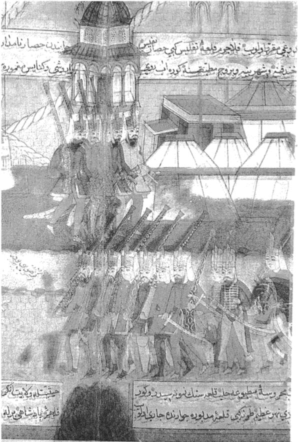
جارية تركية لباسها يوضح البذخ
الذى انغمس فيه المجتمع
التركى بالتدريج



الزى الرسمى للبكلربك



الحصار العثماني لفيينا



فى فترات توقف الضغط العثمانى على أوروبا   عادة ما كانت الجيوش العثمانية تخوض
غمار الحروب فى الشرق خاصة ضد فارس . وفى الصورة نجد القائد العثمانى يدخل مدينة تفليس
(عاصمة جورجيا المقاطعة الفارسية) وذلك سنة ١٥٧٨ ، وقد تقدمته كتائب الانكشارية .

على مزيد من الأسلاب • وعندما وصلت حملات دوسان الى اقصاها ، وبلغ توسعها مداه ، وجدت امبراطورية الصرب نفسها ملامسة للوجود العثمانى حيث كان صدام مهول مع العثمانيين الذين أصبحوا بالفعل يشكلون عازلا بين امبراطورية الصرب وضحيتها التالية بالضرورة ، وتعنى بها بيزنطة • ووصل الأمر بعد موت دوسان فى سنة ١٣٥٥ أن سحق العثمانيون الصرب ، نتيجة لما حاق بها من تحرب وتمزق • فقد هزم العثمانيون الصرب عند نهر ماريتس Maritza فى سنة ١٣٧١ ، كما خسرت صربيا لصالح العثمانيين مناطق بلغارية شاسعة ، ومعظم مقدونيا ، ووقعت نيس Nis فى أيدى العثمانيين فى سنة ١٣٧٩ • وبدأ العثمانيون بعد هذا فى تأكيد فتوحاتهم فى البلقان باحتلال منظم لليونان وبلغاريا ، وفى سنة ١٣٩٦ عاد العثمانيون للتركيز على مشروعاتهم الهمة ، والتى لم تكن قد انجزت بعد ، فى اسيا الصغرى ممثلة فى حصار القسطنطينية ، والاجهاز على الامبراطورية البيزنطية • وقد حارب البرجنديون وحلفاؤهم فى حملة Nicopolis الصليبية سنة ١٣٩٦ لاجبار السلطان على رفع الحصار الأول عن القسطنطينية ، الا أن هؤلاء الصليبيين واجهوا الهزيمة امام القوات الاسلامية • وكان الحصار الثانى للقسطنطينية فى سنة ١٤٠٢ ، الا أن العثمانيين اضطروا لرفعه عندما قام القائد المغولى تيمورلنك Tamerlane يغزو آسيا الصغرى ، وكان الخراب الذى خلفه تيمور قد شكل مشكلة خطيرة طويلة الأمد كان على العثمانيين مواجهتها باعادة تعمير مناطقهم فى هذه الأنحاء • وقد شغل هذا العثمانيين ، مما أتاح لشرق أوروبا أن تجدد مقاومتها للتقدم العثمانى • وقد حمل اسكندر بك Scander beg فى ألبانيا ، وجون هنيادى Hunyadi فى ترنسلفانيا ، ونيابة عن المجر — على عاتقيهما هذه المهمة • ولم يتمكن العثمانيون من اعادة حصار القسطنطينية الا بعد أن هزموا هنيادى فى المعركة الثانية المعروفة بمعركة كوسوفو

Kossovo في سنة ١٤٤٨ ، فقد تمكن العثمانيون من تطويق القسطنطينية في سنة ١٤٥١ ، واسقطوها في سنة ١٤٥٣ • وقد ادى سقوط بيزنطة الى موجة من اللاجئين، كما أدى الى موجة من الرعب واليأس والصدمة في العالم المسيحي • لقد أصبح بقاء المناطق الاوربية ، التي فتحها العثمانيون ، في قبضتهم ، أمراً مضموناً ، بعد فتح القسطنطينية ، التي كانت هي القاعدة الاستراتيجية الوحيدة التي كان يمكن للعالم المسيحي استخدامها ضد العثمانيين • وبنفس القدر كانت هيمنة الامبراطورية العثمانية على سلطنة المماليك في مصر وسوريا في سبيلها للتحقيق، رغم أن القاهرة لم تكن ضمت رسميا للقسطنطينية (استنبول) حتى ١٥١٦ / ١٥١٧ ، عندما قام السلطان سليم (القاسي) أخيرا بتحطيم المقاومة المملوكية في ساحة الحرب• وكان سقوط القسطنطينية من وجهة نظر العثمانيين ليس مجرد نصر عسكرى عظيم ، فلم تكن القسطنطينية مدينة عادية ، بل عاصمة كبيرة ، ومركزا لشبكة مواصلات تجارية واسعة وممتدة ، وقاعدة ادارية ، غير أنها تفسخت في القرون الأخيرة ، وها هي بعد ان وقعت في أيدى العثمانيين أضحى من الممكن بعثها من جديد لخدمة أهداف السادة الجدد (العثمانيين) ومصالحهم • ولوقوع القسطنطينية موقعا وسطا بين آسيا وأوروبا ، أصبحت هي العاصمة الطبيعية للامبراطورية العثمانية التي تمتد ولاياتها في القارتين • فرغم استيلاء العثمانيين على مراكز حضرية كثيرة — قبل استيلائهم على القسطنطينية — أثناء فتوحات القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر ، ورغم ترسيخ دعائم الاصلاحات الادارية التي قام بها أورخان ومراد الأول ، الا أن العثمانيين كان يمكن وصفهم قبل سنة ١٤٥٣ (سقوط القسطنطينية) بأنهم في الأساس مجرد فصائل وجماعات شرقية ، يتحركون عبر الديار التي وطؤوها دون منطلق أو نقطة ارتكاز ، الا أنه بعد استيلائهم على القسطنطينية تحولت الدولة العثمانية الى واحدة من أعظم

امبراطوريات التاريخ التى التحمت فيها قوة العنصر وجمال الفنون ، وتمثلت فيها عمليات التماسك والاندماج بشكل أكثر ما يكون وضوحاً فى توسيع واتقان نظام الرقيق السلطانى (عبيد البيت السلطانى) خلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، فتلك كانت هى الفترة التى تم فيها تنظيم ضريبة الأطفال البلقانيين ، اذ تم الحصول عليهم بأعداد كبيرة لسد حاجة الدولة الماسة للعسكر والاداريين كما أن سقوط القسطنطينية حقق للعثمانيين هيمنة على مضايق البحر الأسود وهيأ لهم مخزنا ضخما للمواد الغذائية والتموينات ، والقوى العاملة ، ممثلة فى العبيد ٠

فخلال أوائل القرن الخامس عشر ، كانت المستعمرات التجارية اليونانية والجنوية على شواطىء البحر الأسود تمارس التجارة المربحة مع أوروبا ، فى الحبوب والخيول والرصاص والأسماك، كما تتاجر أيضا — اذا اتيحت الفرص — فى العبيد الروس ، وعندما تمركز العثمانيون فى القسطنطينية خنقوا هذه التجارة ، وحولوا أسماك وغلال وأخشاب أوروبا البحر الأسود لتمويل القسطنطينية (اسطنبول) وبناء أسطول هائل ٠ وفى سنة ١٤٧٥ استولى الأسطول العثمانى على كافا Caffa ، المرفأ الجنوى الرئيسى، كما استولى على موانىء أخرى هامة فى البحر الأسود ٠

وقد أجبر تتر شبه جزيرة القرم Crimean Tartars على التعايش مع العثمانيين ، أولئك المحتلين الجدد للمدن الساحلية ، والدين كان بأسهم شديدا ، فمنذ سنة ١٤٨٠ ، زادت غارات تتر شبه جزيرة القوم على بولندا وأوكرانيا للحصول على الرقيق ، زيادة كبيرة ، وكان ضحايا هذه الغارات يشحنون جماعات من موانىء البحر الأسود ، ويوجهون جنوبا الى اسطنبول ، حيث يستخدمون فى تحقيق أهداف العثمانيين فى جلب السرور والكبرياء وتحقيق الأغراض الامبراطوريه ٠

لقد كانت بيزنطة هى روما الثانية ، ليس بالمفهوم السياسى فقط ، وانما من حيث التنظيم الاكليركى أيضا ٠

وكان عدم مقدرة الكنيسة اليونانية الأورثوذكسية فى الوفاق مع البابوية ، سببا كافيا لفشل قوى المسيحية الكبرى فى الغرب ، للتحرك لاسعاف الامبراطورية البيزنطية المحتضرة خلال حصار العثمانيين للقسطنطينية فيما بين عامى ١٤٥١ و ١٤٥٣ • وبسقوط القسطنطينية أصبح قدر المسيحية اليونانية الأورثوذكسية بأيدى العثمانيين • وكان تصرف محمد الفاتح (الثانى) بعد الفتح ، مقياسا لمدى النقلة الحضارية التى حققها العثمانيون مبتعدين عن تراثهم البدوى •

لقد رأينا كيف استعان السلاطين العثمانيون الأول بالعلماء (علماء الدين) فى محاولة منهم لتحويل امارات قطاع الطرق التى كانت تمارس نشاطها فى المناطق الحدودية الى امبراطورية اسلامية كبرى • وكان لهذا تأثيران غريبان، فمن ناحية ادى هذا الى تعزيز مكان الشريعة فى الحياة العثمانية ، مما مكن علماء الدين من توسيع الخرق بين المسلمين والمسيحيين ، ذلك الخرق الذى كان فى أضيق الحدود ، خلال الحقبة الأولى من التوسع العثمانى ، عندما كانت هرطقات الصوفية غالبا ما تتداخل مع العقيدة المسيحية ، ومن ناحية أخرى ، فانه ، مهما كان الأمر ، فان الشريعة الاسلامية نفسها كانت تدعو للتسامح مع أهل الكتاب ، ولا تحث الا على جدال النصارى واليهود بالتى هى أحسن ، وقد أدى هذا الى كبح جماح هؤلاء الغزاة ، فلم يمعنوا فى الاندفاع المتهور ضد غير المسلمين • ولهذا ، فانه بانزواء الغزاة العظام الذين سادوا العهود العثمانية الأولى، ليحل محلهم عبيد الحرس السلطانى ، وعلماء الاسلام السنة — انحسر تحول المسيحيين الى الاسلام ، الا من حالات فردية اقتصرت على رافد واحد ، هو الخدمة فى الحرس السلطانى•

وكان احتمال التحول للاسلام فى المناطق النائية والجبلية كالبوسنة حيث تفشت العقيدة المانيشية **Manichean** والبوجومالية **Bogomilism** احتمالا سهل التصور •

وفى كريت وألبانيا ، حيث أدت الحروب المحلية المتوالية ـ الى خلق روح مشابهة بروح الغزاة الفاتحين القدماء ، الى تحول ملحوظ من المسيحية الى الاسلام ، بعد القرن الرابع عشر • وقد أدى عدم انتشار الاسلام بالقدر الكافى ، الى خطر واضح ، مؤداه أن الامبراطورية العثمانية برهنت على عدم قدرتها على دمج جماهير الرعايا المسيحيين الأورثوذكس الذين انضووا تحت لوائها فى البلقان ، الا أن فتح القسطنطينية قد هيأ حلا مناسبا لهذه المشكلة ، فقد كانت المدينة قاعدة بطريارك الأورثوذكس اليونانيين، لذا فقد قام محمد الفاتح بتنصيب القس قناديوس Gennadios المشهور بعدائه المرير للكاثوليكية ، والذى كان يحظى بشعبية واسعة ، كبطريارك للأورثوذكس ، بل ان محمدا الفاتح قد أقر الامتيازات والحصانات التى كانت الكنيسة الأورثوذكسية تتمتع بها فى ظل الامبراطورية العثمانية ، وزاد عليها مما جعل الكنيسة الأورثوذكسية أكثر سعادة فى عهد الدولة العثمانية منها فى العهد البيزنطى ، وتم تدعيم نفوذ البطريارك بسلطات تشريعية واسعة خاصة فى مجال قانون الأحوال الشخصية الذى طبقه على جميع رعايا السلطان المسيحيين • وفى الواقع ، فان محمدا الفاتح كان يقنن لقيام حكم ثنائى ، فرجال الدين المسيحى (الاكليروس) أصبحوا الصورة المقابلة لعلماء الدين المسلمين ، اذ كانوا يمارسون سلطة على المسيحيين ، تماثل ما يمارسه علماء العقيدة والشريعة المسلمين على المسلمين • وقد نظم السلطان علماء المسلمين تنظيما طبقيا (هيراركيا) ، وأتبعهم لنظام ادارى دقيق ، أكثر مما فعل حاكم مسلم سبقه ، وكان فى هذا متأثرا بالتنظيمات المسيحية • وهكذا ترسخت دعائم الدولة العثمانية وزادت صلاحيات سلطات السلطان الشخصية •

الفصل الثانى

بنية الدولة العثمانية

رغم أن هذا الكتاب يهتم بتأثيرات العثمانيين ــ فى عصر فتوحاتهم العظيمة ــ على أوروبا ، اكثر من اهتمامه بتاريخ الدولة العثمانية ذاتها ، الا أنه من المحال ــ فى الحقيقة ــ فصل الموضوعين بعضهما عن البعض الآخر • اذ أن تكوين المؤسسات الاجتماعية العثمانية وتطورها ، يساعدنا فى فهم التأثيرات العثمانية ، من حيث طبيعتها وعمقها ومدى امتدادها •

ففى نهاية الفترة التى ندرسها وهى نهاية القرن السابع عشر ، كان المد العسكرى العثمانى الواسع المدى ــ والذى كان ملمحا مميزا للنظام العثمانى ــ قد حقق أقصى درجات نجاحه ، وفى نفس الوقت كان قد استنفد طاقاته تدريجيا • فقد كان شق من المجتمع العثمانى قد تحجر وتجمد فى نهاية هذه الفترة ، كما أن قطاعات منه قد بدات تتأثر بثقافات شعوب مختلفة ، بصورة جعلتها تتكيف مع الثقافات السائدة فى الملكيات ذات الطابع البيروقراطى التى بدأت تسود الغرب الأوروبى ، لكن خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر جدنا أن هذه الامبراطورية (العثمانية) التى تمتزج فيها بصورة مدهشة الهمة والبصيرة الادارية بالنزوات الاجتماعية العارمة ــ كانت تختلف عن المجتمعات الأوروبية التى انفتحت عليها فى كل ما هو أساسى • وتبعا لذلك فان أى تحليل موضوعى لبنية الامبراطورية العثمانية

خلال تلك الفترة ، ينبغي أن يلقى الضوء على وجوه الخلاف والتباين •

• الاستخدام الشائع لمصطلح (بنية) أو (تكوين) يمكن أن يعطي انطباعا بأنه لا يشمل الا ما اتصف بالديمومة أو على الأقل ما طال بقاؤه، أكثر مما يعني المؤسسات والتنظيمات التي كانت في حالة تطور سريع• وليس الأمر كذلك• ففي تاريخ الامبراطورية العثمانية ، كان التغيير دافعا مسيطرا، حتى في اواخر القرن السابع عشر • لقد كان التغيير أمرا حتميا لا فكاك منه ، حيث الحوادث تترى مسرعة في حركتها، وما يتأتى عنها ، وحيث المشروعات الضخمة الملفتة للنظر ، وحيث الانتصارات والنكبات • وفي ظل هذه الظروف كان حتما أن تتغير بسرعة ، هويات الجماعات والمؤسسات ، وكان حتما أن تتعقد العلاقات فيما بينها •

وعلى هذا ، فعند فحص بنية الامبراطورية العثمانية ، فان الأمر الوحيد المفيد هو تتبع القوى الاجتماعية ، من حيث تكويناتها الأساسية وتفاعلاتها ، وهذا أهم من وصف أشكال هذه التكوينات من الخارج ، أو تتبع الاجراءات الرسمية ، فالتاريخ لا تصنعه اللجان ، وانما تصنعه ــ أكثر ــ قوى الضغط الاجتماعي ، ونبض المجتمع هو الذي يصيغه وينظمه (أي التاريخ) • تلك هي العوامل البنيوية الحقيقية •

لقد كان المجتمع العثماني يتحلق حول مؤسسة مركزية هي السلطنة ، تكيف معها ، وتشكل بشكلها • ومن الناحية التاريخية ، كانت هذه المؤسسة الملكية (أو الحاكمة) تعتمد على دعائم ثلاثة : السلطان ، كقائد في المعركة ، ومشرع ، بالاضافة لوظيفته الدينية (خليفة المسلمين) ، ولقد وزع السلاطين العثمانيون اهتماماتهم في كل هذه المجالات الثلاثة •

لقد كان الغزو المستمر هو قانون الحياة بالنسبة للمجتمع العثماني ، فالسلاطين يظهرون في ضوء التاريخ

العثماني المسجل كقادة للجيوش الغـازية ، وحتى عنـدما أصبح للامبراطورية عاصمة وأضحت تحكم من خلال نظام ادارى دقيق ، فانهم ظلت غالبا فى حـروب مستمرة ، وفى رباط وعسـكرة واسـعة ، أكثر مما تفعله دولة بالمفهـوم الأوروبى • حتى عندما وصل للسلطنة فى أواخـر القرن السادس عشر ، سلاطين كسولون مرفهون ، فانهم رغم هـذا كانوا قادة لهم دورهم الفعـال فى ميادين المعـارك ، فعادة ما كانوا يغادرون اسطنبول مع الجيش كل ربيع ، ويخوضون المعارك فى الصيف • ومن المفيد أن نقارن بين رحلات سلاطين القرن السادس عشر العظماء، مثل سليمان القانونى (الفخم) وحكام أوروبا المشاهير المعاصرين لهم كالامبراطور شـارل الخـامس • فشـارل لم يكن يتراجـع عن التزامات منصبه الجنرال ر منصب القيادة) وان كانت رحلاته فى الأسـاس لأهداف مدنية . اذ كانت تهدف لتدعيم الحكومة ، واصلاح حالها ، وتدعيم الترابط بين ممتلكات الدولة المتناثرة • فقد كان شارل يتهادى من عاصمة اقليم الى عاصـمة اقليم آخر ، بضمير يقظ ، محاطا بالمـوظفين والحاشـية ، يظهر لرعاياه . ويعقد الاجتماعات ، ويستقبل السفراء ، وينظر فى الالتماسات المقدمة له ، ويتبادل الرسائل ، وما هـكذا كان سليمان القانونى ، فقد كان يقضى الشتاء فى الأعمال الادارية ، ونادرا ما كان يخرج فى هذا الوقت من اسطنبول ليزور عواصم الولايات ، وفى كل صيف يجد سليمان نفسه بعيدا عن عاصمته مع جيشـه على حـدود الامبراطورية منشغلا بالتحصينات وميادين المعارك ، ونادرا ما يقيم فى المدن والمراكز الادارية ،فالمعارك والتحصينات هى مقياس التقدم عنده ، وهى أهم من المدن والمراكز الحضرية •

لقد كان الترك الأولون ، كزعمـاء فصـائل الغزاة ، يقـدرون الـزعيم كواضع للقـوانين (كمشرع) ، وكان الزعماء يتخذون قرارات قاطعة ، وكان هذا ضروريا لحسم أى نزاع ، وانهاء أى مناقشة ، ولتقسيم الأسلاب • فتطبيق العدالة بصرامة بالغة كان ضروريا لاستمرار تماسك هـذه

الفصائل المحاربة ، لاعطاء قوة دافعة لجيوش السلب والنهب هذه • ولكن السياسة التى اتخذها حكام القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، والتى كان مؤداها ، الارتباط الوثيق بعلماء الدين الاسلامى الخبراء فى العقيدة والشريعة والذين كانوا يمثلون أفكار أهل السنة ــ قد غير الموقف ففى الحضارة الاسلامية ليس ثمة فاصل بين الدين والدنيا ، أو بين القانون والدين ، فقد حكم محمد (صلى الله عليه سلم) مكة والمدينة، مقرا الاعراف المحلية ظالما كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يراها جيدة ، ولكنه غيرها بحكمة عندما تراءى له أن ذلك أفضل (أو بوحى من الله سبحانه) ، وما سلمه محمد (صلى الله عليه وسلم) لأجيال المسلمين من بعده ، ممثلا فى السنة، كان يغطى مجالات مختلفة ، كالصلاة والوضوء وتوزيع الصدقات والزكاة والصيام والحج والمعاملات والتوريث والزواج والطلاق وتحريم المسكر ، والجهاد والصيد ، والطاعة والرق (١) ، وكان من نتيجة ذلك وجود مجموعة تنظيمات وقوانين متشابكة ولكنها غير منظمة ، ولم تكن هذه القوانين كثيرة بما فيه الكفاية لتكون قانونا يأخذ شكل أحكام مرتبة (والواقع أن القرآن الكريم ما فرط فى شىء ، كما أن السنة المشرفة ، قام عليها بعد هذا علماء أجلاء فرتبوها وصنفوها وحققوها) (٢) • ولقد كان لهذه التنظيمات والقواعد (الواردة فى سنة الرسول عليه الصلاة والسلام) من الأهمية ما يفوق القوانين كما يفهمها الغربيون ، بمعناها المحدود القريب التناول، فقد كان للسنة قوة الأوامر الدينية ، وقد لخص باحث معاصر هو د•ب• مكدونالد MacDonald هذا الوضع على النحو التالى :

« القانون الاسلامى (الشريعة الاسلامية) بأكثر معانيه تجريدا ، يتناسب مع القول القديم ، وهو علم

---

(١) لم يحض الاسلام على الرق ، وانما أوصى بمعاملته بالحسنى ، وأوجد سبلا لعتقه • ورغم أن المؤلف لم يقل غير هذا ولكن التنويه هنا لازم ــ (المترجم) •

(٢) ما بين القوسين ، اضافة من المترجم •

كل شيء ، ما هو انساني ، وما هو الهي ··· فهو (القانون الاسلامي) يتناول كل الواجبات بقدرها ، ويعرف كل الأفعال في صيغ الواجبات ، فلا شيء يمكنه الافلات من ثقوب شباكه الضيقة . فأحد الفقهاء الكبار في الاسلام لم يأكل البطيخ لأنه لم يجد طريقة أكله في السنة عن النبي (صلى الله عليه وسلم ··) (٣) ·

فتأييد علماء الدين المسلمين ، هو الذي جعل سلاطين آل عثمان يمثلون قمة النظام التشريعي والديني ، وقد استخدم السلاطين هذا من خلال سلطات واسعة ، في كل حقل من حقول النشاط الانساني ، مما أضفى عليهم وضعية دينية وقوى من مركزهم · وكان السلاطين حريصين على توسيع نطاق ذلك واستثماره ، كلما أتيح لهم ذلك ، ففي سنة ١٥٣٨ أضاف سليمان القانوني (الفاخر) لقب خليفة الى قائمة ألقابه الرفيعة · وفي سنة ١٦٨٣ ، وجدنا محمد الرابع ، الذي كان أقل من سليمان اهتماما بشئون الدولة ، يقطع رحلة صيده الدورية ، لكي يسافر للمجر ، لانجاز عمل ذي طابع ديني ، وهو تقليد وزيره الأكبر قره مصطفى الرداء التقليدي الذي يجعل منه قائدا رسميا لقوات المسلمين في جهادها ضد المسيحية · واذا ما أمعنا النظر ، فان هذا النظام الثيوقراطي ، الذي طوره العثمانيون ، قد قيد من قوة السلاطين ، أكثر مما أطلقها ، اذ لم يكن في مقدور أي حاكم أن يغير الشريعة أو يعتدي عليها · وعلى هذا فان المراسيم الامبراطورية ، كانت تأويلية في طبيعتها (اجتهادية) تكيف الشريعة مع الحاجات الجديدة والظروف المتغيرة · ورغم هذه القيود فقد أمكن انجاز كثير من القوانين ، فسليمان القانوني (الفاخر) كان اداريا مميزا ذا فعالية ووعي وتأثير ، اذا ما قورن بكل السلاطين · فقد أصدر كثيرا من القوانين والاجراءات والتنظيمات المفصلة

---

(٣) لا ندري لهذا أصلا ، وان ورد مثل هذا فلا شك أنه نوع من التعنت ولا يمثل روح الاسلام السمحة ، ولا توجيهات الرسول المصطفى عليه السلام – (المترجم) ·

(الفرمانات) التى تناولت حيازة الأرض وميراث الممتلكات وواجبات الموظفين العموميين وأوضاع الخدمة العسكرية ، وقد عرف بين رعاياه باسم القانونى • فعلى الرغم من اعتراف السلاطين بسيادة الشريعة وخضوعهم لأحكامها ، فقد كان المجتمع العثمانى معافى من الامتيازات المكتسبة ومراكز القوى التى تحد من سلطة الحاكم على النحو الذى كان سائدا فى اوروبا ، فمبدأ المساواة المطلقة بين جماعات المؤمنين ، الجم المصالح الأسرية ، كما أن نظام التيمار يحرم توريث الاقطاعات — فكان أن حال ذلك دون نشأة واستفحال طبقة أرستقراطية قوامها ملكية الأراضى ، لها مصالح خاصة ، ووجاهة اجتماعية تؤهلها لمعارضة السلطة المركزية •

لقد نظم سكان المدن والقوات المسلحة فى الامبراطورية العثمانية ، بطريقة ملائمة ، فى روابط (جمع رابطة) مهنية وحرفية ، وجمعيات للتجار والحرفيين ، وروابط رجال البحر والقراصنة • كذلك نظمت الفئات الأخرى بطريقة مشابهة ، كانكشارية اسطنبول ، ومشاة المماليك فى مصر ، وحتى علماء الدين الاسلامى الذين كانوا يمارسون كثيرا من الأمور القضائية والادارية ، وكانت كل رابطة أو جمعية من هذه الروابط أو الجمعيات بمثابة تنظيم دينى اسلامى بالاضافة لكونها تنظيما مدنيا ، فقد كان لكل رابطة مرشدها الروحى ، ولما كن السلطان يرأس ويوجه النظام الدينى ، فان هذه الروابط والجمعيات معا ، كانت تمثل أخوة لها نفاذ وتأثير ، وكانت — اى هذه الروابط — فى العموم سريعة الاستجابة ومطيعة لرغبات رئيس الدولة • وقد ساعد التراث الاسلامى القوى والعريق على الاذعان المطلق للسلطان ، فرسول الله (صلى الله عليه وسلم) هو القائل : « ان من طاعة الله أن تطيعونى وان من طاعتى أن تطيعوا أئمتكم » (1) وحتى اذا كان الحاكم مستبدا غير عادل ، فان ازاحته يتكفل بها الله (سبحانه)

(1) مسند الامام أحمد بن حنبل ، باب ٦٢ ، مجلد ٣ ، ص ٦٣ — (المترجم) •

ولا تقع على عاتق رعاياه ، فثمة توجيه اسلامى مؤداه انه « اذا كان الحكام صالحون ويحكمونكم بالعدل فسينالون ثوابا ، أما اذا مارسوا الشر واساءوا الحكم فسينزل الله بهم العقاب ، وتكونوا أنتم بهذا راضون » • وعلى هذا فمى النظرية والتطبيق ، كانت ارادة سلاطين آل عثمان فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ارادة مطلقة ، تفوق أقصى آمال وخيالات الحكام الأوروبيين المعاصرين • فبعض ملاحظات سليمان القانونى لسفير النمسا فى سنة ١٥٢٤، والتى كانت متعلقة بمملكة المجر ، والتى كانت فى حالة حرب مع العثمانيين توضح وعيه (اى وعى سليمان القانونى) بما فى يده من سلطه مطلقة ، لقد قال له : « هذه المملكة لى • وقد عينت فيها خادمى • لقد أعطيته المملكة ، لكننى أستطيع استردادها منه اذا رغبت • ومن حقى تقسيمها ، والتصرف فيها ، وفى كل سكانها الذين هم رعاياى » •

ولقد كان محمد الثانى (الفاتح) قد ركز السلطة فى يديه ، من خلال نظام حكومى كان هو واضع أسسه ، ممثلا فى قانون نامه Kanounam أو القانون الأساسى ، الذى تم اعلانه بعد فتح القسطنطينية • وقد قنن هذا القانون التجارب والأعراف التى مرت بالأسلاف • ومن هذه الوثيقة نجد جواز قتل أقارب السلطان لضمان أن يتولى السلطان الجديد (خليفة السلطان الحالى) مركز السلطنة دون مشاكل • فالسلطنة كانت وراثية بين أفراد الأسرة الحاكمة العثمانية وهذا أمر حاز الموافقة فى سائر أنحاء الامبراطورية ، ولكن تعدد الزوجات ، وعدم وجود قانون اسلامى ينص على حصر وراثة العرش فى أكبر الأولاد الذكور ، خلق مشكلة ما تلبث أن تتكرر ، نتيجة ادعاء الأحقية بعرش السلطنة ، من قبل أولاد السلطان المختلفين• ففى السنوات الأخيرة لحكم سليمان ، كانت مشكلة ولاية العهد ، مشكلة خطيرة تهدد استقرار الدولة ، مما جعل سليمان مضطرا لتنفيذ حكم الاعدام فى ولديه ، مصطفى فى سنة ١٥٥٣ ، وبايزيد فى سنة ١٥٦١ ، لكى يؤكد أن من

سيخلفه هو إبنه سليم ، وهو ابنه الوحيد الذى بقى على قيد الحياة • فقبل موت السلطان ، كانت تثار مشاكل لا مناص من تجنبها ، وكان اغتصاب العرش أمرا قائما ، لهـذا فان السلطان الجديد كان عندما يتولى العرش ، يقوم باعدام كل اخوته وكل أولادهم الذكور ، وقد ظلت هـذه العادة حتى القرن السابع عشر ، عندما أصبح العرش (السلطنة) ينتقل الى أكبر أولاد السلطان ، وربما كان هذا بتأثير أوروبى •

وتبعا لتوجيهات القرآن (الكريم) فى سورة الشورى فى الآية رقم ٣٨ : (والذين استجابوا لربهـم ، واقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون) فان قانون نامة قد قنن تأسيس مجلس الشورى المركزى ، الذى دعم فى عهد سليمان القانونى (الفاخر) ، وظل هذا المجلس راسخا لعدة قرون • وكان المسئولون الرئيسيون فى الدولة العثمانية أربعة ، هم : الـوزير الأول (الصـدر الأعظم) وقاضى العسكر Kaziasker أو نائب الأحكام (قاض مشاور يجلس مع أعضاءالمحكمة العسكرية ويحلفهم اليمين ويسعفهم بالمشورة ويقوم بمهام المدعى العام ، وينصـح المتهم عنـد الحاجة ، وله حق الاعتراض على الأسئلة الموجهة) والدفتردار وهـو وزير المالية والنشنجى Nichanji وهو بمثابة وزيـر للدولة • وكان المسئولون الرئيسيون فى الدولة هم هـؤلاء الأربعة لما للرقم أربعة من دلالة صوفية (١) • ولقـد كان الوزير الأول (الصدر الاعظم) هو أكثرهم نفوذا وقوة اذ يقوم بوظائف ادارية ، وأخرى متعلقة بأسرار الدولة ، وهو بهذا يماثل فى اختصاصـه ، وظيفة المستشـار فى الدول الأوربية ، كما كان للصدر الأعظم سـلطات الاشراف عـلى السياسة الخارجية والتنظيمات العسكرية ، والتدخل فيهـا جميعا، وكان على الصدر الأعظم أن يوجه الجيوش ويقودها• وقد كان هؤلاء المسئولون الأربعة يعينون من قبل السلطان، وكان بقاؤهم فى مراكزهم ، رهنا بمشيئته • ولا شك انه

(١) لا ندرى من أين أتى المؤلف بالدلالة الصوفية للرقم أربعة ! ـ (المترجم) •

من السذاجة افتراض أن الكفاءة الادارية وحدها هى التى تمهد الطريق للمناصب العليا ، فقد كانت التكتلات (الشللية) تلعب دورا كبيرا ، فالصدر الأعظم رستم باشا ، على سبيل المثال ، والذى لم يعزل الا مرة واحدة ، ولمدة قصيرة خلال ولايته الطويلة التى امتدت من ١٥٤٤ الى وفاته فى سنة ١٥٦١ ــ كان رأسا لتكتل (شلة) فى البلاط ، كان من بين أعضائها خوريم ، عقيلة سليمان القانونى المفضلة ، والأميرة محرومة زوجته ، وشقيقة سنان باشا قبطان الأسطول فى السنوات من ١٥٥٠ الى ١٥٥٤ ٠

وفى حكومات الأقاليم، لم يكن ثمة فاصل بين السلطتين، المدنية والعسكرية ، فادارات المدن الكبرى ، كدمشق ، او الولايات العظيمة ، كمصر ، كانت تقع على عاتق البشوات ٠ والباشا لقب (رتبة) وليس وظيفة (منصبا) ، وهو يعنى ان حاملة قد الحق بدوائر الحكام العليا فى الامبراطوريه ، وأصبح عضوا فى الديوان ، أى مجلس الدولة ٠ وكان هؤلاء الموظفون الكبار ينقلون من منصب لآخر ، لمنعهم من تكوين ولاءات محلية أو تكوين أنظمة شخصية لصالحهم على أساس من المحسوبية ٠ وقد اختلف الوضع فى المناطق المفتوحة فى البلقان ، وهو الذى يهمنا فى هذا الصدد ، حيث كان المسئولون يحتفظون بمناصبهم فترات طويلة ٠ فأوروبا العثمانية كانت تعتبر وحدة ادارية تسمى ايالة الروملى Rumeli ، وكان حاكمها الأعلى هو البكلر بك ٠ وخلال سنة ١٥٤٠ ، تم انشاء بكلر بيسكيتين مجريتين ، عاصمة احداهما بودا، وعاصمة الأخرى تيمسفار Temesvar وقد قسمت المنطقة خلال القرن السادس عشر الى سناجق ، أعيد تنظيم معظمها خلالالقرن السادس عشر، فى مجموعات من سنجقيتين أو ثلاثة لتصبح ٢٤ باشوية ، يحكم كلا منها ، كما يدل على ذلك اسمها ، موظف يحمل رتبة باشا ٠ وعلى أية حال ، فقد كان هؤلاء الباشوات فى البلقان الغربى مثلهم مثل الباشوات فى سائر أنحاء الامبراطورية ، يلقبون بلقب

بك ، وقد كانوا يمنحون اقطاعات fiefs كانت تسمى جفالك Tschiftliks لتأمين حراستهم الشخصية ، وتدبير أمور وتدبير أمور موظفيهم •

وفى بعض المناطق الجغرافية ، وفى مجالات بعينها ، نادرا ما تدخل العثمانيون تدخلا حقيقيا فى حياة رعايا السلطان من غير المسلمين ، فالأديرة الأورثوذكسية الكبرى فى اليونان رمقدنيا ، على سبيل المثال ، كان كثير منها يحكم مقاطعة واسعة ، وكان الديريون يحتفظون بحقوقهم كاملة فى ادارة أمور الفلاحين فى هذه المقاطعات ، وفى استثمار عقاراتها بالطريقة التى يرونها مناسبة ، تماما كما كان عليه حالهم فى ظل الامبراطورية البيزنطية • وفى بعض المناطق اليونانية الجبلية والساحلية ، كانت هناك قرى حرة Kefalochoria تعيش آمنة ، ما أزعجها أحد ، وكان يحكمها كبار السن من أهلها ، فى مقابل دفعهم الضرائب أو تقديمهم جنودا مجهزين galiondjis للبحرية العثمانية • وفى البلقان كانت اختصاصات تشريعية بعينها ، خاصة ما يتعلق بالأحوال الشخصية ، تحال بأكملها الى الاكليروس (رجال الدين المسيحى) حيث يقضون فيها تحت اشراف بطريارك المنطقة • وخارج المدن الضخمة ذات المواقع الاستراتيجية ، مثل بلجراد ، التى كان فى كل منها مركز ادارى ، والتى كانت بحكم موقعها ، ذات تأثير — كان البكوات خارج هذه المراكز — يحكمون وهم دائمو الحركة ، اذ ينتقلون من قلعة الى أخرى ، ويعيشون وتابعوهم وموظفوهم كحامية عسكرية فى أرض أجنبية • وعندما كانت الحكومة المركزية فى اسطنبول ترغب فى تنفيذ بعض الأعمال الهامة كاجراء احصاء ، أو تسجيل ممتلكات ، أو تجميع الدفشرمة — وهى ضريبة الأطفال فى البلقان لتدعيم العمالة فى الجيش والادارة — فانها ترسل الموظفين الرسميين من العبيد السلطانى ، مخولين بسلطات وصلاحيات خاصة ، ومزودين بضمانات ، لتنفيذ المهمة المنوطة بهم •

وكان انشاء هذا الجهاز الادارى يعكس فهما بارعا ومعالجة مدروسة للقوى الاجتماعية ، من قبل رجال الدولة العثمانيين ، وكما ركزنا فى الفصل الأول ، فان عمليات السلب والنهب التى كانت تقوم بها القبائل المحاربة ، والتى كانت فى حالة حركة دائبة ، هى فى الأصل أساس الجماعات التى كونت الدولة العثمانية • لقد كانت هذه القبائل أدوات غزو بكل ما فى الكلمة من معنى • وقد أوجدت هذه الظروف مبدأين تحكما فى التطور الاجتماعى العثمانى ، أولهما ــ أولوية الترتيبات والتنظيمات العسكرية ، وثانيهما ــ ضرورة توفر المرونة الحركية ، كما أن الاوامر الصارمة والفعالة فى أى جماعة تتركز أهدافها على السلب والنهب والغزو ، تعد أمرا ضروريا ، والجماعات الدائبة الحركة تستطيع أن تتكيف مع الافكار والممارسات الاجتماعية والتنظيمات المختلفة ، حتى تستطيع الحفاظ على الروابط والصلات بينها وبين الشعوب التى تندمج فيها وتستغلها • وقد لاحظ عالم الاجتماع التركى الحديث زيا جوكالب Zia Gokalp (١٨٧٦ ــ ١٩٢٤) انه « عندما اتخذ التكوين العثمانى الطابع الامبراطورى أصبح العثمانيون طبقة حاكمة عالمية (١) • فحضارة العثمانيين كانت خليطا من المؤسسات المستعارة ، من الترك والفرس والعرب ، ومن الدين الاسلامى ومن الحضارات الشرقية ، ثم من الحضارة الغربية فى مرحلة أكثر حداثة » •

لقد كانت المشكلة المحورية التى واجهت السلاطين العثمانيين ومستشاريهم بعد سقوط القسطنطينية ، والتى فرضها عليهم قدرهم الامبراطورى ــ هى ضرورة كبح جماح الطاقات العسكرية والحماس الملتهب للسلب والنهب ، اذ كان كل أولئك متوقعا من جيش شرقى ، لكن كان على السلاطين العثمانيين ألا يجعلوا هذا الكبح خانقا ضاغطا تماما ، اذ من الضرورى عند تاسيس دولة تتحلق حول

---

(١) يعنى ممثلة لكل ثقافات وعناصر العالم • وهذا صحيح ــ (المترجم) •

مراكزها ، أن تكون ذات اتجاهات توسعية عدوانية في أطرافها ، ففي هذا متنفس للطاقات العسكرية وللرغبة الكامنة للسلب والغنم •

ولعل أفضل مقياس لنجاحهم في هذه المهمة الشاقة ، والتي تقتضي تآلف قوى اجتماعية متضادة ومتناقضة في الأساس ــ يتمثل في معالجتهم للتحديات التي زامنت الفتوحات الكبرى في القرن السادس عشر ــ والتي أفردنا لها الباب الثالث ــ مع النمو السكاني المستمر لاسطنبول كعاصمة امبراطورية ، اذ زاد سكانها من ١٠٠ر٠٠٠ نسمه في سنة ١٤٥٣ الى ما يتراوح بين ٥٠٠ر٠٠٠و٨٠٠ر٠٠٠ ، نسمة في سنة ١٦٠٠ ، وهو ما يزيد بدرجة كبيرة عــلى تعداد أي مدينة أوربية معاصرة •

وكان جيل الغزاة الذين يمثلون في الأساس راس الرمح للتوسع العثماني ــ خليطاً متبايناً من محبي السلب والنهب ذوى الرغبة العارمة في تملك الأراضي • وكان لابد من زيادة حجم هذه الجماعة اذ كان للدولة العثمانية ان تستمر في توسعها ــ وقد هيأ نظام التيمار ، الأرضية الاقتصادية لزيادة أعداد أولئك المحاربين المعروفين بالسباهيين ــ وقد أمكن المحافظة على ولائهم وضمان طاعتهم بموازنة عمادها تحريم التوريث في قانون الاقطاع العثماني ، مع تهيئة الفرص بشكل مستمر لحيازة الغنائم والأسلاب عبر حدود الامبراطورية ــ فوفقا لتقديرات السفير البندقي ماركانتونيو بربرو ــ فقد كان هناك رهاء ٨٠ر٠٠٠ سباهي في أوروبا العثمانية في سنة ١٥٧٣ ، و ٥٠ر٠٠٠ في الولايات الآسيوية ، الى جانب ١٥ر٠٠٠ بحضرة الباب العالي ، كفرسان في الحرس الامبراطوري ، الا أن هذه الطائفة الأخيرة ، كانت تتقاضى رواتبها من الخزانة اذ لم يكن لهم تيمارات •

وقد ظل السباهيون طبقة غير منضبطة ، وان كانت بهم قيمتهم العسكرية ، الا انهم من الناحية السياسية ، عبر

جديرين بالثقة • ولقمع شغبهم ، كان من الضرورى ، زيادة أعداد الاداريين الرسميين العموميين وزيادة كفاءاتهم ، وكذلك انشاء جهاز من الجند المشاة تابع للبيت الحاكم ، ليكون ولاؤه للسلطان وكفاءته القتالية ، فوق كل شك ، وفى مواجهة هذه المتطلبات ، طور العثمانيون فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، نظام الرق (العبيد) كمؤسسة اجتماعية أساسية ، اذ كان العبيد العثمانيون يقدمون مددا من الاداريين والعساكر المطيعين الموهوبين بأعداد كبيرة ، تتناسب مع حاجة هذه الامبراطورية العظيمة •

وقد كتب الهولندى ريكوت Rycaut فى القرن السابع عشر ذاكرا انه ، اذا ما تمعن الانسان فى التكوين العام للبلاط العثمانى فانه واجده سجنا للعبيد ، لا يختلفون عن عبيد السفن الا فى انهم يمتازون بالزينة والأبهة الخارجية » •

أما ادوارد جيبون Gibbon فى القرن الثامن عشر ، فكان أقل موافقة لهذا الرأى السابق ، وان كان واضحا مؤكدا ، مع بعض المبالغة ، فقد كتب :

« فى العصور الذهبية للحكومة العثمانية ، كان الترك أنفسهم مستثنون من كل الأعمال الجالبة للشرف ، سواء مدنية أو عسكرية ، وكانت طبقة الرقيق (العبيد) بمثابة شعب مصطنع ، ارتفع شأنه بسبب نظام تعليمى يدربهم كيف يطيعون وكيف يغزون وكيف يقودون » •

والواقع أن الرقيق فى النظام العثمانى فى حاجة الى تحليل خاص ، لأنه كما دلتنا هذه المقتطعات التى ذكرناها آنفا ، فان فهم المؤرخين الأوربيين لهذه الظاهرة ، يعتريه غموض وتشويش ، أدى اليهما ما كانت تتسم به غارات الرقيق من وحشية ، بالاضافة لكراهة الأوربيين التقليدية للترك (العثمانيين) فالعبودية بالمفهوم العثمانى لا تتشابه

على الأقل مع العبودية التى فرضها الأوربيون على عمال الحقول فى مزارع العالم الجديد فى القرن السادس عشر ، ولا تتشابه فى معظم الحالات من حيث العمل الشاق المفروض على طبقة الفلاحين فى شرق أوروبا خلال نفس الحقبة الزمنية ، فطبيعة الرق المعدلة (المحسنة) فى المجتمع العثمانى راجعة الى حقيقة أن الرقيق لم يكونوا يقومون أساسا بالأعمال التى لها مردود اقتصادى ، وانما كانوا يستخدمون لارضاء طموح السادة العثمانيين (الذين كانوا هم أنفسهم رقيقا فى وقت من الأوقات) الذين كانوا يعملون على تجميع عدد كبير من الاتباع كتعبير ودلالة على ثروتهم ونفوذهم . وكانت عروض الرقيق ملمحا مميزا للحياة الاجتماعية فى اسطنبول بشكل لا تخطئه عين . وعندما مات رستم باشا ، الصدر الأعظم ، فى سنة ١٥٦١ كان قصره يضم ١٧٠٠ عبد . أما بالنسبة لوضع سلاطين القرن السادس عشر فبالاضافة الى الانكشارية والحراس الشخصيين الحكام ، فعبيدهم كانوا يبلغون ما بين ٢٠٠٠٠ و ٢٥٠٠٠ ، وكان هؤلاء العبيد كثيرو العدد والمخلصون يساعدون فى تأمين السلامة الشخصية لسادتهم ، كما أن اعتبارات وقائية (احتراسية) قد أكرهت السادة على معاملة رقيقهم بشىء من الاعتبار ومراعاة المشاعر، فالرقيق فى المجتمع العثمانى كان حرسا شخصيا وخدما فى الأساس. أما رقيق السفن فكان له وضع خاص ، أما النساء المسترقات فقد لعبن دورا كمحظيات وأمهات لورثة الطبقة الحاكمة العثمانية ، فالسلطان نفسه كان فى الغالب ابنا لامرأة مسترقة ، وكان أصحاب المقام الرفيع يوجهون أمور الامبراطورية من خلال ممثلين لهم من الأرقاء التابعين لهم. وكان الرقيق الملكى (السلطانى) يدير الجانب المدنى فى حكومة السلطان ، كما كانوا يمثلون النخبة فى جيشه . وكل هذا يجعل الرق العثمانى بعيدا جدا عن مفهومنا (كأوربيين) للعبودية . فالسكان العبيد القاطنون فى الثكنات العسكرية ودور صناعة السفن وشاغلو القصور

والمستشارون في اسطنبول كانـوا يختلفون ـ بكل ما في كلمة الاختلاف من معنى ـ عن العبيد الزنوج في الأمريكيين، أولئك الذين كانوا يعاملون بقسوة ووحشية ، والذين كانوا يمثلون النموذج ـ بالمفهوم الأوروبي ـ للشعب المستعبد •

والاسلام يقر الرق طالما كانت الشعوب المسترقة غير مسلمة • أو لم تقدم للسلطات الاسلامية ضريبة الـراس وهي ضريبة يراها المسلمون حقا لهم ، فعلى طـول حـدود المواجهة مع العالم المسيحي ، كان العثمانيون أو الجمـاعات الصغيرة المتحـالفة معهم ، في بحث دائم عن العبيد ، ولمـا كان هذا المصدر غير كاف دائما للوفاء بحاجة القصـور الامبراطورية ، فقد تبنى العثمانيون سياسة استرقاق بعض الشـباب الذين يقـع عليهـم الاختيـار من داخل حـدود الامبراطورية العثمانية • ففي أوائل القرن الخامس عشر، بدأ السلاطين في جباية ضريبـة الاطفـال الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين ٦ و ١٥ سنة من القرى النائيـة في اليونان والبلقان الغربي ، حيث كان من الصعوبة بمـكان تحصيل ضرائب نقدية • وقد أدى هذا الاسترقاق المنظـم الى تزويد الأسرة العثمانية المالكة والقصـور السـلطانية بالموظفين ، ومع هذا فلم يكن هذا الاسترقاق المنظم يكاف لارضاء الحاجة الملحة للرقيق من قبل ذوى المناصب العليا الأقل درجة ، اذ كانـوا في حاجة دائمة لزيادة مجمـوعة الرقيق لديهم ، لهذا ظل سوق الرقيق في اسطنبول ، نهما لمزيد من الرقيق •

وكان على قراصنة البحر المتوسط ، والمحاربين عـلى الحدود في أوروبا الدانوبية أن يفعلوا شيئا لمواجهة هـذه الاحتياجات ، ولكن أسواق الرقيق العثمانية وجدت موردا رئيسيا في المناطق الداخلية لأوروبا البحر الاسود ، ففي هذه المنطقة كان تتر القرم المولعون بالحرب يقومون دائما بغارات لجمع الرقيق وساعدهم على هذا قربهم من المجتمع التجاري في موانيء البحر الاسود وكان هؤلاء التجار وتتر

القرم هؤلاء قد تعودوا على التعاون معا منذ زمن طال • وخلال فترة السيطرة الجنوية كان قادة قوافل التتر يجمعون البضائع من المنطقة ويسلمونها لتجار كافا Caffa وغيرها من المدن الساحلية ، ليتولى تجار هذه المدن نقلها الى الجانب الآخر • فلم يكن ثمة داع لاحداث تغييرات جذرية في هذا النمط من التبادل التجارى عندما تغيرت السلع المتداولة من غلال الى عبيد •

لقد كانت مشاكل النقل لدى التتر بسيطة للغاية في واقع الأمر ، لأن هذه البضائع (الرقيق) تستطيع أن تسير مسافات طويلة حتى السوق • ولم يتأت تكامل مماثل لمقومات التبادل التجارى في أى بقعة من تخوم الامبراطورية العثمانية •

ففى المجر ، على سبيل المثال ، لم تكن غارات الرقيق بنفس الأهمية ، نظرا للحاجة الى تنظيم تسويقى يوصل هذا الرقيق الى المراكز الحضرية ، بالاضافة الى أن الرسميين العثمانيين في المجر لم يكونوا في حاجة للعبيد الا لخدمات محدودة ، نظرا لأن رفيق الأرض العاملين في عقاراتهم الزراعية كانوا يقدمون لهم كل الخدمات الضرورية • وعلى العكس من ذلك ، في أوروبا البحر اسود ، حيث كان من الممكن الوصول بسهولة الى أسواق العالم العثمانى النهمة للرقيق عبر كافا Caffa • ولما كان هذا واضحا لكل الأطراف ، فان غارات التتر للحصول على الرقيق قد غدت مشروعات سنوية لا تعوقها الا الظروف السياسية غير العادية ، أو عندما كان الطاعون يتفشى في ولايات المنطقة بحيث تصبح مثل هذه المخاطرات غير مجزية ، وتشير السجلات البولندية ، عن غارات الرقيق التترية في أوكرانيا في ستين سنة من ١٤٧٤ الى ١٥٣٤ — الى أن هذه الغارات قد بلغت ٣٧ غارة منفصلة ، وكانت بعض هذه الغارات تستمر لبضع سنوات ؛ وبين سنة ١٤٨٢ و ١٥١٢ كانت الغارات من أجل الرقيق مستمرة متواصلة خلال سنوات خمس ،

وليس هناك سبب يدعونا للاعتقاد أن عملية التوثيق هذه ، كاملة لا يعتريها نقص ، اذ انها لم تسجل الا الغارات الكبرى التى حصلت على عدد كبير من العبيد ٠

والواقع أن الوحشية ، والتخريب الاجتماعى النــاتج عن الاسترقاق المنظم ، أمران ليسا فى حاجة الى تأكيد لــكن هؤلاء الأسرى (العبيد) الذين يبقون عــلى قيــد الحيــاة متحملين وسائل النقل القاسية التى تنقلهم الى أسواق الرقيق فى المدن ، سرعان ما يدخلون عالما جــديدا غنيا ، يكــون بمثابة مكافأة لهم ٠ فعالم الرق لدى العثمانيين يقدم فرصا واســعة لهــؤلاء المهجرين قسرا من قراهم المنعزلة المترعة فقرا ٠

وكان الرقيق الملكى (السلطانى) هو الأغنى والأكثر سلطة ونفوذا فى الامبراطورية ، فكان منهم قادة الجيوش العثمانية وحكام الولايات ومخططو سياسة الدولة ٠ ولم يكن تسنم ذروة هرم الســلطة أمرا عاديا بطبيعة الحــال ، ولكن حتى العيش كعبد عادى فى قصر أسرة غنية ذات نفوذ كان فى معظم الحالات أمرا يفضله العبد عــلى الحيــاة فى قريته التى آتى منها حيث ذكريات الفاقة والرتابة المملة ٠ وكان يحدث أحيانا أن يعامل السيد هذا العبد معاملة مهينة وقاسية ، ولكن هذا لو حدث فانه لا يبعد كثيرا عن حيــاته الاجتماعية التى ألفها فى قريتــه التى قدم منهــا ٠ وفى الأغانى الشعبية فى بعض الدوائر الأوكرانية ظهر الحنين الشديد للوطن الأصلى أو مسقط الرأس ، وهــذا طبيعى فتحطيم نفسية الانسان ، ونزعه من روابطه الأسرية ، ليس أمرا قليلا ٠ وعــلى أية حال ، فان الفرص العريضــة التى كانت تتاح للرقيق فى حياتهم الجديدة ، كانت بشكل عام بمثابة تعويض كبير لفقدان الأمن النفسى (السيكلوجى) ٠

وأفضل برهان على التأثير السحرى للمجتمع العثمانى على الرقيق الذين انتظموا فى ســلك خدمتــه هــو قبولهم للاسلام ، ولم يكن هذا التحول للاسلام نتيجة استخدام قوة

مجبرة ، ولا بنتيجة دعوة فعالة ، عادة ، وانما كان ضغط الظروف الاجتماعية يحث معظم الرقيق على التحول للاسلام ـ على الأقل ـ ظاهريا ، لطاعة المسلمين ، وكان التحول للاسلام ممكنا دون انكار كامل للممارسات المسيحية (وهى ممارسات مشكوك فى أصولها المسيحية أصلا) التى كان الرقيق يمارسونها فى قراهم قبل وقوعهم فى الرق العثمانى • فالاسلام يعترف بمكانة مشرفة للمسيحية ، باعترافه بها كديانة لآخر نبى حق (وممهد لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم . الخاتمة) ، وعلى هذا فقد تمتع المسيحيون بمكانة ـ وان كانت أقل درجة ـ الا انها شرعيه ومعترف بها فى المجتمع العثمانى •-وكان الرقيق فى البيوتات العثمانية الكبيرة عند تخليهم عن مسيحيتهم يكونون بذلك واقعين تحت تأثير ظروف حياتهم الجديدة ، وبذا فانهم كانوا ينسخون بعض ممارساتهم الدينية السابقة ، لقد كان مؤيدو التراث الاسلامى غير السنى ممثلا فى طرق الدراويش المعتدلة ، كالبقطاشية ، التى اندرج فى سلكها بعض فروع البيت السلطانى ـ يعلمون أتباعهم أن أى دين ـ كالمسيحية ، والاسلام أيضا ـ يمثل خطوة غير كاملة نحو الحقيقة ، فالاتصال الباطنى بالله (عز وجل وتعال عما يصفون علوا كبيرا) (١) هو وحده السبيل القويم • ولهذا فالرقيق عند تقبله للاسلام تاركا المسيحية ، كان ـ كما كانوا يقولون ـ لا يجد صعوبة ، لأنه لن يتخلى عن شىء من عقيدته السابقة سوى التعصب الأعمى الذى تدرب عليه فى طفولته •

وفى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، كانت طاقة الامبراطورية العثمانية وفعاليتها ، ترجع الى قوة جهازها الادارى ونشاطه ، والى بسالة جيوشها ـ وكلاهما ـ الجيش والادارة ـ كان عمادهما ، الفلاحون المسترقون من مناطق الامبراطورية النائية • فصبية القرى البسطاء الذين

(١) ما بين القوسين اضافة من المترجم •

التحقوا بالمدارس والمعاهد الخاصة في اسطنبول ـ سواء مدارس مساعدى الفرسان أو مدارس الانكشارية او مدارس القصر ـ كانوا يتدربون على أعمال الدفاع والغزو ومهام الحكم، باسم السلطان ـ الذى كان هو نفسه نصف عبد ـ فى واحدة من اعظم امبراطوريات العالم • لقد كانت الابواب مفتوحة على مصاريعها امام ذوى المواهب والمميزين للوصول الى قمة السلطة • وطالما كان هؤلاء يحتكرون المناصب والادارة ، فانهم كانوا يتذكرون طفولتهم فى قرى البلقان البعيدة وأوربا البحر الاسود • لهذا كانت القرارات التى يتخذونها ، والاجراءات الرسمية التى يأمرون بها او يمارسونها ، متسمة بشيء من التراخي والتعاطف مع السكان الفلاحين • وكان المسئولون الكبار فى الامبراطورية ، يميلون لفرض قواعد وحدود قانونية صارمة على ما يمكن أن يطلبه حائزو الأرض المسلمون من بضائع وخدمات من الرعايا الذين يعيشون فى زمام هذه الأراضى وتلك العقارات •

لقد كان ينشب ـ بصفة دائمة ـ نزاع بين عبيد السلطان الذين يشغلون المناصب الرسمية من ناحية وبين الفرسان المسلمين الحائزين على الاقطاعات من ناحية أخرى• وكان من نتيجة هذا النزاع حدوث توازن يؤدى الى تدعيم قوة السلطان الشخصية ، كما كان يؤدى الى رفاهية عامة لسكان البلقان فى ظل ادارته (السلطان) •

وطالما استمر هذا التوتر المفيد ، بقى النظام الامبراطورى العثمانى شامخا بالمقارنة الى موارد السكان الهزيلة والتراث السياسى الفوضوى ، الذى ورثه حكام بلاد أوربا الشرقية المتاخمة للامبراطورية العثمانية ، فالقوات المسلمة العثمانية كان يمكن تعبئتها جميعا وتوجيهها لعمليات ميدانية دون خوف من ثورة الا فيما ندر ، أضف لذلك أن قوات الميدان كانت منتظمة منضبطة خاضعة لارادة سلطانية واحدة •

وكانت النخبة العسكرية فى نظام الرقيق هذا ، ممثلة

فى كتائب الانكشارية ، وهم المشاة الرماة ، وكانت كتائب الانكشارية قد تم انشاؤها فى سنة ١٤٢٨ ، وفى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، كان عماد هـذه الكتائب ، صبية غرب البلقان ، الذين تم تجميعهم كضرائب (دفشرمة) وكانت كتائب الانكشارية ممركزة فى كل المدن العسكرية الكبرى فى الامبراطورية ، الا أن كتائب اسـطنبول كانت أكثر عددا وكفاءة ، اذ كانت تبلغ حـوالى ١٢٫٠٠٠ أثناء حكم سليمان القانونى • وفى سنة ١٦٨٣ زاد عددها خمسة أو ستة أضعاف ، رغم تدنى كفاءتها ، اذ أصبحت زائفـة بصورة خطيرة •

وخلال القرن الخامس عشر وحتى فى معظـم القـرن السادس عشر كان تنظيمها وولاؤها للسلطان ، يؤكده منع الزواج القـانونى ، وان كان ثمـة استثناءات فى بعض المناسبات خلال حكم سليمان القانـونى ، وفى الفترة التى شاع فيها الاسترخاء ، وهى فترة حكم سليم الثانى (١٥٥٦ ــ ١٥٧٤) • وفى حوالى سنة ١٥٠٠ تم تسليح الانكشارية ببنادق يدوية • وقد كان رسـوخ أقدام الانكشـارية فى القتـال وترابطهم فى جمـاعات محـاربة ومهـاراتهم فى اسـتخدام هـذه الأسـلحة قد تسبب فى انحدار الجيـوش المملوكية ــ وفى التعجيل بفتح العثمانيين لسـوريا ومصر خلال عامى ١٥١٦ / ١٥١٧ ، كما شتت هؤلاء الانكشارية آخر كرة يائسة لسلاح الفرسان المسيحى فى معركة موهاكس الفاصلة ، تلك المعركة التى تمخضت عن انتقال مملكة المجر لحكم سليمان القانونى فى سنة ١٥٢٦ •

ولم يكن دور الرق فى النظام العثمانى هـو الفـارق الهام الوحيد بين بنية الامبراطورية العثمانية ، وملكيـات شرق ووسط أوروبا التى كانت فريسة للتوسع العثمانى ، خلال القرنين الخامس عشر والسـادس عشر ، وثمة فارق آخر يتمثل فى مبدأ التوريث ، فهذا المبدأ ظل واهنـا فى المجتمع العثمـانى ، فالطبقة الحـاكمة العثمانيـة ــ اذا

ما قورنت بالارستقراطية الراسخة فى عصر النهضة الأوربية وفى زمن الاصلاح أيضا — لم تجد لها جذورا موصلة فى المجتمع العثمانى • فعدم وجود طبقة أرستقراطية فعالة وراسخة فى المجتمع العثمانى ، قد أكد ودعم سلطة السلطان الفردية ، اذ لم يكن هناك ما يواجهه بصورة ، تعوقه عن ممارسة سلطانه •

وحتى بين المقاتلين المسلمين الأحرار بالمولد ، كان الولاء للأسرات القوية ، والفخر بشرف المحتد ، نادرا • لقد كان معظم من تسنموا السلم الاجتماعى ، قد وصلوا لذلك بالصدفة لذا فقد اتسموا بالادعاء والغرور • لقد كانوا أبناء عبيد ونسل خليلات ، وقد جلبوا من كل مكان ، انبتوا من جذورهم فما عادوا بأعراقهم يهتمون لقد كانت الحياة العثمانية الأسرية ، والعلاقات الجنسية هى نفسها علاقات معسكرات الجيش ، فاذا ما انتهت حروب الصيف ، أصبح المقاتلون العثمانيون على استعداد لاتخاذ زوجات ومحظيات اذا ما أتيح لهم نساء جميلات ، فاذا ما حل موسم القتال فانهم يتركون نساءهم وذراريهم ليصونوا أنفسهم بأنفسهم حتى عودتهم — أى عودة المقاتلين فى الخريف ، وقد لا يعودون ، فهذا يعتمد على ظروف الحرب •

ولقد ترك هذا أثره على المجتمع ككل من حيث الضعف النسبى للروابط الأسرية ، وضعف مبدأ التوريث عند الطبقات الحاكمة ، ومن هنا كانت الثورة للاستحواذ على السلطة المركزية ، أمرا بعيدا عن التحقيق ، ولم يكن الأمر كذلك فى المجتمعات المسيحية المعاصرة • ولقد قوى نفس الاتجاه وأثر بفاعلية فى وضع السلطان المرسخ ، ما كانت تتحلى به اسطنبول وغيرها من المدن الكبرى من جاذبية اجتماعية ، بالاضافة لميراث العثمانيين للتراث السياسى والتشريعى البيزنطى — فكل هذا قوى وضع السلطان ضد ملاك الأراضى المسلمين ، الذين كانوا عصب الجيوش السلطانية ، والذين كان يمكن فى نفس الوقت أن يكونوا

خصوم السلطان ومنافسيه • وعلى هذا ، فحتى منتصف القرن السادس عشر ، كان حتى المقاتلون الأحرار بالمولد ، والذين دخلوا فى خدمة السلطان ، يميلون الى تحرير أنفسهم من أعراقهم الماضية ، تحريرا كاملا فى الغالب ، ليصبح حالهم كحال الرقيق السلطاني الذين يقودون كتائب الخيالة فى الميدان • لقد كانت الحروب الدائمة تؤدى لخسائر هائلة ، ليس فى ميدان القتال فحسب ، وانما نتيجه الحوادث والأمراض التى لم يكن من الممكن تجنبها فى مناطق الحدود حيث الظروف غير مواتية وغير صحيحة ، وطالما كانت الامبراطورية مستمرة فى التوسع ، فقد كان فتح كل ولاية جديدة ، يؤدى بشكل مستمر الى اضطراب نظام الحيازة والملكية ، لأن أراضيها (الولاية) يجرى توزيعها تلقائيا بين المنتصرين ، فمعظم المقاتلين العثمانيين كانوا يبدلون مآواهم الشتوى بكثرة لدرجة لا تسمح لهم بالاحتفاظ بعقاراتهم الزراعية بصورة دائمة ، وتبعا لذلك لا يعتبرونها أكثر من كونها مجرد مورد للطعام والدخل والخدمات خلال فترة محدودة من الخمول العسكرى • وفى ظل نظام كهذا فان الثورة المحلية ضد المركزية الادارية امر بعيد الاحتمال، ولم يكن الأمر كذلك فى أى مجتمع أوروبى ، حيث كانت الأرستقراطية القروية مرتبطة ارتباطا وثيقا بأراضيها الأسرية • وبذا كانت قادرة على القيام بمقاومة عنيفة ضد الاداريين الممثلين للسلطة ــ والذين لم يكونوا يلاقون منها الا الاحتقار •

والاستثناء الوحيد من هذا الحكم فى الولايات الأوربية العثمانية ، كان فى البوسنة ، حيث كانت الأرستقراطية المحلية قد تحولت تحولا جماعيا للاسلام خلال القرن الخامس عشر ، ولم تكن الشريعة الاسلامية تسمح بنزع ملكية أراضى المسلمين • ولذلك فان سلطة الدولة العثمانية كانت مقيدة فى البوسنة على النحو المعروف والسائد فى جميع بلاد أوروبا المسيحية •

ان التناقض بين النظم العثمانية والمسيحية فيما يتعلق بحيازة الأرض ، كان مسألة هامة من وجهة نظر الفلاحين أيضا • فقد كان المقاتل العثماني غائبا في العادة عن ارضه وعقاره لحوالي نصف العام ، ولم يكن يترك وكيلا حقيقيا فعالا يحل محله ، وكانت عودته مسألة غير مؤكدة ، وقد أدت هذه الظروف الى خلق مجال كبير لتطوير الحكم الذاتي في القرية ، وعلى النقيض من هذا كانت الأرستقراطية في أوروبا المسيحية مرتبطة بمواقعها ولهذا فقد كونت تراثا أثريا مرتبطا بالمكان ، وأصبح هذا التراث أحد مكونات نسيج الحياة في القرية . ولم يكن أفراد الارستقراطية الاوربية ليتركوا للفلاحين أدنى فرصة لادارة وتسيير أمورهم الخاصة • حقيقة لقد كان سكان القرى (الفلاحون) يتمتعون بحرية نسبية في الحركة وفي تسيير امور أنفسهم، في ظل الامبراطورية العثمانية ، ولكنهم كانوا يدفعون ثمن هذه الحرية النسبية ، بما كانوا يتعرضون له من وحشية قاسية بشكل موسمي ، مما كان يعرض وتيرة حياتهم للتوتر والاعاقة بعنف • وكان هذا يحدث ، كلما تدخل مسئول صاحب منصب أو متطفل ، ليطلب من هؤلاء الفلاحين ، خدمات أو مؤنا وامدادات ، سواء قبل الحصول على موافقة السلطان ، أو بعد موافقته حيث كان السلطان — قبل الموافقة — يضع بعض القيود غير الحاسمة • ولم تكن عمليات العنف هذه التي اشرنا اليها آنفا ، والتي كانت تتم بشكل متقطع لتحطم أو تلغي ما يتمتع به سكان القرى من تسيير ذاتي لامورهم في ظل العثمانيين ، وأقصى ما يمكن قوله أنها كانت تشوه الصورة • وعلى هذا ، فقد كانت الامبراطورية العثمانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، تعتمد على ما تحمله للفلاحين من أعباء خفيفة نسبيا ، في المناطق المركزية للدولة ، بالاضافة للسلب المنظم للمناطق والمجتمعات الواقعة خارج حدود الادارة العثمانية • فلم يكن يتأتى للسلطة المركزية أن تنشيء قوة عسكرية منظمة ، كبيرة العدد والعدد ، الا بالاغارة على المجتمعات المحيطة بهذه

وسلبها ، بينما كان الحفاظ على الأمن داخل الوطن العثمانى نفسه يتطلب عدم استغلال الطبقات الدنيا ، وقد حققت هذه السياسة للدولة درجة كبيرة من الاستقرار • ولقد كانت المؤسسات الراديكالية المنوط بها وضع خطط التجنيد والتعبئة والدعوة للاسلام فى هذا العالم العثمانى ، تثير فى الأوربيين الدهشة والبغض فى آن ، ولكنها فى الحقيقة كانت أدوات عنيفة فعالة بشكل غير عادى لضمان استمرار قوة ورخاء حاضرة البلاد •

لقد أدى اتساع الحرق بين المسيحية والاسلام ، الى توسيع شقة الخلاف بين الامبراطورية العثمانية من ناحية ، والدول الأوربية من ناحية أخرى ، لقد كان هذا الخرق قابلا للرتق خلال فترة قصيرة من القرن الخامس عشر ، اذ كان العثمانيون قد ورثوا عناصر التراث البيزنطى وتفاعلوا معه ، كما أن أصداء العلمانية القادمة من ايطاليا النهضة ، قد لاقت مجيبا فى بلاط ملك المجر ، وفى اسطنبول زمن محمد الفاتح (١) •

لكن القرن السادس عشر ، شهد جنوحا حادا عن التسامح الدينى واتساع الأفق ، فما عاد هذا سائدا فى الدوائر العليا ، كما كان الحال فى القرن الخامس عشر ، فقد تقوقع الاسلام والمسيحية ، وانغلق كل منهما على نفسه من خلال حركات الاحياء والسلفية (٢) والتعصب ، التى كان أنصارها قد زادوا من التحصينات والحواجز النفسية حول أنفسهم لمنع أى تأثير خارجى من الوصول لهم • ولقد

---

(١) الواقع أن هذا التفسير يدعو للسخرية ، اذ الأولى أن يقال ان روح التسامح فى الاسلام ، ووصول الفكر الاسلامى مكثفا الى أوروبا بعد سقوط القسطنطينية وبعد هجرة جانب من المسلمين الأسبان عبر فرنسا ، هو الذى أدى الى روح النهضة الأوربية ـ (المترجم)•

(٢) نص كلمات المؤلف هى :

... in a revived and intolerant orthodoxy whose champions were increasingly impervious to external stimuli.

والواقع أن المؤلف يذكر فى أكثر من مكان أنه بسبب السلفية ، وحسب المذهب السنى تمتع المسيحيون الأوربيون فى ظل المسلمين بتسامح دينى فائق لم يكونوا ليحلموا به فى ظل حكم أبناء جلدتهم المسيحيين المختلفين معهم مذهبا ـ (المترجم) •

كانت العوامل التى أدت الى هذا التقوقع على الجانب الاسلامى، هى نفسها ذات العوامل التى أدت للتعصب والانغلاق على الجانب المسيحى ٠

فقد كان انفجار ثورة الشيعة فى شرق الأناضول سنة ١٥١٤ ، قد سبق ، وماثل موجة الثورة الدينية التى فجرها مارتن لوثر فى ألمانيا وشمال غرب اوروبا فى السنوات التى تلت سنة ١٥١٧ ٠

فالفرق الاسلامية الاثنان والسبعون ، التى ماز بينها العلماء المسلمون التقليديون ، ووضعوا بينها فروقا غير دقيقة قد انقسمت ــ وفقا لموقف أصحابها من قضية قديمة هى أحقية خلافة الرسول (عليه الصلاة والسلام) ٠٠ الى مجموعتين : الشيعة الذين يرون أن خلافة الرسول (عليه الصلاة والسلام) لا تصح الا من خلال زوج ابنته على (كرم الله وجهه) ، وأهل السنة الذين يقرون خلافة أبى بكر وعمر وعثمان (١) باعتبارهم خلفاءه الفعليين فى السلطة ، ثم من تلاهم من خلفاء ٠ قد أدى ظهور وتكاثر الطرق الصوفية منذ القرن الثامن للميلاد فصاعدا ، الى تعقيد هذا الخلاف الأساسى فى الولاء ، اذ كانت هذه الطرق والتنظيمات تسعى « للوصول الى الله سبحانه » وعارضت صب العقيدة الاسلامية فى قالب من التعاليم والشريعة الاسلامية ٠ وزاد الطين بة ظهور جماعات متفرقة النحل والأهواء كان لديها الاستعداد لقبول تأثيرات شيعية ، مع بقائهم على السنة فى حدود اعترافهم بخلافة الخلفاء الثلاثة الأول (٢) ، ومما زاد الفوضى تعقيدا أنه رغم كون الشيعة قد ظلوا كأقليات مضطهدة على نحو أو آخر ، فى معظم المناطق ، فانهم تظاهروا باعتناق عقائد السنة ، وان كانوا فى حقيقة الأمر قد اتخذوا « التقية » مسلكا مما أدى الى انتشار الجماعات الشيعية السرية انتشارا يختلف من مكان الى آخر عبر

(١) أهل السنة يقرون أيضا خلافة على كرم الله وجهه كخليفة رابع ــ (المترجم) ٠

(٢) والخليفة الرابع أيضا ــ (المترجم) ٠

العالم الاسلامى . ولهذا فقد ساد عدم التوازن بين الفرق الاسلامية ، فما أن تنشب اضطرابات محلية خاصة عند وجود رجل مبروك (يعتقد فيه العامة) ذى أتباع ومريدين أو بعض الغلاة المتعصبين ، حتى تسارع الفرقة او الجماعة باعلان رفضها ولعنها لكل العقائد الدينية المخالفة لمبادئها الدينية .

ولقد أسهم ضعف القادة الأتراك الذين تنازعوا السيادة على العالم الاسلامى بعد القرن الحادى عشر ، فى تكريس ذلك الواقع الدينى الخطير ، لأن أكثرهم لا يأبهون اولا يجرؤون على مواجهة الثورات التى قد تنجم عن اصرارهم على خط عقائدى رسمى .

ولم تكن الدولة العثمانية استثناء من ذلك ، فرغم أن السلاطين العثمانيين قد اتخذوا سياسة تأييد السنة ودعمهم، وأعلنوا المذهب السنى مذهبا رسميا للدولة خلال القرن الخامس عشر ، الا أنهم لم يقطعوا بشكل قاطع الصلات مع الدراويش ، أصحاب البدع ، الذين أسهم حماسهم الدينى بدور كبير فى مرحلة التوسع العثمانى الأولى. الا أن التوازن الدينى السياسى بين المذاهب الاسلامية قد اختل بشكل حاد فى سنة ١٤٩٩ عندما استطاعت احدى فرق الشيعة المتعصبة والتى كان اتباعهايقطنون بالقرب من سواحل بحر قزوين الجنوبية أن تمد نفوذها ، وأن تحرز سلسلة من الانتصارات الحربية الكبيرة فقد بدأ اسماعيل الصفوى ، زعيم الفرقة ، يبث الدعاة المتحمسين وسرعان ما كون من أتباعه جيشا هائلا . ففى سنة ١٥٠٠ استولى على تبريز ، وتوج نفسه شاها ، وفى سنة ١٥٠٦ كان كل الهضبة الايرانية قد توحد تحت قيادة هذا الغازى الجديد . وفى سنة ١٥٠٨ استولى على بغداد ومعظم العراق . وهكذا ترسخ عرش فارسى قوى جديد .

واضطهد اسماعيل الصفوى كل المسلمين السنة ووجه وأيد حملات دعائية شيعية عنيفة خارج حدود دولته وشجعت

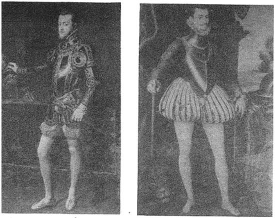
انتصاراته عديدا من المتعاطفين مع الشيعة على الاعلان عن ذلك التعاطف في كثير من ارجاء العالم الاسلامي خاصة في شرق الاناضول حيث باتوا يشكلون تهديدا لم يكن في وسع السلطان العثماني تجاهله • وفي سنة ١٥١٤ هبت ثورة شيعية واسعة النطاق ضد العثمانيين في شرق الاناضول ، تصب قمعها تعبئة كل القوات المسلحة العثمانية • وبعد قمع هؤلاء المخرفين في عقر دارهم ، تقدمت القوات العثمانية صوب الشرق للوصول الى جرثومة الداء والقضاء عليها ، وفي معركة جالديران (تشالديران) سادت المدفعية العثمانية وقهرت الصفويين الغلاة ، لكن السلطان العثماني كان مضطرا للانسحاب دون تحطيم قاعدة حكم اسماعيل الصفوي• وبقيت الامبراطورية الصفوية خلال الفترة المتبقيه من القرن السادس عشر ، مصدر ازعاج عميق للعالم الاسلامي، تكرس طاقاتها للدفاع ، وللدعاية لعقائد الشيعة • وقد خلقت هذه السياسة حالة عداء تقليدية مع الامبراطوريه العثمانية ، لم تتخللها فترات سلام الا قليلا ، فلم يحل السلام الدائم بين الطرفين حتى سنة ١٦٣٩ •

وبعد فشل العثمانيين في اجتياح الإمبراطورية الصفوية في سنة ١٥١٤، وجدوا أنفسهم ـ اي العثمانيين ـ مضطرين لاتخاذ مزيد من الاجراءات العسكرية لاحباط مشروع التحالف بين اسماعيل الصفوي والحاكم المملوكي في مصر وسوريا • ونجح سليم الأول في فتح سوريا ومصر ، ولم يخض في سبيل ذلك الا معركة واحدة سنة ١٥١٦/١٥١٧، وذلك بفضل تنظيم الانكشارية وتفوق المدفعية العثمانية التي سبق وحققت تفوقا ضد الفرس (في معركة جالديران) وقد أدى انتصار سليم على المماليك أيضا الى ايصال الحكم العثماني الى المدينتين الهامتين المقدستين وهما مكة والمدينة اللتين كانتا تابعتين للحكم المملوكي •

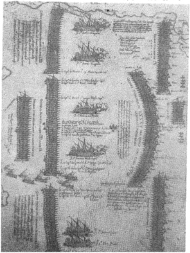
وقد بدأ سليم أيضا في مد سلطانه على المدن الساحلية في شمال أفريقيا ، انطلاقا من قواعده الجديدة في مصر ،



طريقة التخييم (العسكرة) البدوية التى ترجع فى أصولها إلى الحروب البدائية البدوية (القبلية) ، كانت تراثا ورثته الدولة العثمانية ، وهى طريقة تفتح شهية المقاتلين للسلب والنهب ـ وهى فى الوقت نفسه طريقة من الصعب التمسك بها فى ظل نمو مؤسسات الدولة العثمانية واتساع مسئولياتها .



دون جوان النمسوى (إلى اليسار) الذى أحرز النصر فى معركة ليبانتو كان ابناً غير شرعى للامبراطور شارل الخامس ، كما كان أخاً غير شقيق لفيليب الثانى (إلى اليمين) ملك أسبانيا من ١٥٥٦ إلى ١٥٩٨



معركة ليبانتو ١٥٧١



خير الدين بربروسا



اندريا دوريا حاكم جنوة . والادميرال (امير البحر)
الاسبانى (١٥٢٨ ـ ١٥٦٠)



حصار مالطة سنة ١٥٩٥ حيث هزم العثمانيون بسبب فشلهم ـ بالتعاون مع حلفائهم
سكان شمال افريقيا ـ فى تدمير القوى البحرية الاسبانية ، وبالتالى فشلوا
فى إحكام السيطرة على عربى البحر المتوسط



التاج والصولجان ، والرداء الكهنوتى فى صورة قيصر كلها توضح الإسراف والمغالاة فى تقليد المظاهر البيزنطية



مخطوط من أيام ستيفان دوشان ؟



اسكندر بك ، النبيل الألبانى الذى قضى شبابه فى البلاط العثمانى ثم ارتد إلى المسيحية واستطاع أن ينظم بمساعدة البابوية مقاومة عنيدة للفتح العثمانى لألبانيا



البوجوميليون يشكلون مذهباً دينيا مسيحيا ، . نسبة إلى القس بوجوميل (المقابل أو الترجمة السلافية للاسم الاغريقى ثيوفيلوس ويعتقد البوجوميليون أن العالم المادى من خلق الشيطان ، وينظرون إليه - أى إلى العالم المادى - بمقت شديد . وقد ذابت الغالبية العظمى منهم (أى من البوجوميليين) فى العالم الإسلامى ، ومن آثارهم الدالة عليهم ، طريقتهم فى الدفن - كما هو واضح من هذا الرسم من إقليم البوسنة



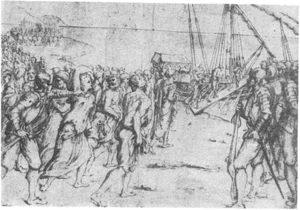
المطالبه بحرب صليبية
لاستعادة القسطنطينية
وفى الصورة بيوس الثانى
(١٤٥٨ ـ ١٤٦٤)
يطالب بالإعداد لحملة
صليبية لتحقيق هذا
الغرض



الجرنزر أو مقاتلو الحدود كانوا يمنحون حيازات فى المناطق الواقعة على طول حدود الهبسبرج مع ولاية المجر العثمانية وذلك مقابل خدماتهم العسكرية . وقد ظلت أفواج الجرنزر تلعب دورا بارزا فى النظام العسكرى للنمسا حتى تم دمجها فى جيش النمسا النظامى سنة ١٧٤٧ . لاحظ الشبه فى المعدات الحربية وفى الزى بين الجرنزر والسباهى العثمانى



ايزابيلا ، ملكة قشتالة وزوجها فرديناند الكاثوليكى ملك أرجوان . وبعد زواجهما (فرديناند وإيزابيلا) سنة ١٤٦٩ وسقوط المملكة الاسلامية فى غرناطة سنة ١٤٩٢ ـ الأحداث الهامة فى تاريخ أسبانيا



طرد المسلمين من اسبانيا



سليمان الأول (القاسى)



محمد الثانى (الفاتح)



قاضى عسكر فى زيه الرسمى .
هذا المنصب لا يشغله إلا من كان مسلما بالميلاد



شارل الخامس يداعب كلبه



صفحة العنوان لكتاب موعظة
الحرب لمارتن لوثر

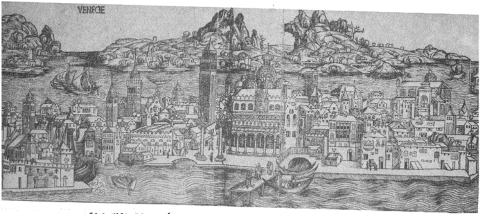


الجنوى الشهير جيان أندريا دوريا الذى
خلف عمه أندريا كـأدميرال (أمير بحر)
للأسطول الأسبانى





صورتان من كتاب بارتلميو جورجيفتش
العليا تمثل الأسرى الأوربيين والثانية
عقاب اللاجئين



منظر البندقية سنة ١٤٩٣ ـ وكانت البندقية تعتمد على التجارة الشرقية ، لذلك فرغم أن جمهورية البندقية كانت تستهلك طاقاتها بين الحين والحين ضد الأتراك ، الا أن التجار البنادقة كانوا يتمسكون بمراكزهم التجارية فى الدولة العثمانية



سفير البندقية فى اسطنبول ذاهب لحضرة السلطان





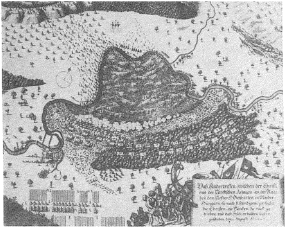
لاحظ الفراغات الموجودة فى الشجرة العثمانية . انها أماكن الابناء أو الاخوة الذين تم قتلهم خلال الصراع على العرش أو بعد تولى العرش (عرش السلطنة) مباشرة



صورة صفحة العنوان لكتاب توماس فولر المرسوم باسم تاريخ الحرب المقدسة . والمؤلف يعارض فكرة الحروب الصليبية ضد الكفار (غير المسيحيين) ، الا أن العقل الاسلامى كان أقل تأثرا بفكرة لوم النفس أو النقد الذاتى »



جراسيا ناسى عميدة أسرة ناسى اليهودية التى استقرت فى اسطنبول



مخطط معركة القديس جوثارد ١٦٦٤



توكولي



قرة مصطفى



باسبك الدبلوماسي الفلمنكي (من الفلاندر)



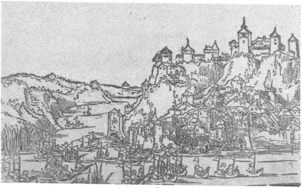
طبيب يهودي ـ كان الإقبال على الاطباء اليهود في ظل الدولة العثمانية بالقدر نفسه الذي كان عليه إقبال الأوروبيين في القرن السادس عشر ، وقد أقبل اليهود على العمل كماليين ووكلاء تجاريين في اسطنبول خلال هذه الفترة مما جعلهم ذوي نفوذ كبير



السلطان محمد الثالث



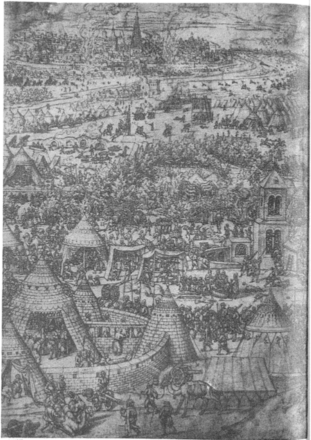
الإنساني الإيطالي باولو جيوفيو



حصار العثمانيين لبلجراد سنه ١٥٢١ ، استخدم العثمانيين القوارب



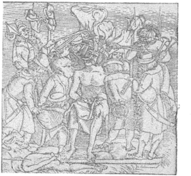
، حفر على الخشب ، هكذا تصور الفنان الاوربى الحرب
بين العثمانيين والصفويين سنه ١٥١٤ م



حصار فينا ١٥٢٩ في عهد سليمان القانوني



ادى المناخ القاسى ، بالاضافة لمقاومة الهبسبرج المنظمة إلى إجبار السلطان
العثمانى على رفع الحصار عن فينا بعد ثمانية عشر يوم ، فقط



قسوة الترك (العثمانيين) كان هو الموضوع الأثير لدى رجال الدعاية
الاوربيين . فى الصورة تاج محمى يضعه العثمانيون على
راس جورج دوزا قائد ثورة الفلاحين سنه ١٥١٤



فردناند الأول ارشيدوق النمسا وامبراطور
الامبراطوريه الرومانية المقدسة (١٥٥٨
ـ ١٥٦٤) والمطالب بعرش المجر

في محاولة للحد من توسع الدولة الشيعية الثانية المتمردة وهي دولة الاشراف السعديين في المغرب الأقصى (١) • ففي سنة ١٥١١ نظم هؤلاء الاشراف دولة قوية ضمت المناطق القبلية والحضرية في المغرب الأقصى معتمدين على دعوة دينية تشبه في طريقتها – طريقة بث الدعوة – تلك الطريقة التي حققت نجاحا كبيرا في فارس والعراق • لقد كان الاهتمام بهذه التطورات ومتابعتها بشكل ضرورة ملحة طارئة جعلت العثمانيين يدفعون بأساطيلهم البحرية للعمل على السواحل الجزائرية ، وقد أدى هذا الى اثارة الحروب البحرية – التي طال آمدها – مع اسبانيا في القرن السادس عشر ، وعلى أية حال ، فأن العداء والحقد الشديدين بين العثمانيين وسكان شمال أفريقيا من ناحية ، ومسيحيي ايبيريا من ناحية اخرى – قد منع الصدام المباشر بين العثمانيين ودول المغرب الأقصى •

لقد كانت السياسة الثابتة للسلاطين العثمانيين في القرن السادس عشر هي مواجهة الهرطقة والبدع التي لا يوافق عليها علماء السنة ، ومحاربتها ، ولكن دون محاولة العمل على انتزاعها من جذورها تماما – وكان السلاطين يطبقون هذه السياسة في كل المناطق الخاضعة لسلطانهم • فطرق الدراويش الهراطقة ، كانت جزءا لا يتجزأ من الدولة العثمانية بحيث كانت مهاجمتها أمرا صعبا • فالانكشارية على سبيل المثال كانوا أعضاء فيها وكانوا على استعداد للدفاع عن شيوخهم (مرشديهم الروحيين) من دراويش البقطاشية ، كما كانت الطرق الأخرى غير البقطاشية، مندمجة ، بنفس الأسلوب في الروابط (النقابات) الحرفية في اسطنبول ، وفي الجمعيات والمجتمعات على مستوى الأناضول كله •

---

(١) يخلط المؤلف بين الأشراف أو ادعاء الشرافة ، والشيعة فليس كل الأشراف شيعة ، وليس ادعاء الشرافة ، بالضرورة ، تشيعا • ولم تكن الدولة السعدية دولة شيعية – (المترجم) •

وبعد ثورة سنة ١٥١٤ وما صحبها من مذابح تراجع معظم الشيعة والمتعاطفين معهم وتظاهروا باعتناق المبادىء السنية ، تقية . هى أسلوب الخداع التقليدى الذى ألفوه • ومع هذا فقد قامت ثورات خطيرة فى المناطق النائية ، فقد قام الدراويش بثورة بين قبائل التركمان فى كرمان وجبال طوروس ، وكانت ثـورة ذات طابع حساس ، ورغم أنهـا نشبت فى سنة ١٥٢٦ الا أن قمعها استغرق عامين ، وبصرف النظر عن ضرورة اظهـار القـوة العسـكرية فى الولايات النائية ، فان السلاطين اكتفوا باتخاذ الاحتياطات الادارية ، والحذر ، فى هذه المناطق النائية ، فسليمان قد دعم ونظـم جهازا يضم علماء المسلمين فى الامبراطورية ، على أسـاس تصاعدى (هيراركى) ، ودعم وأيد مؤسسات التعليم السنية ، ووضع ثقل حكومته لتييد المذهب السنى المنشـود ونتيجة لاجراءاته هذه فان عقائد المخرفين الهراطقة (وكان غالبهم من الشيعة الذين اتخذوا التقية طريقا) من الدراويش ، بدأت تفقد شيئا فشيئا ، وسائل التعبير العام عن أفكارها• ولقد كانت عقائد الدراويش تنحو تقليديا الى التأكيد على التشابه بين الاسلام والمسيحية ، وخلقوا جسرا بين الديانتين ، كان له تأثيره ، لكن بعد اجراءات سليمان ، شرعت الفجـوة بين المجتمعين ، الاسلامى والمسيحى ، تتسـع ، بين رعايا الامبراطورية العثمانية •

وزاد اتساع الفجوة ، عندما كان سلاطين العثمانيين فى القرن السادس عشر ، مضطرين للتضخيم من دورهم ، كحملة لألوية الجهاد ، لتعبئة رعاياهم المسلمين وبث الحماس بينهم ، استعدادا لسلسلة الحروب الطويلة ضد الأوروبيين فى البحر المتوسط وشرق أوروبا •

لقـد جمـدت تشريعات سليمان الحياة العقليـة فى الامبراطورية العثمانيـة فى قوالب محـددة ، وبسـنية (خانقة) • فبدلا من مواجهة الهجوم ضـد المذهب السنى على أسس فكرية ، فان علماء الدولة العثمانية عولوا عـلى الاجـراءات التى اتخذتهـا الدولة وصـاروا يـرددون

ويعيدون المواقف الرسمية للدولة ويفتون بادانة معتنقي البدع الشيعية عند ظهورهم • وعلى المدى الطويل كان هذا التقاعس الفكري قد كلفهم كثيرا ، وبالتدريج فان التزام العثمانيين بالنقل دون العقل ـ أتاح للأوربيين أن يبزوا العثمانيين في مجال الفكر والمعارك المرة تلو الأخرى ، دون أن يكون لهذا صدى أو استجابة للتغيير لدى المسلمين (العثمانيين) وعلى أية حال ، فعلى المدى القريب ، كان يبدو أن العثمانيين يتمتعون بكل المزايا ، فالموقف الديني والنظام في الجانب الاسلامي ، كان يقابلهما على الجانب الأوروبي ، النقيض تماما ، ممثلا في الفوضى والاضطراب التي مازت أوروبا في عهدالاصلاح الديني، حيث كانت تتصارع عقائد روما وفيتنبرج ـ وجنيف معا ، كما كانت هذه العقائد جميعا تتصارع بدورها مع العقائد المسيحية الراديكالية ممثلة في المناهضين للتعميد والمناهضين للتثليث Unitarians ورغم هذا ، فقد كان اللوم والتوبيخ المتبادلان بين المذاهب المسيحية ، قد دفعا هذه المذاهب المسيحية في مناسبات مختلفة الى مناظرات عقلية ، وهذا ما لم نكن نجد له نظيرا بين المسلمين •

ومن وجهة نظر الأوربيين المعاصرين ـ خاصة أولئك الذين عانوا بمرارة من الجيوش والأساطيل العثمانية في شرق أوروبا والبحرالمتوسط ـ كانتالامبراطورية العثمانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر قوة مهيمنة وعدوا لا يغلبه غلاب •

ومع هذا فانه من خلال المؤسسات والعمليات الاجتماعية، التي أدت وأدت الى هذا التقدم والنصر على المستوى الامبراطوري ـ ظهرت ـ ولكن متأخرا ، عوامل التناقض ، والهلهلة والتمزق ، التي كانت تتجلى واضحة كلما تقدم الزمن ، والتي تمخض عنها في النهاية تقليص كبرياء الامبراطورية العثمانية ، فبدت امبراطورية اعتراها الشلل ، وبدت طاقاتها مستنزفة ومستهلكة وخائرة القوى•

لقد بقيت امبراطورية سلاطين آل عثمان ـ بدون تغيير

حقيقي ــ صالحة لتحقيق أغراضها الأولى، ممثلة في الغارات الهمجية ، التي كانت هي أساس قيام الدولة ومنها ــ أي من هـذه الغـارات الهمجيـة ، تطـورت ــ أي الامبراطورية العثمانية ، لقـد كانت نظم الامبراطورية مخططة لتحقيق أغراض السلب والنهب • تلك كانت بنية الدولة العثمانية، رغم كل التوسع الخارجي ، وكل الظروف التي أحاطت بها• فالموارد التي هيأت لأسطـول النمـو والازدهار كعاصمة كبرى لم تكن لتتهيأ بدون الغـارات عبر الحـدود • وقـد ازدادت غارات الحدود هذه عددا وعدة بعد استقرار الدولة فغدت ضرورية ، ولكنهـا أصبحت تتم من خـلال جيـوش جرارة ، ولم يكن يتأتى تعبئة هذه الجيوش ، الآن ، كما كان في الماضي ــ الا باتباع طريقين ، أولهما توزيع الاقطاعات على المحاربين في مقابل خدماتهم العسكرية ، ولما كان نزع ملكية ملاك الأراضي المسـلمين ، أمرا لا تقـره الشريعـة الاسلامية ، لذا كان الطريق الوحيد للحصول على مسـاحات كافية من الأراضي لمنحها مزيدا من المحاربين ، هو التوسـع عبر الحدود ، ولن يتـأتى هـذا الا بمزيد من الغـارات ، وثانيهما ، جمع الرقيق لتكوين جيش منهم ، ولن يتـأتى تجميع الـرقيق الا بمزيد من الغارات • وكان ولاء هاتين القوتين اللتين تشكلان القوات المسلحة العثمانية واخلاصها يعتمد عـلى اتاحة فرص وموارد لا تنضب من الاسـلاب والغنائم ، ولضمان جهاز من العبيد المطيعين ، كان لابد من مزيد من الغارات ، يقوم بها العبيد أنفسـهم لجلب عبيـد آخرين •

تلك هي *الدائرة التي* تشكل النظـام ، والتي تدور لتوفير موارد لا تنفد من الرقيق والغنائم والمكاسب والأراضي• ولم يكن العثمانيون يستطيعون الاسـتمرار بدون هـذا ، فالغارات كانت تجلب لهم أدوات البقاء ، وتكون لهم جهاز حـرب بدائيا وسـاذجا اذا ما قورن بغـيره ، كمـا كانت أساليبهم تلك تؤثر في أجهـزة النقـل لديهـم ، وأجهزة اتصالاتهم ، وأساليب ادارتهم • وفوق هـذا فقـد كانت

طبيعة العثمانيين تجعل تخليهم عن السلب والنهب أمرا غير قائم ، اذ كان تراجعهم خلف حدود ثابتة سيؤدى يقينا الى تفتت السلطة المركزية بسبب عدم مقدرتهم — فى هذه الحالة — على السيطرة على أجهزة الحرب والغزو تلك ، وذلك أن حائزى الاقطاعات سيحققون مكاسب من فترات السلم الطويلة ، لترسيخ دعائمهم واقرار أسرهم فى عقاراتهم وأراضيهم ، بعيدين عن مطالب الحكومة المركزية ، كما أن الجند من العبيد الذين يستمدون حياتهم واستمرارهم من توقع مزيد من الغنائم والاسلاب ، قد يحولون ولاءهم عن أسيادهم لاجئين للسلطان الذى يشبع نهمهم للغزو والغارة عبر الحدود ، وقد حدث هذا التطور حتى فى عهد سلطان مهيب كسليمان القانونى ، اذ ادى وجود الانكشارية فى حالة سلم لمدة ثلاث سنوات ، الى سلسلة اضطرابات خطيرة قام بها الانكشارية فى اسطنبول فى سنة ١٥٢٥ · ورغم الانتصارات العسكرية الحادثة فى سنة ١٥٢٦ الا أن الأحداث ما لبثت تترى فى نفس الحقبة الزمنية (العشرينات من القرن السادس عشر) مفجرة الجانب الآخر من المشكلة، ذلك أنه من المستحيل من الناحية الفنية العسكرية الاستمرار فى احراز انتصارات عسكرية هائلة ضد أهداف تبعد كثيرا عن قلب الدولة العثمانية ، ففى مذكرات السلطان اليومية التى تسجل التراجع من فينا الى بلجراد فى سنة ١٥٢٩ ورد أن « الجليد كان يغطى كل شىء من الليل حتى ظهر اليوم التالى » وان كثيرا من الخيول والرجال، فقدت فى المستنقعات وأن « كثيرين ماتوا جوعا » · ان النتيجة المنطقية لمثل هذا التكوين ، هو ان النظام بحكم تكوينه ، يحطم نفسه بنفسه ويهزم نفسه بنفسه (يأكل بعضه بعضا) ، انه نظام يمكنه أن يحرز انتصارات كبرى ، ولكنه لا يستطيع أن يعمل مدة طويلة ·

وبهذا المعنى ، كانت الامبراطورية العثمانية محكوما عليها بالاخفاق فى التحرر من أصولها وتراثها وثمة بعد آخر هام يحكم ببوارها ، يتمثل فى توجه مضاد — ألا وهو

تجربة تاريخية تقف دون استمرار التقاليد العثمانيه الفعالة .

لقد كان سر نجاحات العثمانيين الأول يكمن في قدرتهم على الاستيعاب والتمثل ، بشكل ملحوظ ، فلم تكن الرابطة بين المقاتلين عند الترك منذ البداية ، رابطة قبلية اذ لم يكونوا يرتبطون معا من خلال بنية من علاقات النسب والقرابة حيث لا مكان للغرباء . بل كانوا مجموعة من البدو الرحل المقاتلين في حالة حركة دائمة انه تنظيم اختياري يقوده زعيم (قائد) مختار (منتخب) ، كما انه نظام مفتوح بحيث كان أي فرد قادر على الالتحاق به (الانضمام اليه) . وطالما كانت المجموعة المهاجرة (المرتحلة) تخرج من نصر الى نصر فانها أثناء ذلك كانت تستوعب عناصر من الرجال والنساء الأكفاء من المستقرات والمستوطنات الزراعية التي تجتاحها هذه الجماعة المهاجرة وتشبعها سلبا ونهبا ، وبعد الانتصار عليها تعبىء رجالها ونساءها وأطفالها المهزومين ، وكانت هذه المجموعة المهاجرة تضم اليها الدراويش المتجولين ـ الذين كانوا يبحثون بدأب عن مريدين ـ والخارجين والآبقين والفئات الاجتماعية المنبوذة والتي لم تجد لها مكانا داخل الحدود البيزنطية ، كما كانت تضم جماعات الفلاحين الذين اجتثم المغول مع جذورهم وأبعدوهم عن ديارهم في الأناضول . وبطريقة مشابهة يمكن الحديث عن كل ملامح وخصائص الثقافة العثمانية التي تكونت وظهرت بعد ذلك ، انها ملامح وخصائص تم اكتسابها وللمتها من الطريق ، فهذه القدرة الفائقة على الاحتواء هي التي تفسر الطريقة الباهرة التي تمت بها الفتوح والغزوات العثمانية الأولى فلم يبق العثمانيون بمعزل عن الشعوب التي فتحوها ، ولا غرباء عنهم ، ويرجع هذا الى أنه لم يكن لهم هوية خلا الانتماء لقوتهم العسكرية ولقائدهم الحربي خاصة ، لقد كانوا يندمجون ويتعايشون مع الثقافات الأخرى ، فلم يكن ثمة شيء غريب بالنسبة لهم الا السلام .

لقد تغير كل هذا بصورة أساسية عندما تحولوا للاسلام، فقد كان اعتناقهم للاسلام يعنى أكثر من أخذهم ببعض المبادىء فى العقيدة والشريعة • لقد كان تحولهم للاسلام يعنى اندراجهم فى هيكل احدى الثقافات (الحضارات) العالمية الكبرى التى يميزها عن الثقافات (الحضارات) الأخرى هيكلها القانونى (التشريعى) المحدد وتنظيمها الاجتماعى والسياسى ومحاولاتها وتجاريبها الفنية والحرفية ، واتجاهاتها فى الحياة ونظرتها للقدر ، فباعتبار الاسلام يمثل منهجا شاملا للحياة ، كان خصبا ومليئا بوجهات النظر المختلفة ، بشكل غير عادى ، فقد كان الاسلام يقدم لمعتنقيه فرصا واسعة للاختيار والتفسير ، وان كان فى نفس الوقت يفتقد التسامح (١) ، متسما بالترفع ، والأهم من هذا أنه دين يعادى بشدة العقائدالأخرى المختلفة معه • وكما ورد فى كتاب تراث الاسلام The legacy of Islam :

« ان المجتمع الاسلامى يختلف عن المجتمعات الأخرى ، انه المجتمع المختار ، انه الشعب المبارك • انه المجتمع الذى تتوقع فيه مزيدا من الخيرات ، والأمور الطيبة ، انه المجتمع الذى يحارب الشيطان (الشر) ، انه المستقر الوحيد للعدالة والصدق على ظهر البسيطة • انهم المبعوثون الوحيدون للأمم للدعوة الى الله ، تماما كما كان النبى (محمد صلى الله عليه وسلم) المبعوث الوحيد للدعوة الى الله (وحده) بين العرب » •

ولم يحدث هذا البتة بينما كان العثمانيون فى حالة تماس جغرافى مع العالم الاسلامى ، ولكن خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، عندما كان العثمانيون فى مرحلة التطور والنمو من امارة صغيرة غير ثابتة الحدود الى امبراطورية عظمى ، هيمن العثمانيون من خلالها على عدد ضخم جدا من الرعايا المسيحيين فى جنوب شرق أوروبا ،

(١) يناقض المؤلف نفسه هنا ، فقد ذكر فى أكثر من مائة موضع من كتابه هذا ، ما تمتع به المسيحيون فى ظل حكم المسلمين من تسامح ـ (المترجم) •

ففي هذه المرحلة ، ووفقا لما أملاه عليهم تراثهم العميق التليد ــ كان المفروض أن يعتنقوا دين رعاياهم الجدد • لكن هذا لم يحدث لأنهم أتوا الى أوروبا حاملين معهم هذا الدين المنطوى على التعصب وعدم التسامح ، ونعنى به الاسلام ، بالاضافة الى أنهم كانوا يحملون عبئا آخر ممثلا في رعاياهم المسلمين كثيرى العدد في ولاياتهم الآسيوية اذ كان على العثمانيين أن يضعوا ولاء هذه الولايات الآسيوية في الحسبان • على أنه بعد سقوط القسطنطينية على يد محمد الثاني (الفاتح) كانت هناك محاولات غير متحمسة ، تجرى على استحياء ، لاخراج توليفة من المسيحية والاسلام، وذلك في دوائر البلاط العثماني ، ولكن مؤتمرا (مجمعا) من العلماء المسلمين واللاهوتيين المسيحيين في القسطنطينية لم يكن ليستطيع انجاز شيء ازاء هذه المسألة المتعددة الأبعاد وكما رأينا فان الاضطرابات المزلزلة التي اجتاحت العالم الاسلامي نفسه في بداية القرن السادس عشر قد أجبرت السلاطين على التخلي عن محاولاتهم التوفيقية هذه بين المسيحية والاسلام لصالح المذهب السني الاسلامي الحاد القاطع المانع exclusive وبينما كان هذا المذهب السني يمنع اضطهاد الرعايا المسيحيين (١) ، الا أنه لم يكن يشجع أي خطة أو برنامج لتحويل الشعوب المسيحية تحولا جماعيا للاسلام • ولقد تأكد هذا الموقف (عدم تحول الشعوب المسيحية الواقعة في ظلال العثمانيين تحولا جماعيا للاسلام) بالمنافسة بين الامبراطورية العثمانية من ناحيه ، والقوى العظمى في أوروبا المسيحية من ناحية أخرى ، تلك المواجهة التي جعلت من الضرورى أن يؤكدالسلاطين هويتهم الاسلامية بشدة مما جعلهم يدافعون عن دينهم الاسلامي باعتبارهم حماة له ، بل وأكثر من حماة أيضا •

وكانت النتيجة الحتمية لهذا ، هو استمرار اتساع الفجوة بين العثمانيين ورعاياهم المسيحيين ، حيث قطعت

---

(١) يناقض ما ذكره المؤلف في الصفحة السابقة ــ (المترجم) •

جسور التفاهم بين الطرفين • وما عادت الدولة العثمانية كما كانت فى مراحلها الباكرة ، مؤسسة تعتمد على حرية الاختيار Voluntary association اذ لم يعد المسيحيون مقبولين كمواطنين من الدرجة الأولى (لم يعودوا أعضاء لهم كامل الحقوق فى هذه المؤسسة) ورغم أن فلاحى أوروبا الشرقية قد رحبوا فى البداية بالعثمانيين كمخلصين لهم من الطبقات الحاكمة التى كانت تسومهم سوء العذاب بدون أى احساس ، ولكن عندما استقر حكم العثمانيين ، منعتهم عقيدتهم الدينية الاسلامية من توثيق عرى المودة والتعاطف بشكل دائم مع رعاياهم بطريقة مبنية على الثقة المتبادلة أو بناء على عقائد مشتركة • فقد يتسامح الرعايا، لكن تسامحهم بدون حماس ، اذ كانت الحكومة لا تقبل شهادتهم (أى المسيحيين) فى المحاكم ، وتمنعهم من بناء كنائس جديدة ، وتحظر عليهم قرع أجراس الكنائس •

لقد كانت الامبراطورية العثمانية فى أوروبا تمثل جهازا اداريا مؤثرا وفعالا ويدعو للاعجاب ، ولكنه كان معزولا بسبب العامل الدينى الذى حال بينه وبين الاندماج الوثيق بالسكان ، اندماجا يشكل كلا متكاملا معهم ، فمثل هذا النظام المبنى على تعايش الصدفة وغير المؤسس ، لا ينتج عنه مجتمع متكامل مترابط بشكل عضوى ، فان أى وهن أو انحدار يعترى كفاءة المؤسسةالعسكرية التى كان العثمانيون ـ عن طريقها ـ يسوسون ويقمعون امبراطوريتهمالأوربية• ـ كان كفيلا بكشف تناقضها الأساسى الذى يحتم زوالها فلم تكن التوترات المسببة للانهيار بعيدة بدرجة كافية عن سطح المجتمع العثمانى ، فقد كانت المزاوجة بين السباهيين المسلمين وكتائب الرقيق والاداريين التابعين للبيتالسلطانى تكون جهازا عسكريا وسياسيا ذا قوة لا تقاوم ، وبطبيعة الحال كان من الضرورى حفظ التوازن بينها ، وكانت مهمة حفظ هذا التوازن لتحقيق وظيفة هذه الأجهزة الضرورية

تقع على عاتق السلطان ، ومن خلال ضبط هـذا التوازن ، كان السلاطين يستمدون قدرتهم على الهيمنة والسـيطرة • وكان مصدر الخطر لا يكمن في مسـألة التـوازن في حد ذاتها ، وانما كان في حقيقة الأمر يكمن في عبيـد البيت السلطاني ، اذ كان الميزان يميل لصـالحهم • فخلال حـكم سليمان لم يكن من الممكن في معظم الأحوال ، أن يصل الحر المسلم بالميلاد مهما كانت كفاءته ، لمرتبة متميزة سـواء في الجيش أو الجهاز الادارى ، فقد كانت المنـاصب العليـا ، قصرا عـلى الـكولار Kullar ، وهـم الرجال من رقيق السلطان ، بينما كانت طبقة الاقطاعيين في الامبراطورية ، تشكل المحاربين ذوى الأصول التركية ، وكان كثيرون منهم فخورين بانـدراجهم في سلك الخدمة العثمانية ، ومع هـذا فقـد كانوا مسلوبي السلطة والمزايا ، لقـد كان المجـال مفتوحا أمام الأكفاء والموهوبين ، لكن في هذه الامبراطورية التركيـة التي كانت معرضـة للتهـديد ، كان يشترط أن يكون هؤلاء الأكفاء والموهوبون من غـير المسلمين بالميلاد ، ومن غير ذوى الأصـول التركية • وقد عمـل عـلى زيادة السخط بين السباهيين ، عـوامل طارئة ممثلة خاصـة في التضخم الاقتصادى الذى شمل الامبراطورية العثمانية عامة وكل مجتمعات حوض البحر المتوسط ، خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر • وقد أدى هذا التضخم الى ايجاد فرص كسب معتبرة ، لشاغلي الوظائف العامة ، بينما أدى نفس التضخم الى تاثيرات سيئة على أولئك الذين يتعيشون من الدخول المحدودة لأراضيهم ، ولكن المشكلة الجوهرية قد نتجت عن عدم كمال التوازن بين القـوى الاجتماعيـة في أجهزة الامبراطورية الحربية ، وأجهزة الحكم ، فأحـداث الخمسينات من القرن السادس عشر الناتجة عن تنافس ثلاثة من أبناء سليمان القانوني عـلى خلافة أبيهم ، قد أظهرت خطورة عدم التوازن هذا ، فكل واحد من هؤلاء الثلاثة كون جيشا هائلا خاصا باستمالة السباهيين السـاخطين ، ببـذل الوعود لهم بشغل المناصب الهامة في الديوان السلطاني اذا

ما ارتقى سدة السلطنة • وفي بعض الحالات كان السباهيون رسميا يتقلدون أوضاع (مناصب) الانكشارية ، كضمان لتحقيق أهدافهم ، وذلك كي يتمتعوا بمزايا ومكاسب الكولار (عبيد البيت السلطاني) ولم يتم استتباب السلام الا بعد اعدام اثنين من الأمراء (من أبناء سليمان القانوني) وكان من المحتمل لو أن سلطان آخر غير سليمان كان على عرش السلطنة ، لكان قد فقد السيطرة على الموقف كلية •

وحتى في خلال الفترة التي بلغ فيها النظام العسكري والاداري العثماني ذروته ، كانت تتجلى مظاهر الصعوبات الداخلية • وكان لابد لهذه الشروخ التي برزت أن تنمو وتتفاقم بعد توقف فتوحات القرن السادس عشر المحمومة ، وانتقال السلطة الى جيل من السلاطين والوزراء العظام من ذوي القدرات العادية •

وبالنسبة للامبراطورية العثمانية – باعتبارها احدى دول العالم الاسلامي – كان التناقض الشيعي السني يمثل ملمحا جوهريا ، لخبرات العثمانيين التاريخية • خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وعلى النقيض من هذا فان التصادم والتعارض الحادث في أوروبا ، كان هامشيا ، لقد كان الانحياز الى جانب السنة ، يتبدى للعثمانيين قدرا ضروريا ، اذ كانوا يودون أن يتحول مجتمعهم غير المستقر ، وغير المحدد وغير المنضبط الى مجتمع يحكمه نظام محافظ يتمثل التعاليم والعقائد الاسلامية • وعلى النقيض من النظام الذي ساد مناطق الحكم العثماني ، كانت الاضطرابات تسود أوروبا في عهد حركة الاصلاح الديني ، ومن هنا كان في مقدور رجال الدولة العثمانية أن يشعروا أنهم تجاوزوا بنجاح الأزمة الدينية التي كانت تهدد مجتمعهم في بواكير القرن السادس عشر ، كان من نتيجة ذلك تهذيب المواجهة مع الهراطقة (أصحاب البدع) والكفرة كما أن الاتجاه المتحفظ الذي كان يسير بخطى ثابتة ، قد أدى الى طرح كل البدع ، فبالرجوع الى الصيغ والاشكال القديمة (السلفية)

يبدأ ازدياد تخلي العقل الإسلامي عن هذه العناصر العقلية في التراث الإسلامي ، والتي كان من المحتمل أن تمكنهم من الاحتفاظ بمكانة ازاء سلسلة الثورات الثقافية والاقتصادية التي كانت على وشك أن تجذر أفكارها في أوروبا . لقد كان ثمة شيء قريب الشبه بروح النهضة الايطالية ، كامنا في بلاط محمد الثاني (الفاتح) ولكن سليما (الصارم) وسليمان القانوني (الفاخر) قد قمعا هذه الأفكار الخطرة في سائر أنحاء الامبراطورية ، لقد حققا (سليم وسليمان) نجاحا كبيرا في هذا المضمار لدرجة أن روح الفكر والنظر والتحديث التي تمخضت عن مدن عامرة بالآداب والعلوم الحديثة في أوروبا لم تتقدم مطلقا في الامبراطورية العثمانية ، فلم تواجه الامبراطورية العثمانية حركة الهرطقة وشيوع الخرافات فيها الا بالتأكيد على العودة لتراث السلف (الماضي) فقد أدى العجز الفكري الكامن مسبقا في العقلية العثمانية الى حجب أي رد فعل بناء عند مواجهة أية تحديات من هذا النوع فيما بعد ، لقد كان السنة المتعلمون والأتقياء يشعرون بأن القبول المطلق بلا اعتراض لحقائق الاسلام هو الطريق الوحيد لوضع عقلي آمن وملائم ومريح . ولكن غياب المناظرات الفكرية، أدى الى اضمحلال النشاط الفكري، وبدأ علماء الدين يفقدون مكانتهم شيئا فشيئا ، ويتخلون عن ميراثهم الفكري . لقد كان هذا الجمود الفكري هو الثمن الغالي الذي تحتم على العثمانيين دفعه لمواجهة البدع (الهرطقة) ، والى هذا الجمود يرجع السبب الرئيسي لفشل الاسلام في أيامنا هذه (وليس معنى وجود فئة جامدة أن نقول بأن الاسلام قد فشل ، فالفكر الإسلامي يغمر أوروبا ذاتها حتى في القرن العشرين) (1) .

وقد أسهمت البنيه الاجتماعية للعالم الاسلامي ، بشدة في هذه النتيجة ، فلم تكن الأفكار الجديدة لتأمل في تربة مناسبة في دولة مكونة من طبقة صغيرة من الرسميين والعسكر

(1) ما بين القوسين إضافة من المترجم .

كونها ضرائب باهظة على كاهل الفلاحين ، واذلال لسكان المدن عن طريق الرسميين وملاك الأراضى بحيث أضحى هذا ملمحا دائما لمجتمع الشرق الأوسط منذ الألف الثانى قبل الميلاد • وعلى المدى القريب فان الامبراطورية العثمانية ، قد دعمت هــذه البنية الاجتماعيـة بما أوتيت من تنظيم امبراطورى فائق الفخامة والبهاء •

أما عـلى المدى البعيد ، فكان رد فعل العثمانيين ازاء التناقض بين الشيعة والسنة قد أسهم فى نقض ذلك الصرح، فبسبب دعم العثمانيين وتأييدهم الشديد للسنة السلفيين ، تسبب السلاطين فى احداث فجوة خطيرة بين الطبقة الحاكمة وطبقات العامة فى المدن• فمنذ القرن السادس عشر فصاعدا كان الحرفيون والتجار فى المدن يزداد اعتناقهم شيئا فشيئا للأفكار الخرافيـة المبتذلة وايمانهم بالمعجزات ، لذا فقـد واجه السنة البعيدون عن الخيالات والأوهام والجـامدون جدا ، سكان المدن الذين كانوا ميالين بشكل متزايد ومحموم للمبالغات الدينية • لقد أضبح العثمانيون بهذه الطريقـة بعيدين عن قلوب جماهير سكان المدن فى الامبراطورية ، اذ كانوا غرباء عن رعاياهم المسيحيين ، ومعزولين على مضض من قبل الفلاحين الذين يعتمد عليهم فى استمرار الدولة • وفى بداية هــذا الفصل وجدنا الاجتمـاعى التركى زيا جوكالب Gikalp يذكر أفكارا استشهدنا بها لتأكيـد وجهة النظر القائلة بأن النظام الامبراطورى العثمانى كان فى الأساس مجموعة عناصر مستعارة تبناها العثمانيون فى مجالات مختلفة ومن ثقافات متباينة • وفى هذا المجال نورد رأيه النهائى :

« وهذه المؤسسات لم تكن أبدا حقيقة لتتكامل ولم يكن لينتج عنها أبدا نظام متناسق » •

ويمكننا الرجوع الى تول جيبون Gibbon عن الطبقة الحاكمة العثمانية ، لقد قال انه « شعب مصنوع » لقد كانت الامبراطورية العثمانية انعكاسا لطاقات وذكاء هذه الطبقة

الحاكمة ولكنها كانت أيضا انعكاسا لنقص الأهداف الاجتماعية الخلاقة والسمحة • فبينما هي مدعاة للاعجاب كأداة ادارية وعسكرية اذا أحسن تدبيرها، فان الامبراطورية لم تظهر قدرة وطاقة على التطور الذاتي ، أو النمو بشكل مستقل •

لقد كانت هذه الأداة مجرد تجميع لعناصر وأدوات بسيطة ، وكانت هذه البساطة أو السذاجة ، كما عرض جوكالب تؤدى فى بعض الحالات الى محق كل النتائج المتوقعة ، وعلى هذا فقد كان النظام الهرمى (الهيراركى) لمدارس المساجد — التى كان يشرف عليها علماء الدين — قد صاغت طلبتها من خلال ثقافة اسلامية عالية وعالمية تقليدية • وفى نفس الوقت فان عناصر من قانون الأعراف التركى القديم التى كانت كامنة فى التشريعات المدنية العثمانية ، كانت تلقن للعبيد الأوربيين (الدقشرمة) فى مدارس القصر السلطانى • فبينما كانت مدارس المساجد تحت اشراف العلماء تعمل على اخراج الأتراك من تركيتهم ليكونوا مسامين ، فان هذه المؤسسات (مدارس القصر) كانت تجعل غير الأتراك ، أتراكا ، وعلى هذا ، فانه كما يبدو الآن ، كان المتعلمون فى حالة تضارب ، غرضا وهدفا، فيما يتعلق بالوظيفة الاجتماعية للتعليم •

الفصل الثالث

الحروب ضد الغرب

١٥٢٠ ـ ١٥٨١

كان اعتلاء سليمان القانونى (العظيم) سدة السلطنة العثمانية فى سنة ١٥٢٠ ، فاتحة عهد من الغارات الكبرى فى البلقان والبحر المتوسط . كما كان عام ١٥٨١ هو عام انحسار الأعمال العدوانية بين العثمانيين والحلف المقدس ، البابوى الأسبانى ، فهذا التاريخ (١٥٨١) يعتبر تاريخا ذا دلالة بالنسبة لكل الأطراف ، فقد كان العثمانيون فى سنة ١٥٧٧ ، قد اتجهوا بغزواتهم فعلا صوب الشرق ، لينخرطوا فى حرب طويلة الأمد مع الفرس ، كما أن اهتمامات أسبانيا ـ التى كانت تعتبر قائدة الدفاع عن قضايا أوروبا ـ كانت قد انتقلت الى الأطلنطى ، فى نفس الوقت الذى كان فيه العثمانيون قد اتجهوا شرقا ، كما ان ثورة الأراضى المنخفضة كانت قد بلغت ذروتها بنهب الاسبان انتورب فى سنة ١٥٧٦ ، كما ألحقت البرتغال بالتاج الأسبانى فى سنة ١٥٨٠ . هذا التشتت فى الاهتمامات المعاصرة ، أزاح البلقان والبحر المتوسط عن المسار التاريخى السائد ، لقد قدمت حروب العثمانيين ضد الغرب ، فى القرن السادس عشر ، سجلا حافلا بالنهب المنظم الواسع المدى ، فمنذ ظهورهم فى التاريخ أول مرة كعصابات من الرحالة المحاربين ، كان العثمانيون يسيرون من نصر الى نصر بفضل تكريس أنفسهم للفتوح والتعدى ، بشكل صارم .

وحتى بعد أن اتخذت الامبراطورية ، القسطنطينية ، حاضرة لها ـ ظلت تستمد أسباب الحياة من الغنائم والقوى العاملة والأراضي والبضائع والموارد ، التي كانت تستولي عليها من المناطق الحدودية ، فقد كان البحث الدائب عن أعداء جدد ورعايا جدد ، أسلوب حيـاة ومبـدأ أثر فيما أصبح اليوم مجتمعا كبيرا معقدا ، وصاغ تكوينه ، وذلك على حد تعبير جيبون Gibbon . لقد كان هذا الأسلوب ، مبدأ ثابتا ، وليس سياسة تتغير بتغير الظروف ٠

لقد فرضت شهوة النهب كثيرا من التفاصـيل ، كما فرضت وحددت استراتيجية الصراع ٠ ففي الفترات الفاصلة بين المواجهات الكبرى ، وحـتى في أثناء فترات الهدنـة الرسمية ، كان القراصنة ، والذين يغيرون على الحدود من كلا الجانبين ، لايكفون عن العمل ، وكان الشتاء وحده هو الفصل الذى تتوقف فيـه نشـاطات أولئك الذين تعـودوا السرقة والنهب كأسـلوب حياة ٠ وكانت هـذه العمليـات تتراوح مابين السلب والنهب الذين يقوم بهما لص وقاطـع طرق قليلا القيمة ، وبين اندفاع الجماعات ، اندفاعا يحدث توترا على جانبي الطرفين المتقاتلين ، في منـاطق التقـاء الأديان ، من البلقـان الى مجتمعات القراصنة في شـمال أفريقيا ، حيث كانت القرصنة هي محور اقتصاد دول كبيرة ، فقد عانت جمهوريات الأدرياتيك البحرية ذات التحصينات الدفاعية الضعيفة كالبندقية وراجوسا ، من خسائر شديدة ، نتيجة هجمات القراصنة المسيحيين والمسلمين على السـواء ، خلال القرن السادس عشر وجانب من القرن السابع عشر وفي ذروة العدوان العثماني خلال الخمسينات والستينات من القـرن السـادس عشر ، كانت سـواحل أسبانيا ذاتهـا تتعرض لهجمات منتظمة من قبل قراصنة الجزائر والمغـرب الأقصى ، الذين كانـوا يتعـاونون مع مسـلمي غـرناطة ويؤازروهم ، نظرا لتعرضهم ـ أي مسلمي غرناطة ـ لضغط شديد ٠

ولقد كان تتابع الأحداث ، يتأثر دائما ، بل ويفرض

أحيانا ،وضع قيود وخلق معوقات تمنع السلاطين العثمانيين من ناحية ، والهبسبرج ـ باعتبارهم حمله اللواء الاوروبى ـ من ناحية أخرى ، من تحقيق اقصى الضغوط التى يبتغونها، واستغلال أقصى ما يمكنهم من موارد ، ضد أعدائهم المختلفين معهم عرقا ودينا • فالامبراطور شارل الخامس ، لم يتمكن قد تخلص من مشاكل الصراع مع التابع الفرنسى ، ولا من الصراع السياسى والدينى فى المانيا ولا من مشكلة ربط المستعمرات الأمريكية بأسبانيا ربطا وثيق العرى • كما ان خليفته فيليب الثانى قد واجه ثورة طال امدها فى الآراضى المنخفضة ـ أغنى ممتلكات أسبانيا فيما وراء البحار ـ أجبرته على سحب أفضل فرقه العسكرية من البحر المتوسط ١٥٦٦ و ١٥٦٧ ، فى الوقت الذى كان فيه فشل العثمانيين فى الاستيلاء على مالطه بموت سليمان القانونى ، قد أتاح لاسبانيا القيام بمبادرات هجومية •

وقد كان الحكام العثمانيون يعملون فى ظلال ظروف مشابهة ، فقد كانت هناك الحروب ضد فارس والنفوذ الفارسى فى أرمينيا والقوقاز فى أعوام ، ١٥٣٤ ، ١٥٣٥، ١٥٥٤ و ١٥٥٥ . وكانت هناك العمليات العسكرية ضد التدخل البرتغالى فى البحر الأحمر وبحر العرب فى عامى ١٥٣٧ و ١٥٣٨ ، وطوال أكثر من ثلاثين عاما ، وبدءا من سنة ١٥٥٠ كان صراع ورثة السلطنة فيمن يخلف سليمان، يشغل جانبا من جهد السلطات العثمانية •

لقد بدا انحسار موجة الحرب وتقهقرها وكأنهما فى تناسق مع التطورات الاقتصادية ، على الجانبين ، العثمانى والآوروبى ، فى القرن السادس عشر ، فاذا تصورنا اوروبا والاسلام على أنهما (أسرتين) أو (مجتمعين) متناظرين ، وجدنا أن فترات الرخاء النسبى ، ينتج عنهما فى كلا المجتمعين (الثقافتين) محصولا من المعارك المحلية ، أو الداخلية لتقسيم الغنائم والأسلاب الجاهزة ، كما أن فترة الركود الاقتصادى ، قد انبثق عنها قوى عدوانية تعمل خارج دائرة (الأسرة) أو (المجتمع) متخذة شكل حرب

صـليبية فى (الأسرة) المسيحية أو حـرب (جهاد) فى (الأسرة) الاسلامية • فعلى سبيل المثال ، كانت الصعوبات الاقتصـادية الخطـيرة التى عاناها المجتمعـان (المسـيحى والاسلامى) خلال فترة الخمسينات من القرن السادس عشر قد أدت بالجانبين إلى صراعات دينية طائفية ، وصراعات بين الأسرات الحاكمة التى صاغت تاريخ الحقب السابقة ، وأعقب انهاء هذه الصراعات ، استعار أوار حروب البحـر المتوسط واستئناف المد العثمانى فى أوروبا عـلى طـول الدانوب •

وكانت شعبتا الهجوم العثمانى هى ، الشعبة البرية عبر المجر وشرق أوروبا ، والشعبة البحرية ، ضد السواحل المسيحية والجزر فى البحر المتوسط •

المجر وشرق أوروبا :

كانت خصائص دولة المجر الكبرى التى ظهرت خـلال العصور الوسطى ، نتيجة موقعها على الحدود الغربية لمناطق الاستبس الاوراسية (السـهوب) ، فى منطقة تخترقهـا الأنهار ــ وبالذات شبكة الدانوب ــ وتحميهـا سلاسـل الجبال ــ وبالذات جبال كارباثيان ، Carpathian التى تتخذ فى هذه المنطقة شكل القوس ــ وهـذا الوضع ، هو الذى سمح لاقتصاد السـهوب (الاستبس) الرعوى أن يمتد ليشمل أو ليضم هذه المنطقة ، حيث يمـكن ممارسـة الزراعة البدائية واستثمار الغابة ، والاشتغال بالتعـدين عـلى نحو مبسط • وقد نتج عن تطـوير مـوارد الثروة المتعددة ، ظهور طبقة من صـغار المـزارعين ، وجماعات سكانية حضرية غير متطورة ، متناثرة عبر المـكان ، لـكن هؤلاء (صغار المزارعين والجماعات الحضرية) كانوا دوما تحت رحمة الغزاة من البدو الرحالة الذين يتميزون بقدرة فائقة على الحركة وبمهارات وتقاليد قتالية راسخة •

وسرعان ما تمكن الفرسان الماجيار Magyar الذين فتحوا سهول الدانوب الأوسط فى القرنين التاسع والعاشر للميلاد ، من استغلال السكان المحليين ، وانصرفوا فى استثمار الفرص المتيحة لهذا الاستغلال ، اكثر من انصرافهم لتنمية قطعانهم التى جلبوها معهم من آسيا ، وأوقفوا غاياتهم المغلوتة ، ليحققوا الاستقرار ، وانشغلوا بالتالى بممارسة مهامهم كحكام ، وأشخاص ذوى مكانة ، محققين أرباحا من اعمال رعاياهم الذين كانوا أما عبيد أرض أو حرفيين • وهكذا كانت أصول الارستقراطية المجرية •

فالمجتمع الاقطاعى وأفكار الغرب فى العصور الوسطى، قدما لهذه الطبقة الحاكمة من المحاربين الاحرار ، نمـوذجا ثقافيا ، أكثر جاذبية وأفضل مواءمة لاغراضهم ، من طغيان ومركزية العالم البيزنطى • وبينما عاشت المجر لعدة قرون كجزء من الغرب المسيحى الا أنها ظلت تواجه مشاكل الدولة الحدودية (أو الدولة العازلة) التى يعتمد بقاؤها على قدرتها على مقاومة مزيد من الغارات والغزوات التى تقوم بهـا شـعوب متبدية قادمة من الشرق ، بهذا كانت المملكة القوية هى وحدها القادرة على تعبئة الجيوش ونشرها فى جبهة عريضة لتكون قادرة على مواجهة هـذه المهمة ، غير أن رؤساء الارستقراطيات المحلية ــ وكانوا أولى بأس شديد ــ رفضوا قبول هذا الموقف رغم منطقيته ، وكانوا دائمى البحث عن ضمان لاستقلالهم المحلى باصرارهم على الطابع التقليدى الانتخابى للملكية المجرية •

ومهما كانت القيود الشرعية على حرية الملك فى اتخاذ القرار ، فان الحاكم اذا ما انعدم ضميره وكان نشيطا فعالا، أصبح فى مقدورة أن يستغل سلطته ويستثمر الخوف العام الناتج عن توقع غزو خارجى ، فى انشاء جيش من المرتزقة يمكن ــ توظيفه لقمع النبلاء وليس لصد العدوان الخارجى فحسب وهذا هو بعينه ما حققه جون هنجادى John Hungadi (١٤٤٤ ــ ١٤٥٨) وابنه الملك ماتياس كورفينس Mattias Corvinus (١٤٥٨ ــ ١٤٩٠) • وبعد وفاة

ماتياس ، فان الارستقراطية ممثلة فى النبلاء الأقل شأنا ـ والذين كانوا يخشون بأس الملكية أكثر من كبار الارستقراطيين الذين كانوا يتصرفون ويحكمون كأمراء مستقلين فى عقاراتهم البعيدة ـ قد استخدمت نفوذها الانتخابى لتنتزع من خلفاء ماتياس ـ لاديسلاس (١٤٩٨ ـ ١٥١٦) ولويس (١٥١٦ ـ ١٥٢٦) ـ اقرارا باحترام امتيازاتهم الارستقراطية ، كما عملوا على تسريح قوات المرتزقة العسكرية • وقد كان تدهور وضع التاج سبب فى مزيد من التدهور العام ، اد تراجعت كثير من الدول التابعة التى كانت متحلقة حول مملكة المجر ومرتبطة بها فى ظل الملكية القوية مثل ، مورافيا Moravia وصربيا ومولدافيا Moldavia وفاليشيا Wallachia • وانسابت الاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية نتيجة هذه الاختلافات السياسية ، فقد كانت الزراعة المجرية فقيرة وبدائية • وخلال حكم ماتياس كان المجريون قد زيدو رهقا بسبب مطالب التاج الذى استولى على المداخيل (العوائد) لصيانة الجيش النظامى ومواجهة تكاليفه ، وبسبب الأرستقراطية التى كان ظهورها الحديث نسبيا وانتقالها من دور الغزاة البداة فى مرحلة حديثة نسبيا ، مما جعلهم يسومون العاملين لديهم سوء العذاب بصورة فاقت كل تصور ، رغم اتسام العصر ـ عامة ـ بالغلظة • فالتخميض فى معدلات الجباية الذى أسهمت به الملكية فى سنة ١٤٩٠ قد ابطل مفعوله ، بالمقابل ، اذ تم تكثيف الجباية من قبل النبلاء الذين كانوا قد أعفوا نتوهم من القيود التى كان ماتياس قد فرضها عليهم • فثورة الفلاحين العارمة التى نشبت فى سنة ١٥١٤ قد تم قمعها بقسوة ليس من قبل الكتائب الملكية وانما من قبل جماعات أصحاب الأراضى بزعامة زابوليا Zapolya الترنسفالى ذى الطموح الشديد والطامع فى العرش • وفى سنة ١٥١٤ أقر البرلمان تشريعا زاد من بؤس الفلاحين ، وفى نفس العام قام حزب زابوليا بتمويل نشر :
Istvan verboczy's tripatitum opus iuis Consue tudinarii inclyri regi Hungaria

وهو التشريع الذى قنن حقوق الارستقراطية ومكاسبها ـ متحدية بذلك كلا من التاج والفلاحين (عبيد الأرض) ٠ لقد تعطلت فعاليات الملكية بسبب طبيعتها الانتخابية والحروب التى لا تنقطع بين جماعات الارستقراطية والاضطرابات الهائلة بين الفلاحين البؤساء ٠ تلك كانت خصائص مملكة المجر عندما عاود العثمانيون هجومهم على الدانوب ٠ لقد أصبحت المجر المقسمة الان فى طريق زحف الامبراطورية العثمانية التى استخدمت مواهبها العدوانية وتراثها الحربى البدوى وموارد اوروبا البحر الاسود الفحمه وموارد الشرق الادنى ٠ وبحلول عام ١٥٢٠ ، حيث جلس سليمان القانونى على العرش العثمانى خلفا لسليم الاول فاتح سوريا ومصر ، كان موقعا من السلطان سليمان ان يحمس بجلوسه على العرش بحمله كبرى تضاهى ماثر والده ٠ لقد تحركت جيوش سليمان ضد المجر فى صيف سنه ١٥٢١ قاصدة بلجراد كهدف اول ، تلك المدينه التى كانت تشكل قلعة حصينة عند ملتقى الدانوب الاوسط والمرتبطة بنظام مائى متشابك ٠ وتقدم سليمان (القانونى) بتشكيلات هجومية مصللة ، لصرف أعدائه عن هدفه الاساسى ، فاتجه غربا على طول نهر سافا Sava وشرقا عبر ترنسلفانيا Transylvania بينما كانت حركة التطويق تعرقل المواصلات من ناحية الشمال ، وبعد قدف ثقيل بالمدفعية وهجمات متكررة سقطت المدينة فى اغسطس ، وهكذا اصبح الخط من بلجراد الى بودا Boda فى الدانوب الأوسط مفتوحا امام التقدم العثمانى ٠ لكن مشاغل سليمان فى البحر المتوسط ومصر ، حالت دون سليمان والاستفادة القصوى من نصره فى ١٥٢٦ ٠ وكانت الانقسامات الداخلية فى المجتمع المجرى قد بدأت تطفح الآن فى صورة بشعة جمعت بين الطيش والتردد ، فلقد كان موسم المعارك متأخرا ، ولم تكن القوات المواجهة لتدخل المعارك حتى أغسطس ، كما أن استراتيجية الدفاع المتواصل قد تودى الى ابطاء تقدم هجوم سليمان المتعثر وتجبره على التراجع قبل حلول الشتاء ، ومع هذا فان المجريين قد غامروا بكل

شيء فى معركة واحدة مؤملين أن يقـوم الخيـالة بغـارات موفرة على السلطان الكبير ، ولكن السماء السابع عن معركة موهاكس Mohacs في منطقة مستنقعات الى الشرق مباشرة من الدانوب ، كان مهـولا ، فقـد كان انتصـار سليمان في موهاكس هو أعظم انتصـاراته • فقـد تحطم سلاح الفرسان المجرى امام كتائب الانكشارية التى تشكل قلب الجيش العثمانى ، بعـد أن زعزعتهـا اجنحة الجيش العثمانى المتحركة واثخنتها نيران المدفعية • وقد قتـل فى هذه المعركة عدد كبير من الزعماء الاقطاعيين المجريين ، وبعد الهزيمة المجرية الشنيعة لم يواجه العثمانيون مقاومة منظمة لاعتراضهم ومنعهم من التقدم الى بودا Boda وبعـد نهب بودا ، عاد سليمان الى بلجراد • وتحطمت المجر وراح العثمانيون يتطلعون للولايات الوسطى فى المملكة ، كمنطقة جديرة بالنهب راقت لارادة الفاتح •

وفى نـوفمبر سـنة ١٥٢٦ ، انتخب البـاقون من الأرستقراطية المجرية ، الرجـل القـوى ، زابوليا لشـغل العرش المجرى الشاغر ، ولـكن زعما بأحقيـة تاج المجر سرعان ما ظهر فى نفس الوقت ، من قبل أرشيدوق النمسا فرديناند ، أخى الامبراطور شارل الخامس • وكان ترشيح فرديناند لعرش المجر ــ المتوقع على الاقل ــ قد كرس موارد أعظم الأسرات الأوربية الحاكمة ــ الهبسبرج ــ لاستعادة المجر • وانسحب زابوليا من بودا أمام قوات الهبسبرج ، وأثناء انسحابه ران الى سيمان القانونى ، طالبا مساعدته ، وقد سانده سليمان بالفعل ، كحاكم ــ اى زابولى ــ ضعيف ، وليكون ألعوبة ورئيسا لدولة تابعة أو دولة تدور فى فلكه، تشكل بالنسبة للامبراطورية العثمانية مركزا دفاعيا وموردا خصبا للضرائب • وفى سنة ١٥٢٩ تقدم السلطان صعدا فى الدانوب للمرة الثالثة لتنصيب زابوليا ، ملكا فى بودا، ولحصار فينا عاصـمة فرديـنانـد • وقد نجح السلطان فى تحقيق الهدف الأول ، أما الهدف الثانى فقد انتهى بالفشل، وذلك أن القدرات العسكرية العثمانية فى كفايتها لم يكن

فى وسعها أن تنجز فى موسم واحد الرحلة الطويلة الى فينا وتتجشم مشقة حصارها • وعلى كل حال كان سليمان لم يعد صفر اليدين فمعظم مملكة المجر القديمة قد أصبحت الان معترفة بحكم صنيعته زابوليا •

ولقد كان رفض فرديناند التخلى عن دعواه فى عرش المجر ، دافعا للعثمانيين لمزيد من الغارات فى سنة ١٥٣٢ ، لكن فى هذه السنة ، كشفت المقاومة النمساوية اليائسة جهودها ، للتصدى للسلطان والحيلولة بينه وبين تحقيق مزايا توسعية ذات قيمة ، الا أن ذلك كان فى مقابل ثمن باهظ ، اذ قامت الجيوش العثمانية اهتياجة بتخريب سلافونيا Slavnia وستيريا Styria • ووفقا لبنود الهدنة التى عقدت فى العام التالى (١٥٣٣) احتفظ فرديناند بالمناطق المجربة التى كانت فى حوزته والتى لم يكن قد فقدها ولكنه اعترف بزابوليا حاكما على الجزء الأكبر من مملكة المجر • وفى الثلاثينات من القرن السادس عشر ، كان الانشغال بالبحر المتوسط يفوق الانشغال بعمليات البلقان ، الا أن جيشا كان قد أعده النمساويون لمعاقبة القائمين بالغارات المتصلة على كارنثيا Carnithia ، قد واجه هزيمة ساحقة على يد القادة العثمانيين المحليين ، الذين مزقوه شر ممزق دون الاستعانة باسطنبول • وفى العام التالى أحكم سليمان قبضته الادارية على الولايات التابعة له مثل بيساربيا Bessarbia ومولدافيا Moldavia وهو بهذا يكون قد أمن حركة سهلة لحلفائه تتر القرم

وعند وفاة زابوليا فى سنة ١٥٤٠ ، جدد فرديناند دعواه بأحقيته فى كل مملكة المجر ، لهذا قرر سليمان دمج كل المجر فى ممتلكاته وأصبحت بودا هى العاصمة التى حددها سليمان لتكون مقرا للبكربك الجديد فى سنة ١٥٤١ • وجرت معارك فى عامى ١٥٤٣ ــ ١٥٤٤ ، حصل سليمان فى أعقابها على حصون وقلاع نهرية ، خاصة فيزيجراد Visegrad وجرين Gran اللتين كانتا تسيطران على الفولد الكبير والفولد الصغير المرات بين Great & little Alföld

وقد سعى فرديناند للحصول على الهدنة ، ونجح فى ذلك سنة ١٥٤٥ ، وأعقب الهدنة توقيع معاهدة ١٥٤٧ . وتخلى فرديناند عن دعاوية كلها فى المجر ، خلا جانبا صغيرا من مملكة المجر السابقة كان يحكمه بالفعل ، وقد وافق فرديناند على دفع الجزية للسلطان مقابل حكمه لهذا الجزء . وكان هذا اعترافا بأن قبضة العثمانيين على فتوحاتهم المجرية لا يمكن زحزحتها ، على الأقل حتى حدوث اختلال كبير فى موازين القوى العسكرية . وكان الوجود العثمانى فى المجر ، بمثابة حماية عسكرية أكثر من كونه استعمارا . فقد كان العثمانيون ينتزعون الضرائب انتزاعا عن طريق موظفيهم الرسميين المقيمين فى قلاع المدن . لقد قننت ونظمت الحكومة العثمانية عمليات النهب . وفى المناطق البعيدة عن نطاق المستوطنات العسكرية ، ظل الاقطاعيون المجريون الوطنيون يمارسون سيطرة على عقاراتهم ، وظلوا يتمتعون فى ظل الحكم العثمانى ، بحرية العمل والتصرف على المستوى المحلى ، مما جعلهم كطبقة — على غير المتوقع — يحتلون مركز الصدارة فى أى معركة دفاعية ضد أى عدوان خارجى . فقد كانت ولاءاتهم الأساسية قد اتضحت عندما ايدوا زابوليا الذى كان يحكم كتابع لسليمان أكثر من تأييدهم لفرديناند ، عندما طالب بعرش المجر . كما أن التسامح الدينى الذى مارسه الفاتحون العثمانيون ، اذا ما قورن بما تمارسه القوى المسيحية ، قد قوى من موقف العثمانيين على المدى القريب ، على الأقل ، ذلك أن الانتشار السريع للبروتستنطية فى أجزاء المجر التى يحتلها العثمانيون ، خلال السنوات المتبقية من القرن السادس عشر ، جعل من غير المحتمل أن يهب أولئك النبلاء الذين تحولوا للبروتستنطية لمعاونة الهبسبرج الكاثوليك . وفقد الهبسبرج مع الزمن أى أمل فى استعادة قلب مملكة المجر المفقود ، لهذا اقتصرت سياسة الهبسبرج على سلسلة المحاولات لاقتطاع ترنسلفانيا من النظام العثمانى ، باعتبارها منطقة حدودية ، فمارست المكائد وأثارت الفتن منذ سنة ١٥٥١ حتى سنة ١٥٦٢ ،

الا أن فرديناند عاد فاعترف بمعاهدة سنة ١٥٤٧ • وبعد موت فرديناند فى سنة ١٥٦٤ ، عاود خليفته مكسمليان الثانى ، أعماله الهجومية على ترنسلفانيا • غير أنه مما مكن للعثمانيين فى هذه المنطقة ان سليمان قد زحف على المجر فى حملة أخيرة سنة ١٥٦٦ ، ورغم أن هذه الحملة قد توقفت بموت سليمان الا أنها أكدت استمرار الوضع القائم Status quo رغم صعوبته • وفى أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر ، كان العنف وسيلة لتعبير الطرفين ، العثمانى والنمساوى ، من خلال سلسلة من الحروب الطويلة غير الحاسمة النتائج فى الفترة من ١٥٩٣ الى ١٦٠٦ • ولكن — لاعتبارات عملية — دخل الوضع فى البلقان مرحلة ركود منذ أربعينات القرن السادس عشر ، وقد أكد على ذلك الركود ، أحداث الخمسينات والستينات من ذلك القرن نفسه • وكانت قضية الهبسبرج قد ضعفت بسبب الخلافات الأسرية وتفجر الصراعات الدينية والسياسية خلال حرب الثلاثين عاما ، كما كانت الامبراطورية العثمانية ، فى نفس الوقت ، قد عكفت على أمورها الداخلية واعداد حملات عسكرية لمواجهة مشاكل فى الشرق ، كحملة استراخان Astrakhan (١٥٦٩ — ١٥٧٠) والعداء مع فارس (١٥٧٧ — ١٥٩٠)، أما الزحف العثمانى الكبير على البلقان فى القرن السادس عشر ، فكان قد بدأ يتردى فى سلسلة حروب حدود غير حاسمة ، كانت تتخذ شكلا محدودا ، كما أنها كانت فى تاريخ المنطقة فترة حالكة السواد •

البحر المتوسط :

لعبت العمليات خلال القرن السادس عشر ، للمرة الأولى ، دورا هاما من خلال الهجوم العثمانى والدفاع الأوروبى ، فقد كان سقوط القسطنطينية بما فيها من دور صناعة سفن ، وما يهيئه موقعها من الوصول لموارد الأخشاب فى اليونان والبحر الاسود ، عاملا عمل على تطوير العثمانيين

كقوة بحرية • كما كان فتح سوريا ومصر ، قد مد من سواحل الامبراطورية العثمانية ، واضاف اليها موانىء كبرى ، وأدخل فى تبعيتها أعدادا كبيرة من السكان ، لهم تراثهم وخبراتهم فى مجال البحر • وبمجرد استقرار العثمانيين فى مصر ، مدوا أيديهم للدخول فى علاقات وثيقة الى أبناء دينهم القاطنين فى مجموعة دول القرصنة على طول الساحل الافريقى الشمالى الممتد من طرابلس الى مراكش ، وقد قدم سكان الشمال الأفريقى هؤلاء فنيين بحريين وقادة قراصنة لامعين •

وعلى الجانب المسيحى ، شهد البحر المتوسط ، توسعا شبيها ، خلال معارك السيطرة على ايطاليا ، من قبل فرنسا واسبانيا ، فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر • فقد تحول جند البر المحترفون الى محاربين بحريين أثناء ذلك الصراع (بين فرنسا واسبانيا) ليقدموا الحماية والتغطية للجيوش البرية المتحركة على طول السواحل ، الى جانب اضطلاعهم بنقل سبائك الذهب والامدادات للجيوش وقيامهم بأعمال التجسس وكل هذه الأعمال كانت تمثل عصب حركة الاستعماريين الفرنسى والاسبانى ، ومصدر قوتهما • ولعل سيرة أندريا دوريا الجنوى تقدم لنا أفضل نموذج لهذا الاتجاه ، ففى البداية كان أندريا دوريا جنديا مرتزقا بريا ، ولم يوجه اهتمامه شطر البحر حتى سنة ١٥١٢ عندما بلغ السادسة والأربعين حيث عمل أمير بحر (أدميرال) لحساب فرنسا ، ثم لحساب نشاطاته فى الصراعات البحرية بين المسلمين والمسيحيين فى المتوسط ، وكان له دور قيادى فيها •

وقد بدأ دوريا نشاطه البحرى بقوة خاصة مكونة من سفينتين ، ثم زاد عددها بعد ذلك لتصبح ١٢ سفينة مكونا بذلك أسطولا ، ثم انفصل بأسطوله عن فرنسا ليعمل لحساب أسبانيا ، وكان هذا فى ١٥٢٨ • وفى سنة ١٥٣٧ قاد أسطولا من ٤٥ سفينة أسبانيه و ٨٠ سفينة بندقية و ٢٦

سفينة يابانية ، ضد العثمانيين واستمر حجم العمليات البحرية يتصاعد خلال منتصف القرن السادس عشر . وفى ليبانتو كان الأسطول العثماني يتكون من ٢٣٠ قطعة ، بينما كان الأسطول المسيحي مكونا من ٢٠٨ . وعند اللقاء غرقت ٨٠ قطعة بحرية عثمانية وأسرت ١٣٠ ، ورغم هذا فقد علق السلطان قائلا « لم يزد الكفرة على نتف شعيرات من لحيتي ، وستنمو مرة أخرى » وسرعان ما عوض العثمانيون خسائرهم وقد كان انشاء السفن وتزويدها بالرجال واعدادها وبأعداد كبيرة ، يلقى عبئا ماليا وتكنولوجيا ثقيلا على القوى المتنافسة . فبعد سنة ١٥٧٠ قلت كثافة حروب البحر المتوسط البحرية ، وذلك لأن القوى المتصارعة قد أدركت ان النتائج التي حصلت عليها لم تكن مساوية للمصروفات التي أنفقتها والموارد التي أهدرتها .

وكان استيلاء العثمانيين على رودس Rhodes في سنة ١٥٢٢ ، في العام التالي لسقوط بلجراد ، يعني أن سليمان (القانوني) عازم على مواصلة هجماته على صعيدين ، جهة البلقان ، وجهة البحر المتوسط ، معا .

وقد أبقى العثمانيون على بعض المراكز التجارية الأوربية في شرق المتوسط ، كمراكز البندقية في قبرص ، ومراكز الجنوبيين في شيوز Chios ، ولكن انسحاب فرسان القديس يوحنا من رودس الى قلعة جديدة في مالطا . كان ايذانا بانتقال زمام المبادرة من يد العالم المسيحي ، الى أيدى المسلمين ، في هذه الحرب الدينية . ولبرهة وجيزة ، بدا كما لو كان قصب السبق في البحر المتوسط سيكون من نصيب أوروبيين ففي سنة ١٥٣٢ قاد أندريا دوريا حملة أسبانية انقضت على المركز العسكرى العثماني كورون Coron في المورة ، الا أنه بعد ذلك بعامين تبحرت هذه الآمال المسيحية اذ أن خير الدين بربروسا حاكم الجزائر ، وأمير البحر والقرصان الأعظم ، قد تحرك بأتباعه الى اسطنبول ووضع نفسه تحت امرة السلطان ، وحتى وفاة

بربروسا فى سنة ١٥٤٦ ، كان يقود الحـزب الداعى الى العرب البحرية فى بلاط السلطان ، مرجحا بذلك اتجـاها جديدا للسياسة العثمانية ، عماده التوجه البحرى ، وقد بدأ بربروسـا فى دوره الجـديد ، كأمير بحـر عثمـانى ، فى الاسـتيلاء على تونس من حاكمهـا المحلى الذى كان صنيعة للأسبان ، وقد قاد شـارل الخامس بنفسـه عمليـة بحرية لاستعادة السيطرة على تونس فى سنة ١٥٣٥ ، ورغم أنهـا كانت حملة جادة ، الا أن بربروسا رد عليها بغارات وحشية على سواحل أسبانيا وجزر البليار قبل نهاية العام ، وضرب العثمانيون مرة أخرى فى سـنة ١٥٣٧ ، مهـاجمين المـدن الساحلية فى جنوب ايطاليا ، كما قاموا بمحاصرة كـورفو Corfu ــ وهى مستعمرة تابعة للبندقية ــ منطلقين من قواعد فى الأدرياتيكى وقد أدى التحالف السريع بين اسبانيا والبندقية والبابابوية ، خلال العام التالى ، الى وجود أسطول مسيحى كبير بقيادة أندريا دوريا ، وقد استمر هذا الأسطول يعمل فى نفس المياه التى يعمل فيها أسطول المسلمين ، مما أدى الى احتـكاك أسـطول دوريا بسـمن بربروسا خارج بريفيسا Prevesa عنـد فم خليـج ارتا Arta متجاهلا طلبات أتباعه ــ خاصة من البنادقة ــ الذين كان اهتمامهم الأول منصبا على تطهير الأدرياتيكى من القـوى المعـادية ، ولكن دوريا رفض أن يورط نفسه فى معركة حاسمة ، اذ عمد الى المناورات المحكمة والمناوشات • وقد تعرض دوريا برفضه دخول معركة حاسمة ضد الأسطول الاسلامى ، لنقد شـديد على نطاق واسع ، اذ اتهم باضـاعة فرصـة نادرة للهجوم على أسطول عثمانى صغير نسبيا ، كمـا أتهم بانه أسهم فى تدعيم أسطورة أن المسلمين قوم لا يقهرون ، تلك الأسطورة التى ظلت مسيطرة عـلى أذهان الأوروبيين حتى معركة ليبانتو ، كما أتهم بأنه أجبر جمهـورية البندقيـة بتصرفه هذا على تحمل سلسلة من الحروب الطويلة التى لم تكن قادرة عليها ، لالتماس السلام ، مما أفقدها مستعمرات ذات قيمة فى المورة وأرخبيل بحر ايجة • أما وجهـة نظـر

دوريا ، فهي أن غرضه الاستراتيجي كان دفاعيا لحماية ايطاليا من الهجوم أو الغزو ، كما أنه لم يكن متأكدا من قوى العدو الاحتياطية ، لهذا كان دوريا معنيا في الحفاظ على أسطوله ، ولا يستبعد المرء أنه كجندي لم يكن ممانعا في التضحية بمصالح البندقية من أجل مصلحة دول غربي المتوسط •

ولقد ظلت الجزائر هي القاعدة الرئيسية التي تنطلق منها الاغارات الاسلامية الاساسية ضد أسبانيا وايطاليا ، لذا فقد قاد شارل الخامس في سنة ١٥٤١ حملة لمحاصرة الجزائر واقتلاع جذور القرصنة منتهزا فرصة انشغال سليمان القانوني باعداد حملة لغزو المجر ، غير أن العواصف شتتت أسطول شارل الخامس وألحقت بالمشروع خرابا • وخلال الاعوام التي تلت ذلك ، كاد العثمانيون أن يعطلوا تماما الاستراتيجية الاسبانية القائمة على احتواء المد العثماني البحري ففي سنه ١٥٤٣ بعد ابرام التحالف التركي الفرنسي دمر بربروسا ريجيو Reggio ونيس Nice وهاجم سواحل كاتالونيا Calatonia وقضى الشتاء في طولون Toulon وفي ربيع سنه ١٥٤٤ قرر الاغارة على ميناءي تسكاني Tuscany ونابوليناتو Napolenato ولم تؤد وفاة بربروسا في سنة ١٥٤٦ الى فترة راحة لاوروبا المطلة على البحر المتوسط فقد استمر درغوث (ضراغوط) Draught الذى كان تابعا لبربروسا ، ومشمولا بحمايته ، في مهاجمة العالم المسيحي منطلقا من مواقعه في شمال افريقيا• فقد استولى درغوث على طرابلس في سنة ١٥٥١ ، واستمر حتى وفاته في مالطة سنة ١٥٦٥ في بث الرعب في ايطاليا وألبا وكورسيكا وكاتالونيا وجزر البليار • وقد جرد الأسبان حملةلاخراجه من طرابلس الا ان هدهالحملة قد انتهت بإندحار الجيش والأسطول الأسبانيين في جزيرة جربة في سنة ١٥٦٠ ، وعاد درغوث للعمل سريعا فحاصر نابلي خلال صيف سنة ١٥٦١ • على أن هذا النجاح التركي الفائق ، يجب ألا يحجب عن أعيننا الحقيقة القائلة بأن خطوط

المواجهة الطويلة في المتوسط كانت قد اعتراها التجمد الاستراتيجي Strategic stability ، وهي في هذا كانت مشابهة لخطوط المواجهة على أرض البلقان في كثير من الجوانب • لقد كان تجمد الموقف قد غدا ظاهرا للعيان، فمع كل الاندفاع، والنشاط اللذين كانا يوصف بهما غارات المسلمين ، فانهم لم ينجحوا في ايقاع الاضطراب واحداث الخلل في بنية الاستعمار الاسباني في البحر المتوسط ، ولم يستولوا على الجزر ذات الاهمية الاستراتيجية وهي صقلية ومالطة وكورسيكا ، كما لم يكن في وسعهم اطلاقا غزو ايطاليا •

وقد تحسنت الجهود الحربية الأسبانية في البحر المتوسط ، عندما انتقل العرش الى فيليب الثاني في سنه ١٥٥٦ اذ أن فيليب لم يرث تبعات أبيه الثقال في المانيا ، كما كان قد تحرر وانطلقت يداه بعد معاهدةكاتو كمبرسيس في سنة ١٥٥٩ ، التي خلصته من الصراع مع فرنسا • وفي سنة ١٥٦٠ بدأ فيليب برنامجا طموحا لانشاء أساطيل بحرية في أحواض السفن الايطالية والكاتالونية ، وكان بهذا أكثر منهجية ونظاما من أبيه ، وان كان أضيق منه أفقا • وقد تلقى فيليب الثاني عونا ماليا من البابوية لتحقيق هذا الغرض (انشاء أساطيل) وفي سنة١٥٦٢ اجتمع برلمان قشتالة في دورة غير عادية لتقديم مزيد من الدعم المالي لنفس المشروع •

وكانت أولى ثمار هذا التنظيم الجديد، هي توجيه ضربة للجزائر في وهران في سنة ١٥٦٣ ، ولكن الاختبار الحقيقي لهذه التنظيمات قد تجلى ناجحا أثناء حصار العثمانيين لمالطة في سنة ١٥٦٥ ، فقد اجتاحت القوات العثمانية الغازية الجزيرة ، لكن المدافعين نظموا المقاومة من خلال تمسكهم بقلاع قليلة حتى وصلت لهم حملة انقاذ من نابلي وصقلية وتمكنت من طرد الغزاة •

لقد عتم المؤرخون الغربيون على فهم طبيعة المراحل

الأخيرة للهجوم العثمانى البحرى على أوروبا فى القرن السادس عشر باصرارهم التقليدى على أن أهم مراحل ذلك الهجوم هو النصر المسيحى فى ليبانتو فى سنة ١٥٧١ ، والذى آذن بتحول فاصل فى ميزان القوى البحرى فى البحر المتوسط ، ولكن ذلك النصر لم يحقق شيئا من هذا القبيل . فقد اندلعت الحرب باستيلاء العثمانيين على قبرص من البنادقة فى سنة ١٥٧٠ ، اذ فى العام التالى قاد دون جوان صاحب النمسا أسطولا مسيحيا موحدا أوقع الهزيمة بقوة عثمانية كانت أكبر من تلك التى لاقت الهزيمة فى ليبانتو، وكانت هذه الهزيمة العثمانية بالقرب من فم خليج كورنث Cornith الا أن العثمانيين احتفظوا بقبرص وأعادوا بناء أسطولهم بسرعة ، وأجبروا البندقية على الانسحاب من الحلف المقدس فى سنة ١٥٧٣، وفتحوا تونس سنة ١٥٧٤ . فالمعنى الحقيقى لمعركة ليبانتو انها انهت مرحلة العمليات البحرية الكبرى والطموحة فى البحر المتوسط ، فقد بات واضحا أن تكاليف مثل تلك العمليات لا تطاق ، فالامبراطوريتان الأسبانية والعثمانية ، كانتا قد بدأتا تنشغلان باحداث بعيدة عن البحر المتوسط . لذا بدءا مفاوضات السلام فى سنة ١٥٧٧ وعقدا هدنة رسمية فى سنة ١٥٨١ وجددا هذه الهدنة فى سنة ١٥٨٤ ، وأعادوا تجديدها كرة أخرى فى سنة ١٥٨٧ . ومع هذا لم تتحرر أسبانيا تماما من الضغط الاسلامى ، فهدير مشكلة المسلمين الأسبان فى الداخل ، وأعمال السلب والنهب التى كان يقوم بها قراصنة شمال أفريقيا فى القرن السابع عشر ، كل أولئك كان يشكل عبئا على أسبانيا . وعلى أية حال ، فبعد سنة ١٥٧٠ بدأ مسرح البحر المتوسط يتوارى فى خلفية التاريخ ، كما حدث لمسرح البلقان .

الهجوم العثمانى : موازنة النجاح الفشل :

لقد كان للحروب البحرية والبرية التى طال أمدها ــ والتى سجلناها فى الصفحات السابقة ــ نسق عام ، كان

واضحا وممثلا فى النجاح المبدئى الـزاهر الذى أحـرزته الجيوش العثمانية ، ثم تردت هـذه الحـروب فى موقف لم يستطع فيه أى جانب من الجانبين المتصارعين ، أن يحقق مزايا ومكاسب حاسمة ، وظل الوضـع كذلك الى أن أعاد العثمانيون هجومهم على أوروبا فى منتصف القرن الســابع عشر ، اذ انتعشت أعمال القرصنة والسلب والغارات عـلى مواجهة أعمال الأساطيل والجيوش الكبيرة ٠

ماذا يعنى اتجاه الأحداث بهذا الشكل ؟

لقد كان نجاح العثمانيين فى بداية الأمر ، ناتجا عن مزامنة الكفاءة العثمــانية ، للفرقة الأوربية ٠ ففى القرن السادس عشر كان العثمانيون قد أضـافوا الى حصـائصهم القتالية كشعب بدوى ، مهارة ودقة فى التنظيم العسكرى ، لم يكن لدى أوروبا ما يضاهيها حتى القرن السابع عشر ٠ ويمكننا أن نستشهد بمعركة سليمان القانونى فى المجر فى سنة ١٥٤٣ ، باستخدامه قوافل الجمــال وسفن الأنهـار ، ومزجه الماهر بين المدفعية والمشاة النظاميين وغير النظاميين ووحدات الخيالة واسناد القيادة التكتيكية الى عناصر محلية تعرف ظروف الأرض ٠ وقد تمت هذه العملية على بعد مهول من قواعد العثمــانيين فى أدرنة واسـطنبول ٠ وفى هذا النظام العسكرى ، كان المشاة يشغلون مركز القلب وكتائب النخبة العسكرية ممثلة فى الانكشارية ، وكانت الانكشارية فى أساسها مكونة من أطفال البلقـان الذين حصـل عليهم العثمانيون كضريبة أطفال (دفشرمة) ، ويرجع انضباط الانكشارية الى وضـع أفرادها كعبيـد ، كما ان اخلاصهم وتفانيهم كان يرجع الى أن مهنتهم العسـكرية كانت تدر عليهم كثيرا نتيجة الغنائم والاسلاب بالاضافة الى أن منعهم من الزواج ، واباحة ممارسـة التجـارة لهم ، قد قوى من دوافعهم القتالية ٠ وقد ظل هذا حتى أواخر القرن السادس عشر ٠

لقد كان هذا التنظيم العسكرى المرعب، يوجه بكفاءة ،

أكثر من أى تنظيم عسكرى معاصر له فى أوروبا • فنظام العبودية الذى كان دعامة الأجهزة العسكرية والادارية ، كان قد فتح المجال أمام الكفاءات وسمح للقادة الناجحين بالترقى السريع والوصول إلى القيادة العليا • كما كان عدم وجود فاصل بين السلطتين ، العسكرية والادارية ، وتمركز السلطة العليا فى يدى السلطة ، كل أولئك قد قلل من فرص الخلافات وتبادل الاتهامات فى التنظيمات العسكرية والادارية العثمانية ، بينما كانت هذه الخلافات وتبادل الاتهامات ، قد أثرت تأثيرا سيئا فى الاجراءات والممارسات العسكرية الأوروبية • فالحكام العثمانيون فى القرن السادس عشر ، قلما كابدوا جهودا مثل تلك التى جابهها فيليب الثانى فى محاولته للحفاظ على تماسك الحلف القائم بين أسبانيا والبندقية والباباوية فى الفترة من ١٥٧٠ الى ١٥٧٣ ، ذلك الحلف الذى كان زاخرا بالصراعات الداخلية وانعدام الثقة •

وكانت المؤسسة العسكرية العثمانية تسندها موارد هائلة ، وكان التفوق المستمر فى الموارد البشرية هو العامل الأعظم فى النجاح العثمانى • لقد كانت السلطة المطلقة التى يتمتع بها السلطان ، بالاضافة لضعف الروابط الأسرية فى المجتمع العثمانى ، والفرص التى كانت متاحة خلال القرن السادس عشر لكسب الغنائم والاسلاب من الجيران المسيحيين الضعفاء فى البلقان والبحر المتوسط ، كل أولئك كان ضمانا لتعبئة جيوش عثمانية ، كان جلدها وحماسها يضمنان تفوقها النوعى بالاضافة لتفوقها العددى • لكل هذه العوامل مجتمعات كان تفوق العثمانيين على أعدائهم الأوربيين • وزاد من فعاليات هذه المزايا وجلاها ، ما كان فى العالم المسيحى من انقسام وعدم كفاءة •

فكتائب فرسان أوروبا الشرقية — والتى كانت ثقيلة الحركة ويعوزها النظام والتى سادت أوروبا الشرقية فى القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر — كانت تواجه

صعوبات دائمة اذا ما واجهت القوات العثمانية الخفيفة والمعبأة والمحمولة ، فكما لاحظ الرحالة الانجليزى موريسون

« ٠٠ فمزايا الخيول العثمانية أنها سريعة فى المطاردة وفى الكر والفر ، وهى بهذا تتفوق على الخيول الألمانية التى كانت تعجز عن الفرار نجاة حين وقوع الخطر ، على الرغم من صلابتها المعهودة فى التصدى للهجمات » ٠

وللعثمانيين مزايا أخرى فى الحرب من السهل ملاحظتها، الأمر الذى جعل الألمان عاجزين عن مواجهة قوات العثمانيين الفخمة » ، لقد كانت المفاهيم العامة التى تحكم العمليات العسكرية ضد العثمانيين مشوبة بصورة خطيرة بذكريات وتراث عصور الفروسية والحروب الصليبية ، وقد ظل الحكام الأوربيون يغذون الخطط العدوانية على نطاق واسع ، مثل ما أعلنه ليو العاشر فى سنة ١٥١٨ من تنظيم حملة عالمية تضم كل قوى المسيحية ضد سليم ، عظيم العثمانيين ٠ وفى هذا دلالة على أن الحكام الأوربيين ، رفضوا التعلم من تجربة الحروب الصليبية المدمرة فى نيقية Nicopolis فى سنة ١٣٩٦ ٠ وقد مال رجل دولة يابس الرأس على نحو ما ـ وهو شارل الخامس ـ لنفس الحماس ، الا أنه نتيجة تجربة طويلة ومريرة لحرب غير ناجحة ضد العثمانيين ، نتج عنها فى القرن السادس عشر، ظهور استراتيجية مسيحية أكثر واقعية وميلا لاتخاذ مواقف دفاعية ٠ وتمثلت هذه الاستراتيجية فى نظام التحصين الذى أوجده فرديناند الأول فى بعض مناطق المجر التى كانت لا تزال تابعة للهبسبرج ٠ وقد أدى طول فترة الخلافات السياسية الى افشال معظم المحاولات الاوربية لتنظيم عمل موحد ضد الجيش العثمانى ٠ فبعد سقوط القسطنطينية وجدنا انياس سيلفيوس Aeneas Sysvius ، والذى أصبح بابا بعد ذلك باسم بيوس الثانى Pius يأسى على الخلاف الواقع بين العالم المسيحى بعضه والبعض الآخر ، فيكتب واصفا هذا العالم المسيحى بقوله :

« انه جسد بلا رأس ، جمهورية بلا قانون ولا قضاة ·· فلكل دولة (ولاية) أمير منفصل ·· لكل أمير مصالح منفصلة ·· من يجعل الانجليز يحبون الفرنسيين ؟ من سيوحد الجنوبيين مع أهل أراجون ؟ من يصلح بين الألمان وكل المجريين والبوهيميين ؟ فاذا ما قدت جيشا صغيرا ضد الترك (العثمانيين) فستهزم بسهولة ، وأما اذا قدت جيشا كبيرا فسيقع بسرعة فريسة للفوضى والتخبط ·· » ·

ولم يشهد القرن السادس عشر تغييرا فى وضع أوروبا الى الأفضل ، كما اتضح من الصراع بين الفئات فى المجر فى سنة ١٥٢٦ ، وكما اتضح من مقاومة الأمراء الألمان للامبراطور شارل الخامس ·

وقد انعكست الخلافات السياسية فى الصراع الاجتماعى، فقد كان التحلل الاجتماعى الذى أدى لتسليم الصرب الوسيطة أمام الزحف العثمانى ، هو نفسه التحلل الاجتماعى الذى كان سمة من سمات المجر فى القرن السادس عشر · وانه لأمر ذو مغزى أن ثورة الفلاحين المجريين فى سنة ١٥١٤ م كانت فى الأصل تخطيطا لحرب صليبية ضد العثمانيين · وفى عشيه معركة موهاكس كتب السفير البابوى (القاصد الرسولى) عن أحوال مملكة المجر قائلا : « الكراهية تسود بين المقاطعات ، وتتفشى الحاجة والعوز ، وان الرعايا المجريين سيقومون بثورات مدمرة ضد النبلاء اذا ما وعدهم السلطان بالحرية » فعادة ما كان السكان من الفلاحين سواء فى أوروبا الدانوبية أم فى مستعمرات البحر المتوسط التابعة لجمهوريات ايطاليا البحرية ينظرون للعثمانيين كمحررين · فلم يحدث فى شيوز Chios التابعة لجنوة ، ولا فى قبرص التابعة للبندقية — عندما اجتاح العثمانيون الأولى فى سنة ١٥٦٦ والثانية فى سنة ١٥٧٠ — أن واجه الفلاحون الأورثوذكس ، العثمانيين بعداء أو مقاومة ، ولاهم ، أيدوا حكم الطبقة الحاكمة الايطالية ،

التى كانت تختلف معهم لغة ودينا (١) ، والتى كانت — أى الطبقة الحاكمة الايطالية ، جنويه ام بندقيه — تستخدم كل براعتها فى استغلال هؤلاء الفلاحين الاورثوذكس .

ومما زاد الخلافات الاجتماعية والسياسية المتمثلة فى أوروبا عمقا ، ظهور الخلافات المذهبية الدينيـة المصحوبة بالتعصب وضيق الافق ، فقد زامن الهجوم العثمانى عـلى أوروبا فى القرن السادس عشر ، ازمة الاصلاح الدينى التى زلزلت اوروبا زلزالا شديدا . وقد كان البابوات ، واحدا فى اثر آخر ، ينتهزون الفرص للدعوة الى العالم المسيحى ، كوسيلة لاستعادة الوحدة المسيحية ، الا ان حركة الاصلاح الدينى سرعان ما ظهرت متداخلة مع العوامل السياسية ، فوضعت عقبات أمام نجاح هذا الغرض البابوى (وحـدة العالم المسيحى) ، فقد كان البلقان منذ امد طال ارضـا خصبه للهرطقة (٢) ، اذ ترعرعت فى أنحائه عقائد كعقائد البوجوميـل Bogomils فى البوسنة الوسيطة ، وصربيـا ومقدونيا ، اذ كان خلاف أصحاب هذه العقائد مع سلطات الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، عاملا مسهما فى تيسـير مهمة الفتوحات العثمانية فى القرن الخامس عشر ، فى هذه المناطق .

وقد أدت الانتصارات العثمانية فى القرن السادس عشر الى تعميق الخلافات الدينية بين الاوروبيين الشرقيين ، فقد أصيبت الكاثوليكية المجرية بضربة قاضية بسبب نكبة واقعة موهاكس Mohacs حيث قتل فى المعركة سبعة أساقفة من أصل ١٦ أسقفا ، كانوا فى مملكة المجر كلهـا . وقد استغل البروتستنط هذا الموقف ، كما استـغلوا التسـامح الدينى فى رحـاب العثمـــانيين الذين اعتبروا المبشرين البروتستنط اخوانا تجمعهم بهـم عقيـدة تحطيم الأوثان

---

(١) يعنى مذهبا (المترجم) .

(٢) يعنى الخارجين على الكاثوليكية — (المترجم) .

Iconodasts واتخذوا طريقهم الى المناطق العثمانية المفتوحة يبثون دعوتهم ٠

والواقع أن انتشار البروتستنطية لم يؤد الى تقسيم أوروبا في الوقت الذى كان فيه الضغط العثمانى فى ذروته، فحسب ، وانما ادى هذا ايضا الى تقليل فرص المسيحيين فى استعادة المناطق التى فقدوها ٠ فترنسلفانيا على سبيل المثال كانت تربة صالحة للمنافسة بين وجهات النظر المسيحية المختلفة ، الكاثوليكية ، واللوترية ، والكلفنية ، والحركة المناهضة للتثليث Uniterians ، فكل هذه المذاهب تحصنت فى ترنسلفانيا واتخذتها موطنا ٠ فطبقة ملاك الأراضى البروتستنط ، كانت تنظر ببرود الى فكرة تحريرها من التبعية للسلطان العثمانى من قبل النمسا الكاثوليكية ابان الحركة المناهضة للاصلاح الدينى ، بل فى بعض الأحيان ، كانت طبقة الملاك البروتستنط هذه تقاوم فكرة تخليصها من الحكم العثمانى على يد قوى كاثوليكية ٠

وعلى أية حال ، فرغم الانتصارات العثمانية فى المرحلة الأولى ، والتى نتجت عن هذه الظروف المتشابكة ، الا ان الحروب التى طال أمدها فى القرن السادس عشر ، قد وصلت استراتيجيا الى طريق مسدود ٠ ففى البر ، كان الوضع ينذر بفشل عثمانى بعد انتصارهم فى موهاكس فى سنة ١٥٢٦ ، وتجلى هذا فى محاولتهم الفاشلة للاستيلاء على فينا فى سنة ١٥٢٩ ٠ وحتى بعد نجاح العثمانيين فى اخضاع وسط المجر للحكم العثمانى المباشر خلال الأربعينات من القرن السادس عشر ، كان سليمان القانونى غير قادر على احراز مزيد من الانتصارات الكبرى أو التقدم تقدما ملموسا وكانت حملته الأخيرة فى سنة ١٥٦٦ قد تمخضت ــ حقيقة ــ على طول حدود البلقان ــ عن خطوط ثابتة غير قابلة للتغيير ٠

ويمكن تفسير ذلك فى أن العقبات الجغرافية والمقاومة المسيحية كانت أكبر من أن تذلل من قبل الامكانات

التكنولوجية في ذلك العصر • وقد كانت ضخامة الجيوش العثمانية تخلق مشكلة تموين ثقيله الوطاة ، فقد كان سلاح الفرسان يمنع من دخول بعض معارك الشتاء ، لنقص الاعلاف وعدم ملاءمه طبيعه الارض في الشتاء للقوات العسكرية المحمولة • ولهذا كان العثمانيون معيدين بمعارك الصيف التي كانت عادة تمتد من منتصف ابريل الى اخر أكتوبر • فالمجر التي كان الوصول اليها من اسطنبول ، يستغرق في الظروف العادية ما بين ٩٠ الى ١٠٠ يوم ، كانت تمثل اقصى حدود القدرات العسكرية العثمانية • وكانت الصورة ستكون مختلفة فيما اذا كانت المجتمعات الأوربية التي واجهها العثمانيون بعد معركة موهاكس ، هشة ومنقسمة بنفس الدرجة التي كانت عليها مجتمعات البلقان — ولو كان هذا حادثا ، لترتب عليه فتح سريع واستغلال سهل • فقد وجد العثمانيون صعوبات متزايدة في احراز أى تقدم في مواجهة عمق ثقافي ومجتمع متطور متماسك بفضل ولاءات دينية ومؤسسة سياسية ضاربة في القدم في سهول مارشفلد Marchfeld حول فينا • فقد اظهر الاوروبيون هنا رغبة متعاظمة في المقاومة وجلدا عليها ، أكثر مما فعل ضحايا العثمانيين في القرون الخوالي • وقد وجدت المقاومة تعبيرا في اعتلاء فرديناند لعرش المجر في سنة ١٥٢٦ • وخلال الثلاثينات من القرن السادس عشر ، أسس فرديناند في الجزء المجرى الذى كان خاضعا للهبسبرج نظام تحصينات عميقا ذا تأثير رغم عدم تطوره ، كما قدم نظام الهبسبرج الرشاوى والعون المالى للجرينزر واسكوكرس سكان الحدود في سلافونيا Slavonia وكرواتيا Croatia وكانوا غلاظ أكباد نهابين سلابين ، وكان الهبسبرج يدفعونهم (أى هذه الجماعات) ليقوموا بغارات على العثمانيين عبر الحدود ، كما شاركت هذه العناصر في أعمال القرصنة ضد العثمانيين أيضا • وقد أدت هذه الاجراءات التي خطط الهبسبرج لها، الى عرقلة تقدم القوات العثمانية ، وايقافها في النهاية عندما كانت القوات

العثمانية تحارب بأقصى حدود امكاناتها العسكرية ٠

وفي البحر المتوسط حدث ركود مماثل ، أنهى فترة من النجاحات العثمانية الباهرة التى بدأت فى سنة ١٥٢٠ وبلغت ذروتها فى الستينات والسبعينات من القرن السادس عشر ، وتأكدت هذه النجاحات وتوجت بمفاوضات السلام فى سنة ١٥٧٧ ، وهدنة سنة ١٥٨١ ٠ وهكذا تمركزت السيطرة العثمانية فى شرق البحر المتوسط وفى الجزائر وطرابلس وتونس ، التى كانت بمثابة مراكزها وممتلكاتها الرئيسية فى شمال أفريقيا ٠ وفى المقابل ، كانت السيطرة الأوربية فى البحر المتوسط الغربى ذات عزم أكيد لحماية ايطاليا وصقلية ومالطة واتخاذ مواقع دفاعية ضد أعمال القرصنة ، وكان العثمانيون غير قادرين على مد سيطرتهم أكثر تجاه الغرب ، ما دامت الملكية الاسبانية قادرة وراغبة فى التضحية ٠ ولقد نشأ هذا الركود فى المواجهة البحرية ، من أسباب شبيهة بتلك التى أدت للركود فى جبهة البلقان ٠ فالسيطرة الكاملة على البحر المتوسط كانت بعيدة عن متناول الامكانات التكنولوجية والادارية لأى من المجتمعات المطلة عليه ٠ ففى خلال شهور الشتاء كانت التحركات البحرية الكبرى ، وكذلك التحركات العسكرية البرية الكبرى ، من الأمور غير الممكنة ، فقد كان الشتاء يقطع سنويا وبشكل حاسم ، الطرق الموصلة بين استطنبول وقواعد القرصنة النائية ، كالجزائر مثلا ٠ فحملات القرصنة فى الشتاء كانت عرضة للتدمير الكامل ، فقد كان موسم الملاحة قصيرا جدا ، وكانت مشكلة المراصلات قائمة وكانت مشكلة التموين معقدة للغاية بحيث لم تكن كل هذه المشكلات تسمح بغزو وفتح المراكز الاستراتيجية النائية ٠ وعلى الجانب الأوروبى معقدة للغاية ، بحيث لم تكن كل هذه المشكلات تسمح بغزو وعلى الجانب الأوروبى كانت المقاومة غير منظمة — تماما كما كان الوضع على البر فى أوروبا الشرقية — ولكن بعد ظهور أندريا دوريا كأمير بحر يعمل لحساب أسبانيا منذ سنة ١٥٢٨ واجه العثمانيون مقاومة مقتدرة زاد من

فعاليتها وعنفها تلك الاصلاحات البحرية التى قام بها فيليب الثانى ، ونظام قطارات السفن المحمية الذى تم ادخاله فى العمليات فى محور برشلونة ــ جنوة فى السبعينات والثمانينات من القرن السادس عشر •

ولقد كان فشل العثمانيين فى الاستيلاء على مالطة مؤكدا لهذا الموقف (الوضع) فالموسم القصير المتاح (كان الأسطول العثمانى قد غادر اسطنبول فى ابريل ، وقد رفع الحصار فى سبتمبر) وقوة تحصينات الجزيرة ، والمساعدات الخارجية القادمة لدعم المدافعين عن مالطة ، من القواعد الاسبانية الامامية فى صقلية ــ كل أولئك جعل مالطة هى فينا البحر المتوسط •

الفصل الرابع

الأثر العثماني

يعتبر العثمانيون بوجه عام ، هم مصدر الازعاج الأساسي لأوروبا – وفقا للآراء التقليدية – في فجر التاريخ الأوروبي الحديث . ولم يتوقف هذا الازعاج بشكل مباشر، (أو لم تخف وطأته) الا بعد الهزيمة الحاسمة التى حاقت بالعثمانيين في ليبانتو ، ومهما كان الأمر ، فثمة وجهة نظر هامة مؤداها أن الوجود العثماني في أوروبا قد أسهم في تطور أوروبا بشكل عظيم ، كما أنه زامن هذا التطور . فبسبب خنق العثمانيين لتدفق التجارة الشرقية – خاصة تجارة البهار الهامة – وتحكمهم فى الطرق الرئيسية التى كانت تمر منها التوابل الى أوروبا خلال موانىء الشرق الأدنى ، كانوا هم (العثمانيون) المسئولين عن التوجه الأوروبي نحو الطرق الغربية ، ذلك التوجه الذى بدأ في القرن الخامس عشر الميلادى باكتشاف سواحل أفريقيا المطلة على الأطلنطى ، واندفاع البرتغاليين الى الهند وجزائر التوابل فى الشرق الأقصى ، واستعمار أسبانيا للعالم الجديد .

على أن هذا الذى ذكرناه آنفا ، لا يعد أمرا مقنعا اذا ما وضعنا فى اعتبارنا التتابع الزمنى وحده . فقد أبحر بحارة هنرى الملاح قاصدين الدوران حول أفريقيا حتى قبل أن يستولى العثمانيون على القسطنطينية . كما أن فاسكودا جاما قد وصل الى ساحل المالابار فى الهند ، وقام ألفونسو دى البوكيرك بنشر شبكة من المحطات التجارية المحصنة فى

الشرق الأقصى والمحيط الهندى ، قبل أن يستولى سليم الأول على المراكز التجارية فى سوريا ومصر ٠

وعلى هذا ، فمبادرات البرتغاليين الكشفية هذه ليست نتيجة تدخل العثمانيين فى تجارة البهار ، بل النقيض تماما هو الذى يقرب من الحقيقة فمنذ سنة ١٥٠٥ حتى ممات الملك عمانوئيل الأول King Manuel سنة ١٥٢١ ، نجد البرتغاليين ، انطلاقا من قواعدهم التى حصلوا عليها حديثا فى شرق أفريقيا وآسيا ، يعملون وفق سياسة مدروسة ، حققت فى المدى القريب نجاحا باهرا ، لاستئصال كل المصالح الاسلامية فى مضمار تجارة البهار ٠ ولقد كتب أحد البرتغاليين فرحا مهللا : « لقد حوصر محمد ، ولا يمكنه أن يتقدم أو ينساب أكثر مما فعل ٠٠٠ والحقيقة أنه سيحطم ويحطم ٠ ولا خيار له سوى ذلك » (١) ٠ ويمكن تفسير حملات العثمانيين وسياستهم التجارية بعد سنة ١٥١٥ ، كرد فعل فعال لهذه الأزمة ، فقد أتاح غزو سوريا ومصر فى عامى ١٥١٦ و ١٥١٧ للعثمانيين السيطرة على القاهرة والاسكندرية وبيروت ، وهى الموانىء الرئيسية فى الشرق الأدنى ، التى تمر تجارة التوابل عبرها ٠ كما أن الاستيلاء على جزيرة رودس سنة ١٥٢٢ كان ضروريا لتحقيق الأمن للممرات البحرية ، الموصلة بين هذه المراكز ، واسطنبول ٠ وكانت هذه الفتوح هى القاعدة التى اعتمدت عليها الحكومة العثمانية فى بذل جهودها فى العشرينات والثلاثينات فى القرن السادس عشر لجعل اسطنبول مركزا لتجارة التوابل تحت اشراف حكومى ، ثم يتم تصدير التوابل من اسطنبول الى أوروبا عبر نهر الدانوب ، بحيث يكون النقل عبر البحر المتوسط الى ايطاليا أقل أهمية ، وهذه السياسة تستبعد تجار التوابل السوريين والمصريين والبنادقة ، الذين

---

(١) يقصد محمدا (عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام) والمقصود هنا الاسلام ، وهذا التعبير يظهر مدى الحقد الكامن فى نفوس أعداء المسلمين ، ان رموز الاسلام التاريخية لازالت تؤرقهم ، ان محمدا (عليه الصلاة والسلام) فى رحاب ربه ، ولكن اسمه الطاهر ما زال فى ضمائرهم ــ (المترجم) ٠

كانوا هم المحتكرين والرابحين التقليديين من هذه التجارة •
وعلى هذا فان حركوب سليمان (القانونى) فى البلقــان ، بدءا من سنة ١٥٢٠ • ليس لها الا تفسير منطقى واحــد ، وهو أنها محاولات للسيطرة الــكاملة عــلى طرق التجــارة المؤدية الى داخــل ألمانيــا عبر نهر الدانوب ، فهــذا اذن لا يدل على تصميم العثمانيين على خنق تجارة البهار • وعلى هذا فان الفرضية القائلة بأن التوسع العثمانى هــو الذى أجبر الأيبيريين على الحركة الكشفية ، لا تصمد أمام نقاش ، لما ذكرناه من أسباب •

ومهما كان الأمر ، فاننا اذا أمعنا التفكير ، وجدنا أن كلا الرأيين المتعارضين ، قد يكونا مترابطين ، فقد كانت أوروبا الوسيطة مجتمعا محاصرا مأخوذا بتلابيبه ، وهدفا لضغط دائم لحوح ومكثف من قبل الشرق • ولم تؤد الحروب الصليبية الى خلاص أوروبا خلاصا دائما من حصار المسلمين، ولكن ما أن اقترب القرن الخامس عشر من نهايته حتى كان النشاط الاقتصادى الأوروبى فى انتعاش كبير ، وان كان فى غير انتظام ؛ فقد كان السكان فى ازدياد ، وكان الانتاج الزراعى يزداد كما بشكل ملحوظ ، وطورت صناعاتالنسيج والصناعات الاسـتخلاصية ، حيث وضــعت أفكار جــديدة موضع التنفيذ ، مما أدى الى تطوير آلاتها • لقد كانت كل العناصر الاقتصادية المصاحبة للتوسع الأوروبى ، جاهزة حاضرة فى أوروبا قبل حدوث هذا التوسع ، وفى الــوقت الذى شهدت فيه أوروبا كل هذا ، كان العثمانيون يؤسسون امبراطوريتهم فى البلقان ومناطق البحر الاســود والشرق الأدنى ، وكانت السيطرة الاسلامية على هذه المناطق تمتــد وتتوسع وتقــوى بحيث كان الأمل فى قهرها أملا كاذبا • لهذا كانت الفعاليات الاقتصادية الأوروبية مضطرة لايجاد مخرج ، وكانت هذه المحاولات الأوروبية لا تبشر بخير فى بداياتها ، لكنها ــ هذه المحاولات ــ ما لبثت أن عثرت عــلى مراكز انطلاق تدر أرباحا هائلة ، فى أقصى الغرب ، مــع تجنب قــدر من المواجهــة (المقــاومة) المرعبــة مع هؤلاء

العثمانيين ؟ فالعثمانيون اذن لم يدفعوا الأوربيين فى هذا الاتجاه ، ولكنهم — أى الأوربيين — أوجدوا لأنفسهم مخارج أخرى ، بعد أن أغلق العثمانيون المنافذ البديلة •

وليكون تحليل التأثيرات العثمانية على النهضة والاصلاح الأوربيين ، مفيدا ، يجب التركيز على الموضوعات الواضحة التى يمكن اثباتها ، والتقليل نسبيا من التعرض للموضوعات الخلافية أو التأويلية ، فثمة صعوبة تكمن دائما فى تحديد التأثيرات الخارجيـــة على تطـــور أى مجتمع أو مجموعة مجتمعات • وهذه الصعوبة تتمثل فى تحليل وفرز العمليات والعناصر ، الكامنـــة فى العامل المؤثر ، اذ تشتمل هـــذه العناصر وتلك العمليات على ما لا يمكن حصره من القوى ، وهذه العناصر والعمليات والعوامل التى لايمكن حصرها ، هى التى تصبغ طبيعة الأحداث ، ولايحاول هذا الكتاب أن يخوض خضـم العلاقات السـببية للأحداث ، ثم يفصلها ، ويعزلها ، كمـا تعـزل الخيوط بعضها عن بعضها الآخـر ، فكل مافى الأمر أن مناطق بعينها ، بدا فيها الأثر العثمانى بصورة جلية ، وتلك سنفرد لها نقاشا •

فالتطـورات فى كل منطقة من هـذه المنـاطق المتـأثرة بالعثمانيين ، نتجت عن نفس المشكلة أو الأزمة • وهـــذه المشكلة أو الأزمة هى تهاوى الحدود بين المسيحية والاسلام تحت ضغط العثمانيين • ونحن لا نقصـد بالحدود هنـا ، خطا على خريطة أو أرض أو منطقة ، وانما نقصد المنطقة الانتقالية بين الثقـافات المختلفـة أو الأبنيـة الاجتماعية المتباينة • ففى فترات الاستقرار والتوازن لا تنظر الشعوب باهتمام كبير الى هذه الحدود ، ولكن الاضطرابات المتتاليـة على شريط الحدود ، بالمعنى الذى أسـلفناه ، تجعـل عدم الاستقرار فى هذا الشريط الحدودى بمثابة عامل تهدئة ، ذلك أن هذه المنطقة الحدودية تمنع حـدوث مواجهـة بين المجتمعـات التى تكـون بمعزل عن هـــذه الاضـطرابات

والمواجهات • ومن ناحية أخرى فانه عندما تتردى هـذه المجتمعات الحدودية فى صراعات عنيفة ، فانها فى هـذه الحالة تكون تخوما تصون المجتمعات الأخرى الكامنة خلفها، ثقافيا واجتماعيـا وبذلك تؤدى وظيفتهـا ، أما بالنسبة للمجتمع العدوانى المتوسع ، فالتخوم (الحدود) بالنسبة له هى أقصى نقطة يمكن أن يصـل اليها بطاقاته التوسـعية والضاغطة ، سواء من ناحية المـد السـكانى ، أو القـوة العسكرية ، فمهمة تمديد الحدود وتوسيعها ، تستقطب اذن وتعبىء كل القوى الاجتماعية ، وفى المقـابل فان المجتمع الذى هو عرضة للغزو ، تكون الحدود بالنسبة له عبارة عن جدار ضخم ، حيث يكون للدفاع ، قدحه المعلى •

فالامبراطورية العثمانية ، والتى قامت نتيجة لاحـدى موجات الغزو الرعوية ، المنطلقة من أواسط آسيا ، أصـبح بقاؤها رهنا بالتوسع الدائم المستمر ، وكان هؤلاء البداة يهضمون ويستوعبون كل ما يستولوا عليـه ، لقـد كان التوسع الدائم والمستمر هو قانون الحياة لهؤلاء العثمانيين• أما أوروبا ــ رغما عن وخمها ــ فما كان العثمانيون ليمعنوا ضغطا عليها ، طالما كانت هنـاك أسوار محـكمة ممثلة فى امبراطورية الصرب والامبراطورية البيزنطية، وامبراطورية المجر ، اللائى لم يكن البوار قد اعتراها بعد ، وطالما كان العثمانيون غـير قادرين عـلى ترسيخ أقدامهم فى البحـر المتوسط ، ولكن الضغط العثمـانى العظيم والذى كان فى ازدياد مستمر منـذ القرن الرابع عشر تمخض فى القـرن السادس عشر عن نقطة مذهلة • لقد انهارت تماما الحدود التقليدية ، عندما وصلت جحافل سليمان (القانونى) الى بوابات فينا ، فى الوقت الذى كان بحارته يثيرون الرعب الهائل فى وسط البحر المتوسط وغربه • ومن وقتها لم يعد العثمانيون يمثلون لأوربا هما خطيرا فحسب، وانما أصبحوا يمثلون خطرا مميتا •

وكان من الطبيعى أن تظل القطاعات الشمالية والغربية

من المجتمعات الأوربية بمنأى عن الخطر ، اذا ما قورنت بالمناطق الأوربية الأخرى ، نظرا لبعدها أما المناطق التى كانت تعد بمثابة مفاتيح ومداخل للحضارة الأوربية ، كالأراضى الألمانية وإيطاليا ، فقد غدت الآن عرضة للهجوم العثمانى • أما رجال الفكر المولعون بتمثل الماضى ، فقد رأوا فى الخطر العثمانى نذر اجتياح البرابرة للحدود الرومانية • أما الوعاظ ورجال الدين المسيحيون ، فقد رأوا فى العثمانيين سخطا الهيا على المجتمع المسيحى الفاسد والمتداعى •

ويتوجب علينا الآن أن نسبر أغوار التجربة الأوربية وردة الفعل المترتبة على الصدمة المادية والنفسية للهجمة العثمانية •

مناطق الغزو العثمانى :

البلقان وأوروبا الدانوبية :

اختلفت أحوال الشعوب الأوربية ، التى استولى عليها العثمانيون ، أو غزوها، فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وفقا للظروف والأوضاع المحلية لكل شعب من هذه الشعوب ، وثمة مناطق سمح لها العثمانيون بنوع من الحكم الذاتى مع دفع اتاوات ، أو تقديم خدمات بعينها ، نظرا لبعدها ووجودها فى الأطراف ، وبالتالى لم تخضع للحكم أو الاستعمار العثمانى المباشر ، وكانت جمهورية راجوسا Ragusa (*) تعد مثالا واضحا على ذلك • وكانت راجوسا بمثابة مركز ايطالى تجارى متوسط الحجم يقع على الشاطىء الادرياتيكى لشبه جزيرة البلقان ، وقد استمرت راجوسا فى الوجود حتى أواخر العصور الوسطى بسبب تنظيمها لعمليات تبادل البضائع الأوربية المصنعة ، فى مقابل حصولها على القمح والجلود والعبيد والمواد الخام من المناطق

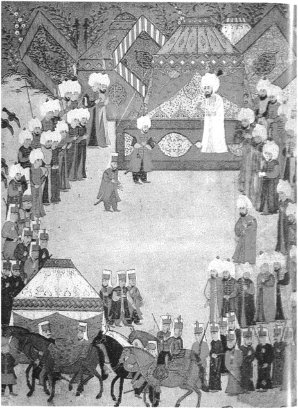
(*) او « دوبرفنيك » ، وهى الآن ضمن حدود ما كان يعرف بـ يوغسلافيا ــ (المترجم) •

الداخلية • ولكن المنافسة الحادة من البندقية ، وعدم الاستقرار السياسي الضارب أطنابه بصورة دائمة في بلاد البلقان الداخلية ، شكل تهديدا لهذا النشاط التجاري • ولقد أدى الفتح العثماني للبوسنة في سنة ١٤٦٣ ، وهيرزوجوفينا (الهرسك) Herzogovina في سنة ١٤٨٢ ، الى تقليص جمهورية راجوسا هذه الى شريط أرضي ضئيل المساحة ، وأجبرها على الاعتماد المطلق على رضاء السلطان العثماني وحسن نواياه • فقد أدى دفع الراجوسيين لضريبة مجزية — حددت في نهاية القرن الخامس عشر بنحو ١٢٫٥٠٠ دوكات سنويا ، وظلت كذلك لعدة قرون — الى اتقاء شر الغزو العثماني ، ولقد كان أهل راجوسا — في حقيقة الأمر — مفيدين جدا للعثمانيين في هذا الوضع ، بصورة أغنت عن غزو بلادهم • فقد كانت جماعات التجار الراجوسيين في كل من نيس Nis ونوفيبازار وسكوبج Skopj تنعش اقتصاد البلقان كله ، كما كانوا يمارسون النشاطات الاقتصادية الرئيسية التي لم يكن الترك بارعين فيها أو غير مهتمين بها • لقد احتكر الراجوسيون تجارة الملح ، كما خدموا السلطان وبكواته البلقانيين كمسئولي جمارك وجامعي ضرائب ، واستوردوا المنسوجات الأوربية وصدروا زنك ألبانيا ، ورصاص البوسنة ، الى ايطاليا وكانت الحلي والزخارف العادية وذات الطابع الديني التي يصنعها الحرفيون من أهل راجوسا ، تجد أسواقا عطشى في كل من روما والبندقية واسطنبول • لقد أتاحت فتوحات سليمان وحروبه البحرية في القرن السادس عشر لهذه الجمهورية الراجوسية مكاسب ومنافع ، لكنها لم تدم ، اذ كان عصر راجوسا الذهبي قصيرا غير مستقر كما كان محفوفا بالمخاطر •

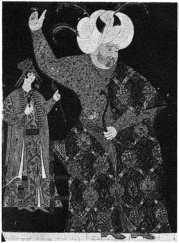
ولقد تحول الجنويون من العمل في شحن البضائع ونقلها وبناء السفن ، الى الاشتغال بالأمور المالية ، تمويلا وتعاقدا ، طالما كانت مستعمراتهم في البحر الاسود عرضة للضغط العثماني ، الذي فتتها ، وحطمها ، ثم أنهاها في

خاتمة المطاف . كما أن أسطول البنادقة التجارى، قد تناقص أيضا ، تحت ضغط هجمات القراصنة والحروب البحرية الطويلة الأمد ، ولقد انتهز أهل راجوسا الفرصة ، فسدوا هذا الفراغ الذى خلفته هذه الظروف فى تجارة البحر المتوسط . فبينما كانت تجارة البنادقة قد أصيبت بالشلل، خلال حروبهم مع العثمانيين فى قبرص (١٥٧٠ ــ ١٥٧٣) فان ستين سفينة كبيرة من سفن أهل راجوسا ، كانت تذرع هذا البحر المتوسط ، جيئة وذهابا ، فيما بين استنبول والاسكندرية وطرابلس وبيروت وسالونيكا ، وقد كان هناك ٢٥٠ قائد سفينة مسجلا ، و ٥٠٠ بحارا فى ميناء راجوسا فى أوائل الثمانينات من القرن السادس عشر ، كما كان الميناء يضم ٢٠٠ قارب يمتلكها التجار فى حالة عمل . كما كانت راجوسا هى نقطة التماس ووسيلة الاتصال الضرورية والمطلوبة بين أوروبا والامبراطورية العثمانية . فقد كانت راجوسا ، نقطة البداية فى بحر الأدرياتيك ، لطريق القوافل ، الذى يستغله التجار ورجال السلك الدبلوماسى ، متخذين طريقهم من نيس Nis وصوفيا وفيليبوبوليس الى اسطنبول ، كما كان الجواسيس من أهل راجوسا ، والوكلاء السريون ، ذوى نشاط ملحوظ فى السياسة الأوروبية ، فخلال الفترة من ١٥٣٠ الى ١٥٣٩ ، بينما كان أحد تجار راجوسا وهو سيرافين جوشيتك Serafian Gucetic يمهد للمفاوضات التى أدت الى المعاهدة الفرنسية العثمانية فى سنة ١٥٣٦ ، كان هناك شخص آخر من أهل راجوسا أيضا هو مارين زامنجا Zaminja يكتب تقارير عن الشئون العثمانية لتقديمها الى الامبراطور شارل الخامس .

لقد مكن الرخاء والازدهار الناتج عن هذه الأنشطة التى حققت مكاسب للتجار والمشتغلين بالاحتكارات الصناعية ــ أهل رأجوسا من الاحتفاظ بقوتهم وفعاليتهم بتجميد العلاقات الاجتماعية فى قالب محافظ، تمسكا بهذه المصالح،



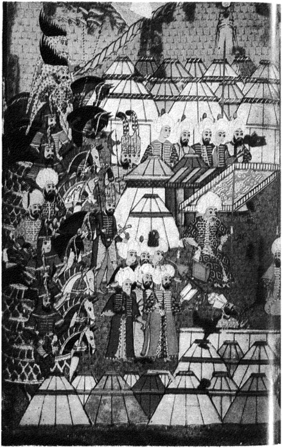
مراد الثالث (١٥٧٤ ـ ١٥٩٥) واقفا تحت ظلة فوق عرشه ، وقد شرع فى توزيع الخلع والمناصب على الحدود الفارسية . وهذا الرسم من عمل فنان تركى فى أواخر القرن السادس عشر ، وهو متأثر بشكل واضح بالتقاليد الفنية الفارسية



شهد عصر سليم الثانى (١٥٦٦ ـ ١٥٧٤) المعروف « بالسكير » بداية الانهيار فى مؤسسة السلطنة من حيث الكفاءة والمقدرة . فقد كان هذا السلطان مهتما بشرب الخمور المعتقة اكثر من اهتمامه بالمعارك الحربية.



احد صبيه الدفشرمه أو ضريبة الأطفال من القرى البلقانية ، فى الزى الرسمى لإحدى مدارس القصر السلطانى التى تعده للانضمام للانكشارية



معسكر قوات السباهى فى جورجيا على حدود الامبراطورية



اعضاء طائفة الكناسين ينظفون ميدان السباق فى اسطنبول (القسطنطينية) تحت إشراف السلطان مراد الثالث نفسه ـ لاحظ أن المماليك من اصول مسيحية ، او الأشخاص الذين تركوا المسيحية واعتنقوا الاسلام كانوا يحتكرون المناصب العليا فى الدولة العثمانية ، بينما كان المسلمون بالمولد نادرا ما يتقدمون فى سلك وظائف الدولة ، بل ونادرا ما كانوا يتخطون وضعهم الأصلى فى الحياة ونادرا ما يجتازون طبقتهم الاجتماعية الأهلية

بينما كانت المدن الايطالية يجهدها صراع الطبقات ، كما كانت قد بدأت تذوب فى كيانات أكبر لتتخذ شكل الدول ، ظلت راجوسا متحجرة ككيان له طابع أوروبا الوسيطة ، حيث كن نشاطها الاقتصادى والسياسى تديره عصبة منظمة تنظيما فائقا ، عصبة تتمتع بمزايا اجتماعية ، ومغلقة على نفسها لا ينضم اليها أعضاء جدد. أما الجبليون فى مونتنجرو (الجبل الأسود) Montengero فلم يكونوا مثل سكان المدن من اهل راجوسا ، اذ كانوا فى عزلة ، ولم ينغمسوا تماما فى تيارات الغزو العثمانى • لقد احتل العثمانيون هذه المنطقة بعد غزوها فى سنة ١٤٩٦ ، ولكن بعد المنطقة ، وقسوة تضاريسها ، سرعان ما كانا سببين فى أن يستبدل العثمانيون سياسة الاستعمار المباشر ، بسياسة أخرى مرنة معتمدة على الاكتفاء بالسيادة الاسمية • وكان المنتخبون من الأشخاص من ذوى الحيثيات الاجتماعية والأوضاع المميزة من أهل مونتنجرو ، هم المسئولين أمام السلطات العثمانية ، عن جمع الضرائب العامة وتسليمها ، ولكن العملة الحقيقية التى كان أهل منتنجرو يشترون بها حريتهم ويتحاشون بها التدخل العثمانى فى شئونهم ، كانت هى الخدمة العسكرية التى كان يقدمها رجال قبائل المنطقة فى خدمة السلطان • ولقد كانت فرص السلب والنهب التى كان النظام العثمانى يتيحها ــ على الأقل خلال القرن السادس عشر ــ هى العامل الكامن وراء حماسة أهل مونتنجرو الفائقة ، وزعمائهم العشائريين ــ للاشتراك فى العمليات الحربية العثمانية •

وانه لمن الصعب أن نصل الى تقدير عام منضبط ، عن ظروف الأرض المزروعة والسهول العامرة جنوب الدانوب فى أعقاب الغزو العثمانى ، الا أن أدلة كثيرة تشير الى انه خلال القرنين ، الخامس عشر والسادس عشر ، رحب السكان المزارعون فى البلقان وأواسط المجر ، بالعثمانيين ، بل وقدموا لهم المساعدة ، ويكمن تفسير ذلك فى ان نظام الاقطاع العثمانى كان أكثر بساطة وبدائية واقل تبلورا

وانضباطا ، اذا ما قورن بالاقطاع الأوروبى ، فوسائل الأشراف والنبلاء ، واتجاهاتهم ، فى صربيا والبوسنة وكرواتيا Croatia فى القرن الخامس عشر ، وفى المجر فى القرن السادس عشر ــ كانت تتسم بقدر كبير من القسوة والوحشية فاقتا ــ القسوة والوحشية ــ ما اتسم به نبلاء واشراف أوروبا الوسطى والغربية ، وكان الاقطاع العثمانى بالمقارنة يقوم على النظام الاجتماعى المعروف بالتيمار وهو اقطاع لا يورث وانما يتقلده السباهى ــ وهو فارس محارب ــ مقابل خدماته الحربية وكان هذا النظام العثمانى ، من وجهة نظر الفلاحين ، ذا مزايا متعددة • ذلك أن السيد الاقطاعى غالبا ما يكون غائبا فى المعارك طوال فترة الصيف منكبا على جمع الغنائم والأسلاب ، يوليها اهتماما أكثر من اهتمامه باغتصاب ما يملكه رقيق الأرض التابعين له • وفى النظام العثمانى يؤدى رقيق الارض خدماتهم فى شكل اعمال غالبا ، أكثر مما يؤدونه فى شكل أموال وبضائع • هذه الطبيعة غير الوراثية للتيمار ، بالاضافة لضعف الروابط الأسرية فى المجتمع العثمانى جعلت السباهى العثمانى أقل اهتماما من نظيره الأوروبى فى توسيع رقعة ما يحوزه ، وأقل منه اهتماما بتكديس الثروة لورثته بمختلف الأساليب والممارسات ، كطلب ايجار باهظ مثلا • وعلى هذا ففرص وحوافز المقطعين ، فى احكام السيطرة ، والامعان فى الاستغلال الكامل لاقطاعاتهم ، فى ظل النظام العثمانى ــ أقل منها فى الاقطاع الأوروبى • وكان ثمة كابح آخر يمنع احكام السيطرة فى ظل الاقطاع العثمانى وهو عدم وجود محاكم القصور الاقطاعية ، على الأقل حتى القرن السابع عشر ، وفقا للنموذج الأوروبى • وكانت الأمور المتعلقة بالعدالة من اختصاص الحكومة المركزية ، التى كان ممثلوها فى كل المستويات ــ عادة ــ من العبيد الذين ترجع أصولهم الى البلقان ، والذين كانوا يحتفظون ببقايا ولاء وحب وتعاطف لمجتمعات القرى التى خرجوا من رحابها •

وسيكون من الخطأ — مهما كان الأمر — أن نفترض أن النزعة لخير ، كانت هي الدافع الموجه للسياسة الاستعمارية العثمانية • وان كان من المؤكد أن ضريبة الدم ، التى تعنى أن ينتزع الأطفال من المناطق البعيدة فى البلقان الغربى — واستمرت هذه الضريبة كمماد للقوة البشرية للبيت العثمانى الحاكم ، وفرق الانكشارية ، منذ القرن الخامس عشر حتى الغاء هذا النظام فى سنة ١٦٣٨، كانت — أى هذهالضريبة — لا تلقى الاستياء والامتعاض الكافيين • ويمكن فهم هذا اذا قارنا ظروف الحياة الطيبة وفرصها ، التى كانت تتاح لهؤلاء الاطفال فى المؤسسات التدريبية الملكية فى اسطنبول، بما فى حياة قرى البوسنه وألبانيا من بؤس وحرمان •

أما فى المناطق الأكثر غنى ، فقد أثبت العثمانيون أنهم كانوا أكثر شراهة فى جمع الضرائب ، فالرعايا المسيحيون الذين لم يكونوا يمارسون واجبات عسكرية أو ادارية هامة، كان عليهم ان يدفعوا بالاضافة للضريبة الشاملة على الأرض، ضريبة رأس ، وكانت تسمى الخراج (The Harac) ، فليس فى كل الاحوال ، كان وصــول العثمانيين ، يمثـل تخميفا للأعباء التى كان يضعها الاقطاعيــون الاوربيون على كاهل الفلاحين • ففى بعض أنحاء البوســنة وصربيا ومقدونيــة والمجر ، كان بعض أفراد الطبقة العليا من أهــل البــلاد يقدمون الرشاوى للرسميين العثمانيين مقابل اقرارهم على امتيــازاتهم ، أو ليجــدوا لأنفسهم مكانا ودورا جـــديدا كسباهيين اتراك • لهـذا فان طرق الحـكم والادارة فى المناطق الريفية ، ظلت كما كانت قبل وصول العثمانيين — بوضعها التقليدى الذى يتسم بالظلم والتعسف •

ولقــد تعرض المجــريون لــكثير من المعــاناة والعنف والحرمان ، بسبب حروب القرن السادس عشر الطويلة ، حيث تعرضت — مرارا — سهول المجر الوسطى الواقعة بين طرفى النزاع ، للتخريب من قبل الجيوش المتحاربة ، فغدت مهجورة وكأنها لا مالك لها • فهى منطقه بيرج Bereg

على سبيل المثال وجدنا أن تسعة من كل احدى عشرة مدينه قد نهبت ، كما أن ٢٠٠ر٤ حيازة زراعية من بين كل ٦٠٠٠ قد أصبحت خرابا ، وذلك خلال النصف الثانى من القرن السادس عشر • وفى بعض المناطق ، أجبر رقيق الارض على دفع ضريبة مضاعفة للسباهى العثمانى وللسيد الاقطاعى المسيحى فى نفس الوقت • ذلك السيد الاقطاعى المسيحى الذى كان يظهر على مسرح الأحداث عندما يحول المسئون العثمانى المحارب قد غدر الاقطاع او القرية لينخرط فى حروب الصيف • لهذا ، كان لا مناص من وجود نقص فى السكان نتيجة الهجرة ، كما أن بعض الفلاحين راحوا يبحثون عن الأمان فى المدن والقرى الكبيرة ، وفضل بعضهم حياة الرعاة الرحل ، التى رأوا فيها خطورة أقل ، كأسلوب حياة ، من زراعة المحاصيل فى منطقة مضطربة يعوزها القانون • وقد انتشر هذا الاتجاه ، ليس فى المجر فقط ، وانما فى كل البلقان وأوروبا الدانوبية بسبب نظام الضرائب العثمانى الذى يثقل على الأراضى الزراعية ، وتخف وطأته على المناطق الرعوية ، مما شجع ملاك الأراضى على تحويل أراضيهم الزراعية الى مراع بطرد الفلاحين واقتناء الأغنام والخيول ، وقد أدى ازدهار حياة البداوة والرعى على هذا النحو الى بزوغ نجم قبائل الفلاش Vlachs الناطقة بالرومانية ، وهم رعاة رحل كانت أوطانهم فى ملدافيا (البغدان) وفالشيا (الأفلاق) قد سقطت فى قبضة العثمانيين خلال القرن الخامس عشر •

وفى القرن السادس عشر ، كان سوق الطعام فى اسطنبول ، فى حاجة الى المزيد ، واستجابت طبقة البويار (طبقة أصحاب الأطيان الزراعية) ورؤساء القبائل فى هذه المناطق التى أشرنا اليها ، لطلبات هذه السوق الشرهة، فراحوا يضغطون على أتباعهم غير الأرقاء ليستخدمونهم استخدام الرقيق فى رعى الماشية وممارسة الزراعة • كان هذا هو وضع الفلاش فى بلادهم أما خارج بلادهم فقد كانوا ينتشرون بحرية وعلى نطاق واسع ، وكانت علاقاتهم

بالترك وثيقة ، بل وأكثر ودا وصداقة من علاقاتهم بسائر شعوب البلقان ، وذلك نتيجة التفاهم المشترك ، اذ كان الشعبان ، التركي والفلاشي ، كلاهما من الشعوب البدوية • ولما كان الفلاش هم المنتجون الرئيسيون للخيول بالبلقان ، والمتجرون فيها ، فقد احتلوا مكانا خفيا كموردي خيول للجيوش العثمانية • وفي مقابل خدماتهم هذه ، يسر العثمانيون للفلاش احتكار شغل بعض الوظائف والمناصب الهامشية ، كحراس للموظفين العثمانيين ، ومرشدين وأدلاء ومرافقين للقوافل التجارية •

وخلال النصف الثاني من القرن السادس عشر ، كانت أحوال الفلاحين في المناطق التي فتحها العثمانيون في جنوب شرق أوروبا ، سيئة للغاية ، وكان مستوى معيشتهم في انحدار عام ، اذ أن توقف المواجهة العسكرية بين أوروبا والاسلام في منطقة الدانوب ، قلل من فرص الغنائم والأسلاب ، المتاحة للعثمانيين ، فبدأ السباهيون في تكييف أنفسهم مع قلة الدخل الناشئة عن هذه الظروف الجديدة بزيادة فرص المطالب المالية والاقتصادية على الواقعين في زمام سيطرتهم • وفي كثير من الحالات نجح هؤلاء السباهيون في تجاوز القانون وتخريب نظام التيمار وافساده بتحويل عمراتهم الى ممتلكات تورث ، وكانت النتيجة السريعة التي نجمت عن تحويل التيمار الى ارستقراطيات وراثية ان تعرض الفلاحون في نفس الوقت لاستغلال اقتصادي بشع بكل المقاييس ، كما قلت قدرة الحكومة المركزية على الحد من فساد ملاك الأراضي وتجاوزاتهم • وكان من نتيجة هذه الأوضاع ، أن قام الفلاحون بسلسلة من الثورات ، ومن أمثلة هذه الثورات — وهذا مجرد مثال — ما قام به الفلاحون حول ماريوفو Mariovo وبريلب Prilep من اضطرابات في الفترة من ١٥٦٤ الى ١٥٦٥ ، ولم تكن هذه هي الثورة الوحيدة بلا شك •

لكن علينا ألا نبالغ في استخلاص المعاني من هذه

الظواهر ، فانه ان كانت ظروف الفلاحين فى البلقان وبلاد الدانوب تحت الحكم العثمانى قد اعتراها السوء خلال القرن السادس عشر ، فان علينا أن نتذكر أوضاع الفلاحين كعبيد أرض فى معظم الدول المسيحية فى وسط وشرق أوروبا . انها أوضاع لم تكن تقل سوءا عن أوضاع الفلاحين فى ظل الحكم العثمانى ، باستثناء مناطق وسط المجر التى تعرضت لبلاء يفوق الوصف .

فثورة الماريوفو — على سبيل المثال — ضد الحكم العثمانى ، قد عاصرتها تقريبا ثورات كثيرة قام بها الفلاحون فى كراوتيا التى كان يحكمها الهبسبرج ، وفى سلوفانيا Slovania نشبت ثورة فلاحية أخرى فى سنة ١٥٧٣ .

ومرة أخرى فانه باستثناء المنطقة المتأثرة بالحرب والنهب فى المجر — فان ادماج جنوب شرقى أوروبا فى النظام العثمانى بصورة مضطردة وفعالة قد عوضها عن الاضطرابات التى تقوم فى الريف من وقت لآخر بتشجيع التطور الحضرى العمرانى — على سبيل المثال — فى ازدهار مراكز تجارية جديدة وهامة ، مثل ساراجيفو Sarajevo ونوفيبازار ، كما نتج عنها زيادة فى عدد السكان بشكل عام فى الخمسينيات من القرن السادس عشر .

فنادراً ما كان العثمانيون استبداديين طغاة ، رغم قسوتهم واهمالهم ، اذا ما قارناهم بأوروبا المعاصرة لهم ، حيث كان الهوس الدينى والتعصب المذهبى ، بينما كان الرعايا العثمانيون فى أوروبا يتمتعون بأقصى درجات التسامح الدينى ، لقد كان الاسلام ينتشر ببطء فى البلقان، اذ كان التحول للاسلام مرتبطا بالرغبة فى تحقيق وضعية اجتماعية أو مزايا اقتصادية ، حيث كان يعفى معتنقو الاسلام من ضرائب بعينها أو يعفون من الخدمة الحكومية الالزامية ، وكانت تلك هى الدوافع الحقيقية التى تؤتى أكلها ، أكثر من أى دعوات مخلصة للتحول للاسلام كان

يقوم عليها الحكام العثمانيون • ولم تكن هنــاك سياســة عثمانية فعالة لتحويل الناس للاسلام ، مما زاد من الفجوة بين الرعايا المسيحيين والحكام المسلمين ، من حيث الــوعي والاحساس الديني ، ومن حيث المــواقف العملية أيضـا • فنقص التعاطف بين الرعايا المسيحيين ، والحكام المسلمين ، أثبت على المدى الطويل أنه قدر محتــوم يتصــدى للأهداف العثمانية الرامية الى تأسيس كيان دائم لهم في جنوب شرق أوروبا • لقد كان انعــدام التعـــاطف الذى أشرنا اليــه بالاضافة لنقص التواصل والاحتــكاك المبــاشر بين الحكام المسلمين ورعاياهم المسيحيين ــ اذ ان الطائفتين لم يكــونا يجتمعان وفقا لما يقوله أحد المؤرخين الا على رذيلة only on vice ــ أحد عوامل خيبة الأمل العثمانية •

ان المناظر والرؤى التى تدعو للأسى ، والتى مازالت كامنة فى الخيال الشعبى لشعوب البلقان المسيحية ، والتى تصور العثمانيين غزاة ســفاحين متعطشين للدماء ، ما هى الا نتيجة للدعاية التى سادت يوم كانت الروح الصليبية هى الغالبة ، وكان الهبســبرج وباباوات روما هم عصب هــذه الدعاية ، وقد تكون ــ أى هذه الفكرة السيئة عن العثمانيين ــ اتجاها معاصرا للحط من شأن القــرن الســادس عشر ، واظهار وجهه القبيح مقــارنة بالقرن التاســع عشر الذى اختلفت ظــروفه عنــدما كانت الامبراطورية العثمانيــة المحتضرة تبذل جهودا يائسة لوقف تيار القومية البلقانية •

وفى المقــابل فان بعض المــؤرخين المحــدثين ، الذين يبحثون بحق عن حكم أكثر توازنا ، ربما سمحوا لأنفسهم بالتأثر بصورة مفرطة بالأدلة التى تشــير الى أن العثمانيين كانوا يستقبلون كمحررين أكثر من كونهم غزاة غاصبين •

لقد حققت الطبقات الدنيا مزايا مبدئية ، من وجهــة نظرها ، الا أن التجربة الطويلة المدى التى خاضوها للذوبان فى الامبراطورية العثمانية ، كانت تجــربة مأســوية ، فى جنوب شرق أوروبا ، ان هناك شيئا عقيما فى الاســتعمار

العثمانى ، فالشعوب الأوروبية المفتوحة قد تقوقعت وحبست لعدة قرون ، خلال نظم اجتماعية وسياسية تنقصها الكفاءة والقدرة على التطور المستمر ولم تكن هذه النظم ولا القائمون عليها قابلين للنقد ، وقد وجدت النخبة العثمانية أنه من المستحيل احداث تقدم الا من خلال مفاهيم العنف والنفعية الشرهة • لقد ثبت هذا باختفاء العثمانيين من أوروبا ، تاركين خلفهم ميراثا من الطغيان الأخرس الصعب والظالم•

حدود الهبسبرج :

عندما استهل سليمان (القانونى) حملاته كانت الأسرات الحاكمة فى طول أوروبا وعرضها عاكفة على تقويض تطور وامتيازات المراكز الحضرية وملاك الأراضى المحليين، للتمكين لأنفسها • وفى ظل هذه الظروف ، كان معيار النجاح فى طول أوروبا وعرضها ، هو : زيادة الضرائب ، وتفشى البيروقراطية ، وانشاء جيوش محترفة مستقلة •

وكان آل هبسبرج من بين البيوتات الحاكمة فى أوروبا، ولم يكن الهبسبرج يتميزون ببطولة أو ذكاء وانما نجاحهم يكمن فى عنادهم ، الذى لا يجارى ، وفى طموحهم ، الذى لا تحده آفاق ، وفى حظهم الفائق ، الذى كان ملفتا للنظر• وباعتبارهم آرقات للنمسا ، فانهم قد تدخلوا دون مواربة فى الحياة السياسية لبلاد الدانوب وبلاد الامبراطورية الرومانية المقدسة الا أن ظهور مملكة المجر الكبرى ، ظهورا مفاجئا ، مصحوبا باتجاهات عدوانية ، على يد ماتياس كورفينوس Matthias Corvinus خلال القرن الخامس عشر ، قد أيقظ الهبسبرج من حلمهم ، وآفاقهم ، ولم ينقذهم (الهبسبرج) الا نشاطهم السياسى الماهر، الذى أحال الموقف لصالحهم ، وذلك من خلال الاتفاقية التى أبرمت بين النمسا والمجر فى سنة ١٤٦٣ ، حيث تم الاتفاق على أن تؤول ملكية المجر الى الهبسبرج اذا مات الملك ماتياس دون وريث • ويبدو أن الهبسبرج كانوا يراهنون على التركيز على (الشرق) فى سياستهم الخارجية ، فمعروف

عن الهيسبرج أنهم نهازون للفرص ، نهاشون للمناسبات ، والتزامهم لمصالحهم هو الالتزام الوحيد الذى مارسوه طوال تاريخهم الطويل ٠

وفى سنة ١٤٧٧ عقدت الأسرة الحاكمة الهيسبرجية حلف المصاهرة التاريخى مع البيت الحاكم فى برجنديا كما أن الهيسبرج استمروا فى تأييد وتمويل الحزب الألمانى من بين أقطاب المجر ، واستمروا ببراعتهم المعهودة فى اصطناع الحيل ، لممارسة لعبة الزواج أو المصاهرات السياسية فى البلاط المجرى ٠ لكن أوروبا الشرقية الآن قد غدت تلعب دورا ثانويا فى حسابات الهيسبرج السياسية، لذا فقد نفروا من استخدام العنف ضد المجر ، بعد موت مليكها ماتياس كورفينوس Corvinus — دون وريث — فى سنة ١٤٩٠ ، عندما انتقل تاج المجر بعد موته الى الأسرة الحاكمة فى بوهيميا ، وان كان الهيسبرج قد حصلوا على تعويضات مجزية فى مناطق أخرى ، اد تحققت مطامعهم بشكل مرض عندما اقترن البيتان الموحدان الحاكمان فى كل من النمسا وبرجندى بالبيتين الحاكمين فى الأراجون وقشتالة ، وذلك بزواج فيليب البرجندى من جوانا المجنونة Joanna the mad فى سنة ١٤٩٦ ٠ وقد أدت سلسلة من الظروف لم تكن فى الحسبان الى وصول شارل ، الابن الأكبر لفيليب البرجندى وجوانا المجنونة الى عروش متعددة ، عرش الأراضى المنخفضة فى سنة ١٥٠٦ ، وعرش أسبانيا فى سنة ١٥١٦ ، وتلقب بشارل الخامس بعد أن صار امبراطورا فى سنة ١٥١٩ ٠ وهذه الأحداث المتعاقبة قد زامنت تزايد قوة العثمانيين فى شرق البحر المتوسط وفى الدانوب ، مما جعل الهيسبرج فى حالة مواجهة وتحد مع أولئك العثمانيين الذين كانوا يحرزون تقدما فى عدد من النقاط الاستراتيجية ولقد كان شارل الخامس ، باعتباره ملكا لأسبانيا ، مضطرا لأن يأخذ على عاتقه تنظيم المقاومة ضد هجمات العثمانيين البحرية على ممتلكاته الايطالية ، وعلى سواحل اسبانيا ذاتها ، كما كان باعتباره الامبراطور

الرومانى المقدس ، مضطرا للقيام بدور فعال كحارس للعالم المسيحى الكاثوليكى يدرأ عنه خطر الاسلام ، وقد عهد شارل الخامس الى شقيقه الأصغر فرديناند بارثه فى بلاد النمسا ، والذى يضم دوقيات ، كارنثيا Carnithia وكارنيولا Carniola وستيريا Styria والتيرول Tyrol ، فى سنة ١٥٢١ ، وذلك نظرا لانشغاله بالمشاكل والصعوبات السياسية فى اسبانيا ، ولظهور الثورة اللوثرية فى ألمانيا • وبعد أن تولى فرديناند الأمر ، بفترة قليلة ، كان عليه أن يهيء لمواجهة الخطر الداهم على مصالح أسرته الحيوية فى أوروبا الشرقية ، والتى كانت مهملة حتى هذه اللحظة — فقد أدى انهيار المجر الى أن يشغل أرشدوق النمسا الخط الأمامى للدفاع ضد العثمانيين • وقد أدى موت ملك المجر ، لويس زوج أخت فرديناند (مارى) وشقيق زوجته (أن ، زوجة فرديناند) فى معركة موهاكس Mohacs فى سنة ١٥٢٦ — الى أن يصبح فرديناند بصورة تلقائية منافسا على التاج المجرى • وقد أدى حصار سليمان (القانونى) المحكم لفينا فى سنة ١٥٢٩ ، الى احياء اهتمام أسرة الهبسبرج بمستقبل أوروبا الدانوبية •

وفى أسبانيا ، وايطاليا الأسبانية ، وشرق أوروبا ، كان على الهبسبرج أن يتحملوا عبء الدفاع عن قطاعين عريضين من مناطق الحدود الأوربية • وقد أثرت هذه الحروب المريرة بين الهبسبرج والعثمانيين تأثيرا عميقا فى التطورات الحادثة فى هذه المناطق وشكلت تاريخها •

ففى المجر ، تحمل فرديناند كل صعب ، اذ كان ثلثا مملكة المجر تحت السيطرة الفعلية للعثمانيين ، وكانت دعواه (دعوى فرديناند) على الثلث الباقى ، دعوى تحوطها الشكوك والريب ، لوجود مرشحين منافسين ، لكن فرديناند ، بعد سنة ١٥٣١ ، باعتباره حاكما للامبراطورية الرومانية المقدسة ، كان يمتلك من الامكانات المعتبره ، ما مكنه من العمل ، لاحكام قبضة الهبسبرج على هذه المقاطعات المجرية التى لم تطلها أيدى العثمانيين بعد ، والواقعة الى الشمال

الغربي ، وأن ينظم وسائل دفاعه الحدودية للحيلولة دون مزيد من الهجمات العثمانية .

ولقد أوضح شارل الخامس لأخيه فرديناند أن حاجات الامبراطورية الاسبانية وكفاحها ضد البروتستنطية في ألمانيا ، تعرق حشد الجيوش الهبسبرجية العظيمة على جبهة شرق أوروبا . والواقع أن قوى الهبسبرج لم تحشد حشدا كاملا الا مرة واحدة ، وذلك في سنة ١٥٣٢ عندما وقفت تدافع عن فينا لفك الحصار العثماني عنها وبصرف النظر عن هذه الحالة ، فان مساعدات الأسبان كانت مقتصرة على المشاه المحترفين من الأسبان والطليان ، ورغم قلة أعداد هذه القوات العسكرية ، الا أنها استخدمت بكفاءة واقتدار . فلقد كان انضباط هذه القوات وكفاءتها القتالية متقدما بمدى قرن من الزمان على القوات البدائية المتخلفة التي كان يقودها نبلاء أوروبا الشرقية .

لقد كانت القوات الهبسبرجية موزعة من خلال نظم دفاعية ، مكونة من قلاع أو حصون صغيرة وبسيطة ، تنتظم متاريس وسدود ترابية صغيرة ، ولكنها محكمة ومسطوحة بأعواد خشبية ، وكان هؤلاء المحاربون ذوى خبرة ، وأثبتوا أنهم قادرون على تعويق القوات العثمانية كثيرة العدد والمتفوقة ، وايقاف تقدمها .

ولقد تمكنت قوات الهبسبرج ، بشكل منتظم ، من تضييع موسم العمليات الحربية القصير على العثمانيين ، الذين كانوا يضيعون وقتهم في منازلة مواقع محصنة عديمة الأهمية . لقد استطاعت قوات الهبسبرج اذن ـ ولمدة قرن من الزمان أن تحرم العثمانيين من تحقيق نصر حاسم يماثل الذى حققوه في الأعوام من ١٥٢٦ الى ١٥٢٩ ، فمثلا استطاعت قوات الهبسبرج في سنة ١٥٣٢ في جونز Güns من تعويق تقدم جيش تركي بقيادة سليمان القانوني نفسه مدة تزيد على الشهر ، مع أنها ـ أى قوات الهبسبرج كانت عبارة عن حامية عسكرية لا يزيد عدد أفرادها على ٨٠٠ .

ولكي يدافع فرديناند عن حدوده الجنوبية فى كرواتيا وسلافونيا جعل اعتماده مقصورا على الموارد المحليه • فمنذ سنة ١٥٣٥ دخل فرديناند فى اتفاقات سنوية مع جماعات الجرينزر ، وهم سكان الحدود المخلطون دائمو الشغب ، والرافضون لأى سلطة خارجية ، وذلك لتحاشى ما يمكن تسببيه للهبسبرج من متاعب وارباكات لا تطاق • ووفقا لبنود هذه المعاهدات ، كان على الجرينزر أن يقوموا بشن حملات متصلة ضد السلطات العثمانية على الجانب الآخر من الحدود ، مقابل هبات مالية ، ومنح من الأراضى التى يستولون عليها ، يقرهم عليها الهبسبرج •

لقد كان أمن المجر ، يتوقف على الدفاع عنه ضد العثمانيين ، وكان هذا يقوم على اجراءات ادارية واجراءات عسكرية ، بنفس القدر ، خاصة وأن فرديناند قد واجه أمرا صعبا معقدا لتأكيد ولاء أهل البلاد (المجر الهبسبرجية) للملك ، وللجهاز الادارى فى فينا • فالنبلاء المجريون — وهم طبقة متنافرة من ملاك الاراضى، كانوا عادة مايتناحرون فى صراعاتهم الداخلية ، الا انهم كانوا يقفون صفا واحدا عندما تتعرض مصالحهم الجماعية — فالنبالة كل لا يتجزأ وقد كانوا قوة ضاربة بجذورهم العميقة فى الحكم على المستوى المحلى والمركزى ، فمجالس المقاطعات التى يديرها نبلاء المنطقة ، كانت بمثابة حكومات اقليمية منعقدة بصورة دائمة لاعتماد التشريعات اوتنفيذ السياسات وكانت تتولى مراجعة قراراتها بنفسها • ولم يجرؤ فرديناند على انتهاك هذا النظام أو القضاء على مزايا هؤلاء النبلاء ، نظرا لحاجته لدعم وتأييد هؤلاء النبلاء فى كفاحه ضد العثمانيين • أما على مستوى الحكومة المركزية حيث يبسط أقطاب النبلاء سيطرتهم على البرلمان والمجلس الملكى ، فقد بذل فرديناند جهدا متصلا وذكيا بهدف استيعاب المجر وهضمها فى اطار كيان الدولة النمسوية ، فقلص سلطات المجلس الملكى بصورة حادة ، ولم تتجوز صلاحيات الأجهزة البديلة ، اعادة توزيع الاعانات المالية التى تحدد مقاديرها السـ

المركزية فى فينا، كما أن منصب حاكم البلاتين Palatine كان يتولاه عادة أحد كبار النبلاء ، ويجمع شاغله الوصايه على العرش والتحدث باسم النبلاء فى البلاط ، هذا المنصب قد تم تجميده بصورة مؤقتة فى سنة ١٥٣٢ ثم ألغى تماما فى سنة ١٥٦٢ • كما تم نزع اختصاص تجهيز جدول أعمال البرلمان المجرى (الأجنده) ليصبح من اختصاص مجلس الأعيان الامبراطورى The Geheimerat فى فينا • وفى سنة ١٥٤٧ حثت السلطات الهبسبرجية البرلمان المجرى على التخلى عن حقه فى انتخاب الملك ، وفى سنة ١٥٦٣ ، سمح لولى عهد فرديناند أن يتوج فى حياة ابيه •

ورغم أن هذا التقدم فى النفوذ الملكى ، وهذه الصلاحيات الجديدة للجهاز الادارى فى فينا ، كان محدودا الا انه قد تدعم بنجاح الهبسبرج فى تحقيق سيطرة ادارية وتحقيق مكاسب فى مجال الضرائب الكنسية (الأعشار) المجرية ، التى كانت أكثر الضرائب العينية قدما وعمومية، وكانت هذه الضريبة تهدف بوجه خاص الى مقابلة (تعطية) نفقات الكنيسة ، وكانت هذه الضريبة مفروضة على كل الناس بدءا من عبيد الأرض الى النبلاء • وكان جمع هذه الضريبة خلال العصر الوسيط المتاخر يقع على عاتق صغار النبلاء ، الذين كانوا يحولونها عن هدفها الأساسى ، وهو خدمة الأغراض الدينية ، الى منافعهم الشخصية • وخلال فترة الحروب والانتصارات العثمانية من سنة ١٥٢٦ الى ١٥٢٩ ، تخلى النبلاء عن جباية هذه الضريبة للتاج، وبذلك تحول العائد من هذه الضريبة الى فرديناند وخلفائه لتدعيم القوات المسلحة التى تتولى حماية قلاع الحدود ، وذلك نظرا للحاجة الماسة للعائد من هذه الضريبة لأغراض الدفاع •

وقد أدى هذا التطور الى نتائج اجتماعية وسياسية هامة ، فمن ناحية ، وجدنا أن هيمنة الهبسبرج الادارية على مملكة المجر قد غدت قوية شديدة البأس ، كما اتسع مداها ، ومن ناحية أخرى ، فان الاستيلاء الناتج عن فرض

دفع هذه الضريبة الاجبارية ، جعل عبيد الأرض والنبلاء المجريين يتضامنون معا ، تضامنا غير متوقع ضـد الحـكام الهبسبرج •

ففي ولاية County هيفز Heves ، وجدنا في سنة ١٥٨٣ ، ستا من أقنان الأرض ونبيـلا ، قد اتهمـوا بالتهرب من هذه الضريبة متضامنين • فالصراع التقيدي بين الطبقات الاجتماعيه في المجر قد خفت حدته في مواجهة الحكم النمسـوى المطلق كما أن التعـاون العسـكرى بين الطبقات الاجتماعية ضـد الغزوات العثمانيـة ، قد اكد التعاون بين الفئات الاجتماعية • ويمكننا ان نلخص تأثيرات الضغط العثماني على أوروبا الواقعة خلف الدانوب ، في القرن السادس عشر ، تحت ظلال الدولة العثمانيـه ، في السطور التاليات •

كانت معـارك سـليمان (القـانونى) الأولى الناجحه المبهرة في البلقان ، قد أجبرت الهبسبرج على اعادة النظـر ـــ بعد فترة من الاهمال النسبى ـــ في الاحتفاظ بمصالحهم في الدانوب• فقد أضطر الهبسبرج إلى بذل جهد كبير ببراعه فائقة لمواجهة هذه المعضلة المركبـة المتمثلة في اسـتيعاب رقات المملكة المجرية المتداعية في الكيان الادارى النمسوى، وتنظيم دفاعات الحدود بشـكل يمكنها من صـد مزيد من الهجمات العثمانية ، لكن رفض المجريين للخضـوع المطلق لاحتواء الهبسبرج ، ورفضهم للوجود العثمـانى المؤثر في البلقان ـــ قد أكد على أن حكام النمسا وجهـازهم الادارى سيظلان في حالة صراع ، ولفترة طويلة ، لمواجهـة هـذه المعضلة •

فدولة الهبسبرج الجديدة هذه ، بعاصمتها فينا ، قد دخلت في حروب مستمرة مع الامبراطورية العثمانية ، كما انها تحملت مسئولية مشكلات مجرية عسيرة ، الى هذا الحد، كانت الامبراطورية النمسوية جزءا جوهريا من النظام الذى شمل دول أوروبا كلها ، حتى اندراسـها (امبراطـورية

النمسا) فى القرن العشرين • لقد كانت امبراطورية النمسا احدى الموجودات التى تسبب فى وجودها سليمان (القانونى) دون تعمد أو قصد ، ولم يكن الهيبسبرج ، بالتأكيد ، فى حالة رضى تام ، عن القدر الذى ساقهم للدانوب ، فخلال القرون ، السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ، كافح الهبسبرج ، ليجعلوا ألمانيا تابعة لفينا أو مرتبطة بها . وحتى هذا المشروع ، قد انتهى بالهزيمة وخيبة الأمل •

اذن فى البداية كان ذلك الالتزام الدائم للدفاع عن شرق أوروبا ضد العثمانيين ــ ولكن عندما بدأت قوة الأتراك فى الاضمحلال ــ كان ذلك التوجه الى الشرق الذى صار أمرا واقعا ــ الذى حدد فى نهاية المطاف هوية ومسار الدولة النمسوية •

الهبسبرج الاسبان والامبراطورية العثمانية :

كان تموق الضغط العثمانى والحاحه ، على حدود الهيبسبرج فى شرق أوروبا ، هو الذى صاغ تطور الأحداث وضبط ايقاعها خلال معظم القرن السادس عشر • وقد كانت تأثيرات التوسع العثمانى على ملك الهيبسبرج فى أسبانيا اشد تعقيدا وصعوبة ، فحكام اسبانيا •• فى القرن السادس عشر ، قد انخرطوا فى شبكة معقدة من المشكلات والقضايا لم تكن تقل ارهاقا وازعاجا ، عن المشكلات التى سببها العثمانيون • ومن هذه المشكلات ، استخراج المعادن ونقلها من أمريكا الجنوبية ، ومشكلة اقناع اللوثريين واخماد حركة العصيان فى ألمانيا ، ومشكلة الصراع مع أسرة فالوا Valois الفرنسية الحاكمة ، ومشكلة اخماد ثورة الأراضى المنخفضة ، وأخيرا مشكله الحرب مع انجلترا فى عهد اليزابيث • وكان تداخل كل هذه المشاكل مع تنظيم المقاومة ضد العثمانيين يشكل قضيه معقدة لحوحة •

لقد أدت ثلاثة عوامل ، بهبسبرج أسبانيا ، الى الصراع مع الامبراطورية العثمانية ، فى توسعها بالبحر المتوسط ، أولها ، أن شارل الخامس (١٥١٦ ـ ١٥٥٦) ، وفيليب الثانى (١٥٥٦ ـ ١٥٩٨) قد ورثا الدولة الاسبانية التى تم توحيدها منذ عهد قريب ، بزواج ايزابيلا ملكة قشتالة، من فرديناند ، ملك الأراجون ، فى سنة ١٤٦٩ ، وان ظلت اهتمامات واتجاهات المملكتين المكونتين لهذا الاتحاد ، متباعدة بعضها عن البعض الآخر بشكل اساسى • وكان هذا التباعد يصدق بشكل خاص على السياسة الخارجية ، حيث كان لأراجون سجل حافل فى التوسع الاستعمارى فى جزائر البليار وسردينيا ومالطة ونابلى وصقلية ، بينما لم يكن لقشتالة مثل هذا التوجه • وعلى أية حال ، فان اتحاد التاجين قد مكن فرديناند من تسخير ثروة قشتالة وطاقاتها لتحقيق أغراض أراجون ولشن حرب ناجحة ضد فرنسا بهدف السيطرة على جنوب ايطاليا ، فقد كان فرديناند قد اتخذ كمبدأ لسياسة اسبانيا الخارجية ، غزو ايطاليا ، كاستراتيجية طويلة الأمد ، وورث عنه شارل الخامس هذه السياسة ، وتابعها بنجاح ، ففى الثلاثينات من القرن السادس عشر كان معظم شبه الجزيرة الايطالية فى ايدى الأسبان ، أو تحت سيطرتهم ، وخلال نفس السنوات كان العثمانيون وأساطيل شمال افريقيا تجاهد ضد العالم المسيحى ، وواصلوا هجماتهم الى درجة مرعبة ، فالبحارة العثمانيون والقراصنة (مجاهدو البحر) الجزائريون كانوا يهددون بتخليص البحر المتوسط من الوجود المسيحى ، تجارة وملاحة ، وفى هذا تهديد لممتلكات شارل الخامس الايطالية ومسئولياته فيها ، فلم يكن أمام شارل الخامس خيار ، اذن ، الا المقاومة •

ومن ناحية ثانية ، كان شارل الخامس وفيليب الثانى ، محصلة عصر الحماسة الدينية الملتهبة • فكل منهما على الرغم من مكره وقدرته على المراوغة ، كان يؤمن بصدق بأن الملك يجب أن يكون حاميا للدين الحق من الأعداء ،

وأن يحتل ذلك من سهامه مكانا رفيعا ، فقد أطلق شارل على نفسه لقب (حامل لواء الله) عندما اتخذ سبيله مبحرا من برشلونة ، ليهاجم تونس ، فى حملة سنة ١٥٣٥ ، لقد كان الهبسبرج الاسبان يعكسون صورة طبق الأصل لتفانى المسلمين فى الجهاد • فعندما أقدم العثمانيون وحلفاؤهم على شن الهجوم على سواحل البحر المتوسط الوسطى والغربية، أثار ذلك حماس ملوك أسبانيا ، الذين كان تجريمهم للهجوم العثمانى ذى الطابع الدينى ، بمثابة رغبة حية للحفاظ على النفس ، ودافعا لقيامهم بدور كحماة للعالم المسيحى ، وأبطال مغاوير له •

ومن الناحية الثالثة ، فقد لعبت أسبانيا ، أكثر من أى دولة أوربية أخرى فى القرن السادس عشر ، دور القوة الصليبية • فالمماليك الأيبيرية لها تاريخ طويل فى الحرب ضد المسلمين (١) لاسترجاع (استرداد) مناطقهم (٢) ففى أسبانيا كانت الصليبية تراثا مقدسا وعملا دائبا ، أدى الى استيلائهم على غرناطة (٣) فى سنة ١٤٩٢ • وبين عامى ١٥٠٢ و ١٥١١ لم يكف الاسبان عن ارسال التجريدات العسكرية الى سواحل المغرب • اذن ، فقد كانت المواجهة العسكرية فى البر والبحر مع الامبراطورية العثمانية ، فى القرن السادس عشر ، ــ من وجهة النظر الاسبانية ــ استمرارا منطقيا للنضال ضد المسلمين ، والذى بدأ منذ فترة طويلة ، ولم يكن بأى حال من الأحوال أمرا طارئا ، يمكن التخلى عنه • وقد أزكى هذه الحروب الدينية الضارية من جانب الأسبان ، أن المملكة الاسبانية كانت تضم بين جنباتها عددا من السكان المسلمين (٤) غير قليل ، وقد كان الاسبان ، قد أجبروهم ــ منذ فترة يسيرة ــ على التحول

(١) استخدم المؤلف كلمة Moors (المترجم) •

(٢) استخدم المؤلف تعبير المناطق التى يشغلها الكفرة infidel ــ (المترجم) •

(٣) استخدم المؤلف تعبير اسقاط المملكة البربرية (المغربية) فى غرناطة ــ (المترجم) •

(٤) استخدم المؤلف كلمة Moors وفضلت ترجمتها بالمسلمين ــ (المترجم) •

للمسيحية ـ بطريقة فيها مهانة شديدة ، وكانت الحكومة الاسبانية فى خوف وهلع ، من أن يؤدى التوسع العثمانى الى تشجيع هؤلاء المسلمين على الثورة ، لهذا فقد اسرعت فى العمل ضد التوسع العثمانى • وقد سبق أن قدمنا مسحا للحروب الطويلة فى البحر المتوسط، بين أسبانيا الهيسبرجية• والامبراطورية العثمانية •

وقد حمل هذا الجهد الحربى ، المجتمع والاقتصاد الاسبانيين ، اجهادات وتوترات متعددة ، فحملات شارل الخامس ضد الجزائر فى سنة ١٥٤١ ، وحملات جيان اندريا دوريا ضد جزيرة جربه Gerba فى سنة ١٥٦٠ قد قذفت بآلاف الجند والبحارة ، وبسفن ضخمة ومكلفة فى سبيل هدف لا معنى له •

فقد زادت الحكومة الاسبانية من الضرائب على الطبقات الدنيا بدرجة مرهقة ، لمواجهة تكاليف المواجهة مع المسلمين، رغم أن طبقة النبلاء ، ظلت مستثناة من هذه الضرائب بدرجة كبيرة • لقد أضحى الفقر متوطنا فى الطبقات الدنيا الاسبانية ، وعانى الاقتصاد الاسبانى من تخريب ودمار دائمين ، بعد أن كان مزدهرا ، فتدفق كنوز أمريكا على البلاد الاسبانية فى القرن السادس عشر كان ينبغى ان يحدث تنمية اقتصادية مذهلة ومضطردة ، لكن هذا لم يحدث ، لأن وطأة الضرائب ، قد حرمت التجار والمنتجين من العملاء ، ومنعت ـ وبشدة ـ الاستثمار فى مشاريع جديدة • فلم تكن أسبانيا أكثر القوى الأوربية ثراء ، الا من الناحية النظرية فقط ، اذ كان ثراؤها عقيما غير مجد ، اذ لم يكن لنطبقات المنتجة منه نصيب ، وانما كان قصرا على غير المنتجين ، ولقد انعكست تعاسة أسبانيا وبؤسها على توابعها فى المتوسط فكثير من توابعها (مستعمراتها) كانت تقف فى الخط الأول ، فى مواجهة الحروب البحرية العثمانية ، ومع هذا فقد حملت من الضرائب قدرا مساويا لما كان مفروضا على أهل أسبانية

ذاتها • ففي صقلية ، وجدنا أن آخر نائبين للملك الاسباني، وهما جونزنجا ، وجوان دي فيجا Ferrante Gonzaga & Juan de Vega قدفرضا ضرائب محلية باهظة لانفاق مردودها على الانشاءات الدفاعية الساحلية ولانشاء عشرة سفن شراعية كبيرة ودفع رواتب المشاة الاسبان وتدريب المتطوعين المحليين لصد غارات القراصنة الجزائريين ــ وكان الطلب يزيد كلما تضاعف نجاح العثمانيين ، لقد تحملت صقلية ضرائب غير عادية عندما ساد توقع هجوم عثماني في أعقاب فشل العمارة المسيحية على جزيرة جربه في سنة ١٥٦٠ • وبالاضافة لهذا كان ثمة حاجة دائمة للشحن والتموينات البحرية عندما كان الأسطول يحتشد في مسينا Messina لتقديم نجدة لمالطة في سنة ١٥٦٥ • وكانت أثقل الأعباء المفروضه هي تلك التي فرضها دون جون Don John في النمسا ، أثناء معركة ليبانتو في سنة ١٥٧١ ، عندما كانت صقلية هي القاعدة المتقدمة لعمليات الحلف المقدس • وفي سنة ١٥٧٣ ، احتج الرئيس الصقلي ترانوفا Terraova على فيليب الثاني لان جباية الضرائب كانت قد بلغت حدها الاقصى ، مما يعرض استقرار الحكم الاسباني في الجزيرة لمخاطر •

وبحلول عام ١٥٧٥ لم تعد صقلية قادرة على المشاركة بالمزيد ، واضطرت مدريد لدعم الموازنة الصقلية • وقد كتب الرئيس كولونا Colonna الصقلي ، في سنة ١٥٨١ رسالة توضح لنا بدقة مهذبة ، كيف امكن تحمل هذه الأعباء المتصلة بحروب البحر المتوسط ضد العثمانيين بشكل مباشر ، اذ يقول : « طوال خمس سنوات قضيتها هنا لم أسأل هذه المملكة ضريبة واحدة استثنائية •• لقد خفضت المصروفات العادية وفوق العادية ، وقدمت كل ما طلبه جلالته مني ، وخلصت هذا البلاط من جانب كبير من ديونه » •

ولقد تحول الموقف بوضوح (في غير صالح العثمانيين)

منذ سنة ١٥٧٥ والتفسير الوحيد المحتمل ، لهذا التحول يمكن ارجاعه الى تقلص حجم العمليات البحرية العثمانية بحدة في الأعوام التى تلت معركة ليبانتو • وعلى هذا فقد كانت المتاعب الاقتصادية الاسبانية في كثير من جوانبها — ان لم تكن كلها — راجعة للضغط العثماني وتكاليف مقاومته الباهظة • وبنفس القدر يمكننا أن نتناول كثيرا من المشاكل الاجتماعية ، خاصة تلك التى سببها المسلمون الاسبان الذين أجبروا على التحول للمسيحية بالقوة • فقد كانت الحكومة الاسبانية — نتيجة خوفها من امتداد السيطرة العثمانية في شمال أفريقيا مضطرة لاجبار مسلمي الاندلس على التحول للمسيحية ، أو طردهم من البلاد • وطبق هذا على مسلمي قشتالة في سنة ١٥٠٢ ثم على مسلمي بلنسية Valencia في سنة ١٥٢٥ ثم على مسلمي اراجون في سنة ١٥٢٦ وكانت تدعم هذه السياسة ، اجهزة محاكم التفتيش المرعبة وكانت نتيجة هذه السياسة ، سيلا من اللاجئين الذين حملوا معهم امتعاضا مريرا ، وكان بغضهم للحكومة الاسبانية وما كان متوفرا لديهم من معلومات عن البلاد الاسبانية ، أحد العوامل التى زادت من غارات سكان شمال أفريقيا ، والعثمانيين على السواحل الاسبانية ، وجعلتها أكثر فعالية وتأثيرا • كما كان حكام اسبانيا يواجهون لفترة طويلة ثورة سرية عنيدة قام عليها المسلمون الذين تحولوا للمسيحية في الظاهر فقط •

وفي بلنسية وأراجون ، كان المسلمون يمثلون السكان الأساسيين المنخرطين في سلك العمالة الزراعية ، حيث كانت خصوبة التربة وازدهار الصناعة — تجعلهم مصدرا نفيسا لا يقدر بثمن للارستقراطية المحلية ، لهذا كانت سياسة الحكومة في هذه المناطق تمثل احباطا للنبلاء الذين كان يهمهم بقاء القوى العاملة واعتبروها — أي القوى العاملة الاسلامية — جديرة بأن يناضلوا من أجلها • لذلك عندما نشبت ثورة المسلمين في بلنسية في سنة ١٥٢٦ رفض أصحاب الأراضي في المنطقة أن يتعاونوا مع السلطات

فى قمعها ، مما حدا بمدريد الى اناطة المهمة (اخماد ثورة المسلمين) الى فرق من المشاة الألمان الذين جلبوا خصيصا لذلك الغرض ، مما أدى الى تكبد الحكومة لتكاليف باهظة • ومهما يكن فقد كانت مملكة غرناطة التى سقطت حديثا ، والتى كانت تضم عددا كبيرا من السكان المسلمين ضمن الطبقة الحاكمة قد شهدت ثورة على درجة كبيرة من الخطورة ، اذ كان المسلمون الاسبان يثورون كلما وصلتهم تقارير عن الأعمال البطولية الفائقة التى كان يقوم بها قراصنة (مجاهدو) شمال أفريقيا منذ اوائل سنة ١٥٦٠ • وقد انضم عدد كبير من المسلمين الأسبان للقوات العثمانية أثناء حصار مالطة سنة ١٥٦٥ مما سبب للاسبان متاعب كبيرة ، وكان القلق والاضطراب والشك يتفاعل فى أجهزة الحكومة الاسبانية ، وقد دفعها هذا الى القسوة والوحشية البالغة فى معاملة المسلمين ، وقد أدى هذا بدوره الى أن قام المسلمون الأسبان بثورة عارمة فى سنة ١٥٦٨ • وبحلول عام ١٥٦٩ بلغ المتمردون المسلمون ١٥٠٠٠٠ وقد تزامنت هذه الأحداث مع فترة كانت الحكومة الأسبانية تعانى فيها مصاعب جمة ، فقد كانت الفرق العسكرية الرئيسية غائبة عن أسبانية ، اذ كانت فى الأراضى المنخفضة يقودها دوق البا Alba ، ولم تكن القوات البحرية المعدة لخفر السواحل قادرة على قمع الثورة الاسلامية ، أو منع الامدادات القادمة للثوار من الجزائر • ولم تكن ثورة المسلمين الأسبان الا بعد معركة خريف ١٥٧٠ ، حيث قمعت القوات الأسبانية هذه الثورة بطريقة بربرية • ونتج عن انتصار الحكومة على المسلمين الثائرين ، اتخاذ ترتيبات قاسية تفوق كل تصور ، وتم ترحيل هؤلاء الأجانب غير المرغوب فيهم بشكل جماعى وقد أدى هذا الى خسائر فى الأرواح كما أدى الى معاناة مريرة فقد نقل من تبقى من المسلمين قسرا من غرناطة الى الولايات الأخرى الآمنة ، مثل استريمادورا Estremadura وجليقية Galicia وقشتالة القديمة •

وقد أدى هذا الى تصدير مشاكل المسلمين الى مناطق لم تكن قد عانت منها بعد ٠

ونتيجة للاضطرابات التى عمت خلال الحقب الأخيرة من القرن السادس عشر ، بذل المسئولون الأسبانيون محاولات لفصل المسلمين الأندلسيين عن حلفائهم فى شمال أفريقيا ، بمنع تسهيل وصولهم الى المناطق الساحلية ، اذ تم اقصاؤهم عن منطقة الأندلس (أندلوسيا Andalusia) فى سنة ١٥٧٩ ، وعن بلنسية فى سنة ١٥٨٦ ٠ وقد كتب مسئول حكومى أسبانى فى تقرير له « يجب أن نصنف كل المسلمين كأعداء لنا » ٠ وقد أدت هذه الاجراءات المتسمة بالعنف الشديد والمعاملة القاسية الى تضاؤل عدد المسلمين الاسبان، واضطر عدد منهم الى ممارسة الجريمة واللصوصية، متخذينها كأسلوب حياة عادى ٠ وأخيرا ففى سنة ١٦٠٩ أعلنت الحكومة افلاس سياستها رسميا ، وقررت طرد كل المسلمين من أسبانيا ٠

لقد بدا واضحا ، أن تنظيمات وترتيبات مقاومة التقدم العثمانى ، قد جعلت حكومة الهبسبرج فى أسبانيا تنخرط فى أعمال ونشاطات غير مجدية ، مما افسد الآمال الكبار التى كان شارل الخامس قد عقدها على ارثه الأيبيرى منذ سنة ١٥١٦ ٠ لقد ألقت الاتجاهات الانفصالية والتقسيمية على الصعيدين السياسى والاجتماعى ، ظلالها على قضايا أسبانيا الكبرى ٠ لقد كان زواج فرديناند وايزابيلا ، مجرد بداية لمحاولة تحلق سائر مناطق الاقليم حول الملكية ، لكن فترة طويلة من النشاط الادارى الدؤوب كانت ضرورية لتوحيد المجتمع الاسبانى وتواؤمه معا ٠ لقد كانت حروب البحر المتوسط الصليبية ضد العثمانيين قد أضاعت الوقت والطاقة اللازمين لهذا المشروع (توحيد أسبانيا) ٠ لقد كانت الحكومة الاسبانية مضطرة لتقديم تنازلات أمام المصالح الأنانية والانفصالية ، لأن ضغوط ومتطلبات الحرب صرفتها عن الاهتمام بالوحدة الحقيقية ،

فبقيت الوحدة مجرد واجهة كاذبة ، اذ لم تتفرغ الحكومة لمواجهة القضايا الداخلية العميقة. وفي القرن الثامن عشر، كتب موظف مدني أسباني عن بلده أسبانيا :

« انه جسم مكون من أجسام أخرى أصغر ، أجسام (كيانات) منفصلة يعادي بعضها بعضا ، وتناقض رغبات بعضها ، رغبات بعضها الآخر ، وفي حالة حرب دائمة . وكل مؤسسة دينية ، وكل ولاية ، وكل مهنة ، منفصلة عن بقية الأمة ، ومتقوقعة على نفسها .. ان أسبانيا الحديثة يمكن اعتبارها جسدا هامدا بلا طاقة . انها كجمهورية ضخمة شاذة مكونة من جمهوريات أصغر ، يواجه بعضها بعضا ، نظرا لأن المصالح الخاصة لكل منها تناقض المصلحة العامة » .

ان أسبانيا القرن الثامن عشر ، العقيمة والمنغلقة على نفسها ، هي نتيجة الفرص الضائعة في الحقب السابقة . وليس هناك تفسير واحد لهذا الفشل المتعاقب ، ولكن كثيرا من أسباب هذا الفشل يمكن ارجاعه الى المعاناة الخانقة التي فرضت على الدولة والمجتمع الاسباني في القرن السادس عشر ، نتيجة الصراع الطويل مع الاسلام في البحر المتوسط.

ايطاليا :

لقد كان أصحاب البنوك الايطاليون ، الذين لعبوا لعبة القروض الربوية ، والعقود التجارية ، والذين أوقعوا في شراكهم كل المؤسسات التجارية — هم المؤثرون الرئيسيون والمستفيدون الكبار ، والضحايا ، في بعض الأحيان — للتوسع الاستعماري الاسباني . فقد تعرض التوسع الحضاري المتألق ، وازدهار المدن ، الذين مازا ايطاليا في أواخر العصور الوسطى (ايطاليا النهضة) لمعاناة التخريب والدمار ، خلال بواكير القرن السادس عشر ، عندما أصبحت شبه الجزيرة الايطالية مسرح حرب للقوى الأجنبية المتصارعة ، ممثلة في فرنسا وأسبانيا والامبراطورية

الرومانية المقدسة ، ومع هـذا فقد ظلت مجمـوعة الدول الايطالية تشكل أكثر مجتمعات أوروبا خصوبة وحيوية .

فقـد كانت المستعمرات التجارية والأراضى التابعـة للجمهوريات الايطالية التجارية فى البحر الاسود والبلقان وبحـر ايجـه والشرق الأدنى ، هى التى جعلت الايطاليين يعانون فى وقت مبكر ، وعلى نحو متعاقب ، من الاحتكاك مع الامبراطورية العثمانيـة المتوسعة . ففى القرن السـادس عشر ، وعندما أحـكم العثمانيـون قبضتهم عـلى البلقان وفتحوا الشام ومصر ، وتحالفوا مع دول القرصنة فى شمال أفريقيا وظهورا كقوة بحرية عدوانيـة ـ غدت ايطاليـا عرضة لهجمات المسـلمين ، بصـورة متزايدة ، وفى نفس الوقت ـ وأحيانا ، بعـد ذلك ـ كان جزء كبير من شـبه الجزيرة الايطالية ، ممثلا فى نابلى وجنوة وميلان وصقلية ـ وقد اندرج ضمن النظام الاستعمارى الاسبانى . وكلما تصارعت الامبراطوريتان ، العثمانية والهبسبرجية ، فى البحر المتوسط ـ أصبحت ايطاليا تقف فى الخط الأول ، فى مواجهة الأعمال العدائية ، الناتجة عن هذا الصراع . لقـد أصبحت البندقية وأنكوناومسينا ونابلى وجنوة ، هى أكثر النقاط حساسية وتأثرا، بالصراع الأوربى العثمانى .

وسنتناول هنا الدولتين الايطاليتين ، جنوة والبندقية، كمينتين مختارتين ، لنقدم من خلالهما ، توضيحات محددة ، عن التأثير العثمانى العام، على النظم الاجتماعية والاقتصادية فى ايطاليا . وعما ـ أى جنوة والبندقية ـ تختلفان اختلافا بينا فى تكوينهما الداخلى وتراثهما السـياسى ، عن غيرهما من الكيانات الايطالية . فحكومة البندقيـة كانت احتـكارا خالصا لارستقراطية تجارية ذكية راسخة ، ليس من تحـد تواجهه . أما جنوة فكانت مسرحا لصراع بين الأرستقراطية ـ التى كونت ثرواتها ونفـوذها من خـلال أعمال الصرافة والبنوك والتجارة الدولية ومن خلال ممتلكاتهـا ومزاياها الاقطاعية ـ والطبقة الوسطى Poplo grasso ممثلة فى الصناع والتجار .

وقد استطاعت البندقية أن تتخلص من أسوأ تأثيرات الحروب الايطالية فى بواكير القرن السادس عشر وبقيت مستقلة عن الدول الملكية الواقعة وراء الألب ــ وذلك بفضل سياستها (أى البندقية) الحذرة ، ولاحتفاظها بشريط غنى عامر وعريض من اليابسة ، وهو شريط محمى ، أو يمكن الدفاع عنه ، يمتد من برجامو Bergamo الى نهر ايسونزو Isonoza • أما جنوة ، فبحكم انهـا كانت مفتـاحا استراتيجيا لايطاليا ، بالنسبة لكل من فرنسـا وأسبانيا ، فقد كانت ــ وبصورة دائمة ــ تحت حماية واحدة أو أخرى من هذه القوى الكبرى المتصارعة •

وقد تعرضت الدولتان (جنـوة والبندقية) للضغط العثمانى ، فقد عانت كلتاهما ، فى نفس الـوقت ، وعـلى غير رغبتهما دائما ، من النتائج المدمرة للمقاومة التى كان يقودها هبسبرج أسـبانيا ضـد العثمـانيين ، فى القرن السادس عشر •

لقد كانت الجمهوريات البحرية الايطاليـة ، قد دست أنوفها وتغلغلت بعمق ــ خلال الحروب الصليبية وبعدها ــ فى الحياة الاقتصـادية ، لجنوب شرق أوروبا والبحر الاسود والشرق الأوسط • وعادة ما كانت معظم مسـتعمراتهما (جنوة والبندقية) ، فى هذه الأنحاء ، موانىء ــ ومثـال ذلك كافا Caffa المطلة على البحر الأسود ، وكانت تابعة لجنوة ــ أو جزرا ــ مثل قبرص التى كانت تديرها طبقـة مالكة من أصول ايطاليا • كمـا قام الجنـويون والبنادقة بتأسيس مستوطنات تجارية هامة لها حقوق تحميها الاتفاقات والمفاوضات ، اللائى تضمن لرعاياهما امتيازات خاصة ، اذ كانوا لا يخضعون خضوعا كاملا لقـوانين البـلاد التى يقيمون فيها ، وكانت أكثر هذه المستوطنات والتجمعـات أهمية ، هى تجمعات البنادقة فى بيروت والاسكندرية ، وحى أهل جنوة فى القسطنطينية ولقد كان التجـار الايطاليـون يشحنون البهارات ، كالفلفل الأسود والقرنفل والزنجبيل ــ

الوارد من الشرق الأقصى كما كانوا يشحنون الحرير من موانىء سوريا ومصر ، ويجلبون الشبة والفواكه المجففة من آسيا الصغرى ، ويأتون بالزيت والنبيذ من جزر اليونان ، أما من أوروبا البحر الاسود ، فيجلبون الفراء والشحوم الحيوانية والأسماك المجففة والعبيد الموسميين ، وفي حالة البندقية ، فان البنادقة كانوا يجلبون الحبوب من مولدافيا (البغدان) وفاليشا (الأفلاق) ومقدونيا وقبرص.

ولقد هددت الفتوحات العثمانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، هذه المحطات أو المراكز والمستوطنات، والتي كانت تدر أرباحاً مهولة . لقد تأثرت البندقية خصة بهذا التوسع العثماني ، فقد كان تجارها يسيطرون على تجارة البهار ، التي وقعت مراكزها في الشرق في أيدي العثمانيين في عامي ١٥١٦/١٥١٧ . وقد كان الشرق الأوسط أكبر أسواق المنسوجات الصوفية البندقية ، ومنه – أي من الشرق الأوسط – كانت ترد للبندقية احتياجاتها من الحبوب ، وقد أضحى الشرق الأوسط الآن، (بعد ١٥١٦) في حوزة العثمانيين ولمواجهة هذه المحنة ، عمدت البندقية الى تنظيم قواها البشرية وطاقاتها الادارية ، فقد كانت حكومة البندقية أكثر حكومات أوروبا مهارة في النواحي الاقتصادية ، اذ كانت ذات باع في أساليب التجارة والنقل والحروب البحرية والدبلوماسية ، وأعمال الجاسوسية ، لكل هذا كان رد فعل البنادقة ازاء التوسع العثماني ، يتسم بالمكر والمرونة في آن واحد . فلم تكن جمهورية البندقية لتجد صعوبة في رفض رد الفعل الصليبي ضد العثمانيين في القرن السادس عشر ، وهي التي كانت مسئولة في بواكير القرن الثالث عشر عن انحراف الحملة الصليبية الرابعة عن غرضها ، لتصبح حملة سلب ونهب على الامبراطورية البيزنطية . لقد كان نمو القوة العثمانية يشكل للبنادقة مشكلة خطيرة ولكنه لم يكن يشكل لها بالضرورة قضية صليبية ، فقد استثمر البنادقة طاقاتهم لتقديم مساعدات للعثمانيين بقصد كسب اعترافهم ، وكانوا

يعودون لممارسة نشاطاتهم وتجاراتهم فى منـاطق الدولة العثمانيـة ، اذ لم يكن وقف هـذا الا لفترات • ففى سـنة ١٥٣٣ ، على سبيل المثال ، عندما اعتزم السلطان مهاجمـة ممتلكات شارل الخامس الايطالية ، وكان قلقا بسبب رغبته فى معرفة تفاصيل عن الاسـتعدادات الأسبانية المضـادة ــ اسـتدعى بيترو زينـو Pietro Zino سفير البندقية فى اسطنبول ، وأسمعه هذه الكلمات :

« اكتب حالا لسيدك Your signoria ليكشف لنا عن تحركات السمك فى قاع البحر ، وليعرف لنا عـدد السفن التى يجهزها الأسبان فى موانيهم ، أكتب حالا » •

ففى هذه الحالة ، وفى حالات أخـرى ، أثبت البنادقة انهم غير عاطفيين فقد كانوا يتبادلون المعلومات ، مقـابل امتيازات اقتصادية • لقـد كانت واقعية البنـادقة تعنى اعترافا صريحا ، لا لبس فيه ولا غموض ، بأن الدبلوماسية وحدها ، غير كافية للحفاظ على وضع جمهوريتهم ، فقـد يجرون ــ غالبا ــ الدخول حرب ضد العثمانيين العدوانيين • لهـذا ، كانت الاستراتيجيـة التى تبنتها البندقيـة تتميز بالواقعية والحذر والعناد ، وبالرغبـة فى الحفـاظ عـلى المصلحة الذاتية • لقد كانت هذه الاستراتيجية ترتكز عـلى مبدأين : أولهما ، تحصين المواقع الهامة فى ممتلكاتها فيما وراء البحار ، تحصينا فعالا ، للتمـكن من مقاومة حصـار طويل ، وثانيهما متعلق بالحرب البحرية ، اذ فضل البنادقة الحروب القصيرة الأمد ، والحاسمة فى نفس الوقت ، وذلك نظرا لفقر الجمهورية ذاتها فى الموارد المادية ، مما جعلهـا تركز على المهارات الفنية (التقنية) والادارية كعامل فعال لاحراز نصر حاسم سريع وانطلاقا من هذا النصر السريع يمكن للدبلوماسية أن تتدخل لتحرز أكبر قدر من المكاسب والمزايا •

وقد اتضحت قيمة التحصينات الشديدة فى سنة ١٥٣٧، عندما اضطر العثمانيون لرفع الحصار عن كورفو Corfu

بعد اجتياح الجزيرة ، ولكنهم فشلوا في اخضـاع القلعة قبل بداية الشتاء • وقد فقدت البندقية يوبيا Euboea في سنة ١٤٧٠ ، ولكنها احتفظت بقبرص في سنة ١٤٨٩ ، واستعادت كريت والجزر الواقعة غرب اليونان ومستعمراتها على ساحل دلماشيا والمورة ، ولم تفقـد الا منـاطق صـغيرة لصـالح العثمـانيين في قبرص في سـنة ١٥٧٠ ، وظلت محتفظة بكريت فلم تفقدها الا سنة ١٦٦٩ بعد حصار دام ٢٤ عاما • وعندما بدأت القوى العثمانية أخيرا في التفاؤل، كان البنادقة قد استولوا على معظم المـورة وفقا لمعـاهدة كارلوفتس سنة ١٦٩٩ • وفي أواخر الثلاثينات من القرن السادس عشر ، ومرة أخرى في أواخر السبعينات من نفس القرن ، حاول البنادقة تغيير استراتيجيتهم البحرية بشـكل واضح • فقد آثار أندريا دوريا ، قادة البنادقة ، برفضـه الانضمام للاسطول المتحالف ضد العثمانيين عند بريفيـسـا Prevesa • وكان القادة البنادقة راغبين بانتهاز هذه الفرصة النادرة لاحراز نصر سريع على القوات العثمانية التي وان كانت كبيرة العدد ، الا أن البراعة كانت تعوزها • أما أندريا دوريا ، والدى سبق له أن اشترك في خطة دفاع طويلة الأجل ، عن ايطاليا الاسبانية وحوض البحر المتوسط الغربي – قد قرر ألا يخاطر بأسطوله في سبيل نصر مشكوك فيه ، خاصة وأن أسطوله كان يعد الأداة الوحيـدة الفعالة ضد القوات البحرية العثمانية وكان دوريا يرى أن هـذا النصر حتى لو تحقق فلن يمكن لأسبانيا استغلاله • ويشبه هذا الموقف ، ما حدث في آخر هذا القرن السادس عشر ، فبعد أن ساهمت البندقية بفاعليـة في النصر الذى حققه الحلف المقدس ضد العثمانيين في معركة ليبانتو سنة ١٥٧١ ، تزايدت رغبتها في الانسحاب من هذا الحلف ، وتم انسحابها منه فعلا في سنة ١٥٧٣ •

ومع فقدان قبرص وتأثر اقتصاد جمهورية البندقية بسبب الاجهاد الحربي • أصاب البنادقة القلق ، وشرعوا يحاولون انقاذ ما يمكن انقاذه ، اذ لم يكن البنادقة يهدفون

للدخول في صراع طويل مضن ومكلف وغير مفيد ، رغم وضعهم المميز وروحهم المعنوية العالية الناتجة عن نصر ليبانتو ، غير أن البندقية ، نادرا ما كانت قادرة على وضع هذه الاستراتيجية موضع التنفيذ بشكل قاطع ، لوقوعها في دائرة الصراع الكبرى بين الأسبان والعثمانيين • فقد كان البندقة يعانون بشدة من فقدان ممتلكاتهم عندما يضطرون لخوض صراع ضد العثمانيين كما حدث عندما فقدوا قبرص في القرن السادس عشر ، وكريت في القرن السابع عشر ، لهذا فان السؤال القائل : الى أي مدى ، كان انهيار البندقية الاقتصادي ، في بواكير القرن السابع عشر ، كان من نتائج التوسع العثماني ؟ سؤال قائم وتقليدي • لقد كان المؤرخون يرجعون أسباب هذا الانهيار للكشوف الجغرافية ممثلة في اكتشاف البرتغال طريق راس الرجاء الصالح المؤدي الى مراكز البهار في الهند والشرق الأقصى • وهذا مؤكد وحقيقي ، والبراهين عليه قائمة ، اذ سببت الكشوف البرتغالية أضرارا خطيرة للبندقية خلال الحقبة الأولى من القرن السادس عشر ، لكن هذه البراهين قد بخست قدر البندقية القادرة على الثبات والمواجهة والتقاط الأنفاس ، حقها • فقد شهد منتصف القرن السادس عشر احياء طرق البهار عبر الشرق الأوسط • ففي خلال الستينات من القرن السادس عشر ، تلقت الاسكندرية شحنات من الفلفل (لا يدفع ثمنها الا بعد بيعها) كانت في حجمها مساوية على الأقل للشحنات التي وصلت الى لشبونة • واستمر البنادقة في تحقيق أرباح من هذه التجارة ، ويتضح هذا اذا علمنا حقيقة أن الفونداكو the fondaco وهم جماعة تجار جنوب المانيا ، قد أقاموا في البندقية لتنظيم امداد وسط أوروبا بالبهار وقد دفعوا أكثر من ٤٠،٠٠٠ دوكات Ducats كضرائب لجمهورية البندقية، خلال الفترة من ١٥٦١ الى ١٥٦٢ ، في مقابل ١٨،٠٠٠ دوكات فقط ، ثم دفعها في سنة ١٤٩٠ ، قبل افتتاح طريق رأس الرجاء الصالح ، وهناك المزيد من الأدلة التي تدعم الرأي القائل بأن المؤرخين قد جنحوا الى اثبات اضمحلال

البندقية الاقتصادى ، قبل حدوثه بحقب ، فبير ساردیلا Sardella قد بين لنا انه فى البندقية ، فى القرن السادس عشر ، كانت صناعات بناء السفن والصناعات الخزفية وتكرير السكر والطباعة والصناعات الزجاجية - منتشرة ومزدهرة • كما كان سكان البندقية قد ارتفع عددهم في منحنى احصائى سليم من ١١٥٫٠٠٠ فى سنة ١٥٠٩ الى ١٩٨٫٠٠٠ في سنة ١٥٦٣ • الا أنه فى مطلع القرن السابع عشر صارت شواهد الاضمحلال واضحة جليه • وكان هذا ظاهرا فى مجال صناعة وتصدير الاقمشة الصوفية التى كان لها أهميتها الأساسية فى اقتصاد البندقية • ففى سنة ١٦١٢ كتب السفير الانجليزى فى البندقية يقـول :

« ••• وحتى بضائع هذه المدن التى جرت العادة بحملها الى سوريا قد بدأت تضمحل ، فلعدة سنوات ماضية كان متوسط التصدير الى سوريا يتراوح ما بين ٢٤٫٠٠٠ و ٢٥٫٠٠٠ حمل من الملبوسات الا أنه فى هذه السنه الأخيرة (١٦١١) لم يصدر الا ١٥٫٠٠٠ ويعتقد أنه فى السنة القادمة سينحدر معدل التصدير الى ١٠٫٠٠٠ أو ١٢٫٠٠٠ ، وتقدم لنا وثائق البندقية المعاصرة لهذه الفترة تأكيدا لهذا الحكم الذى أسلفناه وتؤكد بنفس القدر أن دخول البندقية الحرب القبرصية فى الأعوام من ١٥٧٠ الى ١٥٧٣ كان هو المسئول فى المقام الأول عن تردى أوضاعها الاقتصادية ، فقد حرم فقدان قبرص، البندقية، من مركز هام لانتاج الغلال والنبيد وحرمها ميناء هاما كانت ترتاده سفنها التجارية فى طريقها الى الموانىء الشامية والمصرية للاستجمام والتزود • ولم يكن هذا الا واحدا من سلسلة الكوارث والنكبات التى ألمت بالبندقية • ففى نفس الوقت لحق البندقية ضرر بسبب اضطراب التجارة الشرقية فقد كانت هذه التجارة قد اعتراها شلل بسبب التكاليف الباهظة للتأمين البحرى خلال الفترة التى كان فيها البحر المتوسط مسرحا لعمليات حربية بحرية كثيفة • وكانت طاقات وامكانات صناعة السفن فى

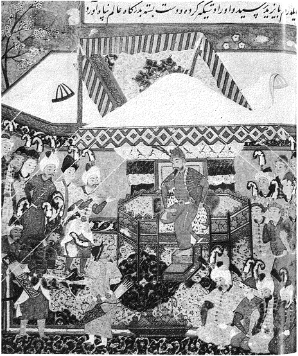
البندقية تعانى من التكاليف الباهظة التى تستنزفها ، بسبب ما كانت تقدمه هذه الدور الصناعية للاساطيل المسيحية ، من مساعدات أدت الى انتصارها في ليبانتو • وفى سنة ١٥٧٣ دخل التجار الانجليز مرة أخرى الى البحر المتوسط بعد غياب دام أكثر من عشرين سنة • وباع هؤلاء التجار الانجليز كميات كبيرة من الملابس الرخيصة ، وكانوا يمارسون التجارة مستخدمين سفنا شراعية أسرع وأكثر أمنا وسعة من السفن الشراعية ذات المجاديف التى كان يستخدمها البنادقة ، مما جعلهم منافسا للبنادقة له وزنه وقيمته ، وفى سنة ١٦١٢ تم تأسيس ٢٠ مؤسسة أعمال انجليزية في اسطنبول ، بينما تضاءلت مراكز البندقية فى نفس المدينة (اسطنبول) الى خمسة فقط ، وأشار الملقون البنادقة الى أن الانجليز قد دخلوا عالم البحر المتوسط ، نظرا لأن الحروب العثمانية الاسبانية قد حفزتهم (أى الانجليز) بمطالبها اذ كان العثمانيون فى حاجة الى الملابس والأطعمة والمعادن ــ خاصة الصفيح ــ لاستخدامه فى صب المدافع •

وفوق كل هذا ، فانه خلال حرب قبرص ، وبعدها ، كانت سفن البندقية التجارية تتعرض للاحقات قاسية من قبل القراصنة المسيحيين والمسلمين على السواء ، وقد كان هؤلاء القراصنة قد مدوا نشاطاتهم نتيجة الصراع العثمانى الأسبانى • وقد كان القراصنة جماعات غير منظمة تشن حروبا بحرية واسعة النطاق ، وهى جماعات من السهل جمعها بتكاليف يسيرة ، ومن الصعب تسريحها ، وعندما يتحقق السلام فانها تبدأ في الانقضاض على الطرف الأضعف ، ولقد كان اقتصاد البندقية دائما حساسا للغاية ازاء القرصنة ، وذلك منذ وقت باكر يعود الى سنة ١٥٠١ • فعندما وصلت أخبار مفادها أن كمالى Kemali ــ القرصان التركى الذائع الصيت ــ بدأ يمارس أعماله فى بحر ايجه ، فقد أدى هذا الى ارتفاع لحظى (فورى) فى تكاليف التأمين البحرى، من مجرد ٢٪ الى نسبة كبيرة هى ١٠٪• لكن

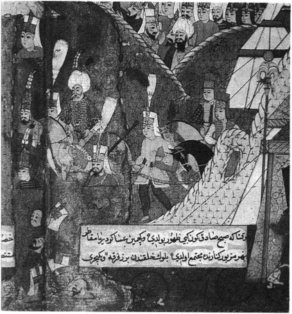
الصراع العثماني الأسباني وحده هو الذى أنتج هذه المشكلة (القرصنة) التى تعاظمت لدرجة يصعب معهـا السـيطرة عليها ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها من الناحية الرسمية لم تتـوقف القرصـنة بل ازدادت ضراوة ، وذلك خـلال الثمانينات من القرن السادس عشر · وعلى حد قول السفير الفرنسى فى البندقية فى سنة ١٦٠٧ : « ان هذا المكان مربوء كله بخطر القراصنة ، لكن أغلب الصناع والتجار المحليين لا يبذلون جهودا حقيقية لدرء هذا الخطر » وفى سنة ١٦١٢ أضاف زميله الانجليزى فى أحد تقاريره قائلا : « ان هؤلاء السادة (حكـام البندقية) مدانون بسبب غفلتهـم وعـدم اهتمامهم بتقديم الحماية الكافية أو ارسالهم بعض السفن بهدف مواجهة القراصنة ، فهذا أمر لم يعيروه أدنى اعتبار ، كأنما فقدوا عقولهم وعزب عنهم الرأى » ·

وقد جابهت سفن البندقية التجارية أقسى امتحان لهـا من قبل الجماعات المعروفة بالاسكوس Uskos وهم لاجئون من الصرب والبوسـنة وطنهم الهبسبرج النمسـاويون فى كارنيولا ــ فقد أجبرت هجمـاتهم ، فى نهـاية المطـاف ، جمهورية البندقية على الدخول فى الحرب باهظة التكاليف التى عرفت بحرب الاسـكوس ، فى بحـر الادرياتيك ، فى السنوات من ١٦١٤ الى ١٦١٧ ·

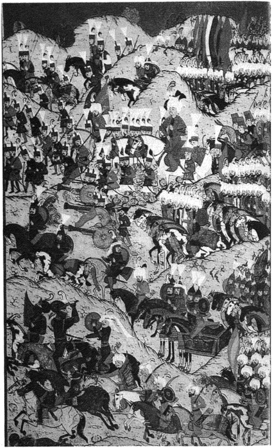
وبالطبع لم يكن انهيـار اقتصـاد البندقيـة ، نتيجة للتوسع العثمانى فحسب ، كمـا لم تكن كل الأمور ناتجـة عن حوادث أوائل السبعينات من القرن السادس عشر ، اذ ثمة عوامل أخرى يجب وضعها فى الحسبان ، ومن أبرزها الآثار السلبية للتشريعات المقيدة لصناعة البندقية ، فحكومة البندقية ــ فى سبيل الحيلولة دون التنـافس الاقتصـادى المدمر بين مواطنيها ، أوجدت غابة من اللـوائح والقيـود التى تعوق الاستثمار ، وتجهض الابداع والتجديد ، وعـلى هذا فمن المحال أن نهرب من النتيجة العامة التى وصل اليها المؤرخون فى عرضهم للاحداث ، والتى مؤداها أن انهيـار اقتصاد البندقية ، كظاهرة تاريخية ، كان قد أملاه وتحكم



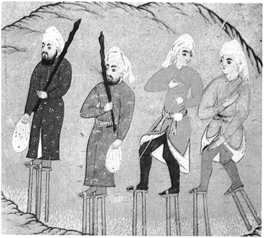
هذا الرسم الفارسي يظهر السلطان العثماني بايزيد الثاني يتذلل أمـام الامبراطـور المغولى تيمور . (طبعا من وجهة نظر فارسية)



استنزفت المناوشات الحدودية المستمرة جهود الرجال وطاقاتهم . والصورة تبين بعض الجنود الانكشارية يتعرضون للغرق أثناء عبورهم نهرا (من أحد مخاضاته - أي مخاضات النهر) والصورة لفنان تركى رسمها سنة ١٥٨٢



صورة انطباعية لفنان تركى توضح انتصار السلطان سليمان القانونى
(الفاخر) على الجيش المجرى فى معركة موهاكس سنة ١٥٢٦



الجليد والعثمانيون فى بلجراد   لقد اسهمت العوامل الجغرافية والمناخية خاصة
فى إيقاف التوسع العثمانى فى أوربا

فيه : ذلك الانفجار الهائل الحادث في القرن السادس عشر ، ونعني به ظهور القوة العثمانيـة ، ورد الفعـل الأوروبي المضاد لها .

وبينما كان التوسع العثماني يضع البندقية على طريق الخراب ، فانه — أي العدوان العثماني — قد أدى الى ازدهار جنوة ، وان كانت هذه الحقيقة لم تكن واضحة للعيـان في بداية الأمر ، فالمـراكز الجنـويه في المشرق ، كانت أسرع استسلاما للغزاة العثمانيين من مراكز البنادقة . فقد فقـد الجنويون فوكيا phocaea مركز الشبه في آسـيا الصغرى — في سنة ١٤٥٢ . ولما كان التجـار الجنـويون مرتبطين بالامبراطورية البيزنطية ، ارتباطا وثيقا ، سواء بعاصمتها ، أم بالمنطقة التجارية في البحر الأسود ، لذا فقد ذهب ازدهارهـم التجـاري أدراج الـرياح بسـقوط القسطنطينية . أما كافا Caffa والموانيء الأخرى في البحر الأسود فقد وقعت في أيدي العثمانيين في سنة ١٤٧٥ . وفي بحر ايجه ، فقدت جنوة كلا من أمبروس Imbros الليمنـوز Lemnos وساموثراس Samotherace في سـنة ١٤٥٦ ، كما استسلمت ليسبوس Lesbos في سنة ١٤٦٢ . وكان المركز الأمامي الوحيد المتبقي للجنويين هـو جزيرة شـيوز Chios الغنية ، غير أن العثمـانيين قد حاصروها ونهبوها في سـنة ١٥٦٦ ، أثر غضبهم عقب هزيمتهم في مالطة في العام السابق (سنة ١٥٦٥) . ولم يكن للجنويين القدرة على الانسحاب على أفضل وجه ، بالطريقة التى كان البنادقة يحسنونها ، فالجمهورية الليجورية — التى شـاع فيها التنافس الفردي المسـعور ، في المجـالين ، التجـاري والسـياسي — كانت تبعـا لذلك تفتقر الى رصـيد الغـيرة الوطنية ، الذي يمكنها التعويل عليه ، مثلها مثل البندقية . فمنذ القرن الرابع عشر ، كانت جنوة في حالة نزاع مرير، ناشب بين قدامى النبلاء والطبقة الوسطى Poplo Grasso أحرزت الفئة الأخيرة السـيطرة عـلى الحكومة منذ سنة

١٣٣٩ • وبفضل الأسرات الفنية القوية، كأسرة صولى Sauli وجستنيانى Guistiniani ــ سيطروا على تجارة مدينة جنــوة القادمة من الشرق • وخــلال القرن الخــامس عشر ، كان الأرستقراطيون يجمعون خيوط الامور الداخلية فى ايديهم، كما تناقصت التجارة المشرقية تحت ضغط التوسع العثمانى، ونتيجة قيــام مصرف (بنك) القــديس جورج للتســليف الحكومى ، فى سنة ١٤٠٧ ، والذى هيمنت عليــه رابطــة الارستقراطيين • لقد كانت الالتزامات المتزايدة والخسائر المتوالية ، فى البحر الاسود والشرق الأوسط ، قد أغرقت حكومة الطبقة الوسطى الجنوية فى مصاعب مالية مزمنة لم يكن من السهل مجابهتها الا بالتخلى عن أرض الدولة (المراكز التجارية فى الخارج) وقبول رهن الأراضى مقابل القروض• وفى بواكير القرن السادس عشر ، وجدنا المراقب الفلورنسى الداهية ، نيكولو مكيافللى Niccolo Machiavelli قد لاحظ معنى هذا التطور واقترح عــلى النبلاء ، أنهم باحتــكارهم قدرا كبيرا من السلطات الادارية ، فى فترة تكون الحــكومة فيها قد غرقت فى المشاكل الحزبية او الحربية أو أصيبت بعــدوان خارجى ، فانه من المحتمــل ســاعتها أن يقفزوا (النبلاء) للحكم ، مزيحين بذلك الطبقة الوسطى عنــه • وباختصار فان الارستقراطية الليجورية ، من خلال سيطرتها على الميزانية العامة ، تسللت مرة أخــرى للنفوذ السياسى ، وعلى هذا فان الخلافات والصراعات الداخلية كانت هى السبب الأول ، لفشل جنوة ، فى مقاومة الغزو العثمانى ، مقاومة فيها عزم وتصميم وتنظيم • وثمة تفسير أبعد من هــذا ، يتمثل فى الفرص المدهشة والاستثنائية والتى تجلت أمام الجنويين فى أواخــر القرن الخامس عشر وبواكير القــرن الســادس عشر ، لتسد مســد الخسائر التى نشــأت بسبب استيلاء العثمانيين على مستعمراتهم الشرقية فقد كان انهيار امبراطوريتهم الاســتعمارية التجــارية فى البحــر الأســود والشرق الأدنى سببًا فى تكيف اقتصــاد جنــوة تكيفا كبيرا (اعادة توجيهه) بتأسيس امبراطورية تجارية ومالية فى

ممالك أيبيريا الصاعدة وملحقاتها • وفي ذروة هذا التطور خلال القرن السادس عشر ، اختلف تكـوين الامبراطورية الجنوية عما كانت عليه قبل وقوع ملحقاتهـا ومـراكزها التجارية الشرقية في يد العثمانيين ، ويكمن هذا الاختلاف في أمور ثلاثة : لقد أصـبحت امبراطورية اقتصـادية في الأساس ولم تعد تعتمد على ضم أراض ، كما أصبحت تركز على الأمور المالية والعقود أكثر من تركيزها على التجـارة التقليدية رغم وجود استثناءات بطبيعة الحال ، وثالث هذه الأمور أن هذه الامبراطورية الاقتصادية قامت على أكتاف الارستقراطية النيجورية التي أزاحت الطبقة الوسطى وحلت محلها ، وأصبحت هي ــ أي الارستقراطية الليجورية ــ هي الطبقة الحاكمة في سنة ١٥٢٨ •

وكلمـا انتعشت البرتغال خلال القرن السادس عشر كلما وجدنا ممثلين عن بيوت أعمال الارستقراطية الجنوية ينسابون الى لشـبونة ، كمؤسسـة (أو بيت) دوريا Doria وسنتريون Centorione وكاتانيو Cattaneo وسالفاجو Salvago وسبينولا Spinola وفي سنة ١٥٠٠ سيطروا على تجارة السكر وامتلكوا مؤسسات ومصانع للتكرير في ماديرا Madeira وآزورو Azores وصدروا عبر لشبونة ، الى جنوة ، وسوقوا في أوروبا الجنوبية والوسـطى ، وفي الواقع فان الجنويين الذين أخرجوا من الشرق الأدنى ، قد أصبح حالهم جيدا تماما فراحوا يغترفون من موارد أسبانيا ، ويقومون بدور في اقتصادها المزدهر •

ولقد أظهـر لنا البحث في دور الـوثائق الأرشـيفية بأشبيلية Seville كيف انهم كانوا الوسطاء الرئيسيين في التجارة بين أسبانيا والعالم الجـديد خـلالالفترة من ١٥٠٢ الى ١٥٢٠ ، باعتبارهم حملة الأسهم غير المعلنين في بيوت التجارة الأسبانية ، وباعتبارهم مقرضي نقود وأصحاب وكالات تأمين بحرى • وقد كانت ملحقات التاج الاسباني في البحر المتوسـط ، كسردينيـا والصقليتين قد أصبحت

قرص عسل سائغا فى أفواه الجنويين بفضل انتشار مستوطناتهم التجارية هناك فى أواخر القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر • وفى اسبانيا اشتكى برلمان قشتالة ، بمجلسيه Castilian Cortes ، فى سنة ١٥٢٨ ، من أن الصوف والحرير والصلب والصابون ، أصبحت حكرا على أهل جنوه • ولقد ازداد التوغل الاقتصادى لأهل جنوة واتسع ، فى هذا العام ، عندما انفصل أندريا دوريا Doria الأدميرال الجنوى ، بأسطوله عن خدمة فرنسا ، وانضم الى خدمة الأسبان ، وفى نفس الوقت كان قد أحكم قبضته السياسية على موطنه جمهورية جنوة • لقد تدهورت موارد الطبقة الوسطى الجنويه بفقدان المستعمرات الشرقية ، ولكنها عوضت ذلك بتدعيم وتوسيع مستعمراتهم التجارية الارستقراطية نتيجة استثماراتهم فى أسبانيا • لقد كان الانحياز للاسبان أمرا فرضته رغبة الأرستقراطية الجنوية فى البحث عن الحماية والأمان • ولقد أدى الانقلاب الذى قام به دوريا ، الى قيام مؤسسات وتنظيمات سياسية فى جمهورية جنوة ، انسجمت مع الواقعية الاقتصادية • فعندما صار استيراد الذهب من الامريكتين ، وجلبه الى اشبيليه ، كأنه المد فى تدفقه ، كان ذلك يدفع التوسع الاستعمارى الأسبانى بسرعة فائقة ، وهذا الأمر قد أدى الى ازدياد نشاط رجال المال الجنويين فى أسبانيا ، فخلال أواخر العقد الخامس من القرن السادس عشر ، فاقوا معظم منافسيهم من الألمان ومن الفلورنسيين • ففى سنة ١٥٥٨ تقدمت شركة جريمادى Grimadi بمليون سكودى ذهبى Scudi كقرض واحد للتاج الاسبانى • وكانت هذه القروض ذات نسبة فائدة عالية ، تتراوح ما بين ١٠ و ١٤٪ ، كما كانت هذه القروض تحسب كديون طويلة الأجل ، لهذا كان الدائنون يحصلون على أقاليم بأكملها كمنح ، كما كانوا يحصلون على حجج ملكية ومزايا متعلقة بالضرائب الزراعية (القبالة) اذا ما تخلف التاج عن السداد • اوفى مواجهة تلك الصفقات والتحويلات المصرفية ، كرر البرلمان الأسبانى فى سنة

١٥٤٢ وفى سنة ١٥٩٢ اعتراضه الذى تقدم به فى سنة ١٥٢٨ ، على تطفل الجنويين على الاقتصاد الاسبانى • اذ ضاع على الاسبان ، بغير جدوى ، ما يساوى ٢٤ مليون دوكات ، ذهبت مباشرة للجنويين ، لاعادة دفع الديون ، وذلك وفقا لحساب جرى فى سنة ١٥٩٥، وهذا المبلغ يساوى قيمة المعادن الثمينة الاسبانية التى تم توريدها من العالم الجديد لأسبانيا خلال السنوات الستة والاربعين السابقة على عام ١٥٩٥ •

لقد أدى توثيق العلاقات الرسمية بين جنوة وأسبانيا ، على يد دوريا ، لحاجة الأسبان الملحة للسفن الحربية الجنوية، لتتحمل عبء الدفاع البحرى ضد العثمانيين مما ادى الى فتح باب واسع أمام الجنويين، ليمارسوا من خلاله لعبة التعاقدات البحرية ، فأسطول ايطاليا بقيادة دوريا كان هو ضمان شارل الخامس للسيطرة على شبه الجزيرة الايطالية كماكان ــ اى أسطول دوريا ــ يشكل خط الدفاع الأول عن العالم المسيحى ضد الهجوم الاسلامى • وكانت نواة هذا الأسطول سفن يمتلكها دوريا شخصيا . ويؤجرها لأسبانيا ، لقد كان دوريا ــ اذن ــ متعاقدا بحريا مستعدا دائما وهاما ، ومالكا لاثنتى عشرة سفينة Galleys ، عندما التحق بخدمة شارل الخامس ، فى سنة ١٥٢٨ ، وارتفع عدد السفن التى يمتلكها الى ٣٩ سفينة فى سنة ١٥٥٢ • ولقد كانت دوره السفن هى التى تحكم ايقاع ونبض الجهود الحربية الاسبانية ضد العثمانيين ، فى البحر المتوسط ، فى السنوات الوسطى من القرن السادس عشر • وكان دوريا مسئولا عن تنظيم الرحلات (الزيارات) الضرورية ، التى كان يتعين على شارل الخامس أن يقوم بها الى ايطاليا ، اذ كان دوريا يقدم السفن والبحارة ، ومجموعات زوارق الحراسة والتسهيلات فى موانىء ليجوريا ــ اللازمة لهذه الزيارات ، وتعتبر رحلات (زيارات) شارل الخامس وحدها ، دليلا يوضح دور دوريا كمسئول عن ايصال المسئولين الى حيث يريدون ، بالاضافة الى رحلات الذهاب والعودة ، التى كان يعدها دوريا

لشخصيات أخرى ثانوية ، ومن هذه الرحلات (الزيارات) التى نظمها نذكر : رحلة من بالاموس Palamos الى سافونا Savona فى سنة ١٥٤٩ ، ومن جنوة الى برشلونة فى سنة ١٥٣٣ وفى سنة ١٥٣٦ ، ومن جنوة الى آجيوس مورتيس Aegues Mortes ومن ثم الى برشلونة فى سنه ١٥٤١ ،ومن جنوة الى سبيزيا Spezia ومن ثم الى الجزائر، فى سنة ١٥٤١ ، ومن برشلونة الى سافونا ، ومن ثم الى جنوة ، فى سنة ١٥٤٣ . ولقد تحملت سفن دوريا عبئا ثقيلا آخر ، ممثلا فى نقل الفرق العسكرية ، ففى سنة ١٥٥٠ عندما كان أسطوله مساحلا لنابلى فى طريقه لمهاجمة المهدية قاعدة القرصنة فى شمال افريقيا ، حمل الأسطول ٢٠،٠٠٠ جندى أسبانى ، وفى وقت لاحق ، من نفس العام، أرسل سفنه من سواحل شمال أفريقيا لتحضر مدافع الحصار وتعزيزات المشاة من ايطاليا • وخلال العمليات البحرية فى تراسيا Terracia فى سنة ١٥٥٢ ، استولى العثمانية على سبع من سفن دوريا بما فيها من عسكر ، وفى سنة ١٥٥٩ عندما كانت التجريدة العسكرية الأسبانية تعمل ضد درغوت Draught عند جربة ، قام جيان دوريا (ابن أخ دوريا الكبير) بارسال سفنه لنقل بضعة آلاف من المشاه الألمان والطليان من جنوة الى مسينا Messina

وثمة عدد آخر من النبلاء الليجوريين ، خاصة أسرات نيجرون negrone وامبريال Imperiale وجريمالدى Grimaldi وأوسوديمر Usodimare وسيجولا Cigola قد حذوا حذو دوريا فى هذا المجال • فقد كان الأسطول الذى يقوده جيان أندريا دوريا فى سنة ١٥٦٠ ، يضم بالاضافة الى السفن العسكرية الضخمة التابعة لعمه ، ١٣ سفينة أخرى أجرها متعاقدون جنويون •

واذا ما وضعنا فى أذهاننا هذه المعلومات ــ الجديرة بالملاحظة ــ عن هذا التطفل المالى والاقتصادى للجنويين ، لم يعد مدهشا ما نجده فى التراث والآداب الأسبانية السياسية، من قدح وذم فى أهل جنوة ، ووصفهم بأنهم طفيليون

مصاصو دماء ، فقد أتخم هؤلاء الطفيليون واضعفوا من استضافوهم ، ومع هذا ، فقد كان من الصعب أن يستطيع نظام الهيسبرج المتقل أن يستمر في مواجهة الهجوم العثماني دون الاستعانة بالمهارات المالية والادارية للارستقراطية الليجورية خاصة في مجال الأعمال والملاحة • فالجنويون يتخليهم عن اهتماماتهم التجارية التقليدية في شرق البحر المتوسط وفي البحر الأسود ، لصالح دورهم الجديد في خدمة الاستعمار الأسباني ، كانوا مازالوا يعملون من خلال الأوضاع التى أوجدها التوسع العثماني في القرن السادس عشر ، فالخطر العثماني هو الذى أجبر ومكن شارل الخامس من احياء الأفكار الاستعمارية الأسبانية ، والتى كانت على وشك الاندراس • وكان الخطر العثماني هو الذى حدا بالجنويين الى الاتجاه للامبراطور الاسباني وحلفائه ، اذ كان ابتلاع العثمانيين لمستعمراتهم التجارية في بحر ايجة والبحر الأسود ، قد أجبر الجنويين على نقل اهتماماتهم التجارية صوب أيبريا ، اذ أن الهجمات البحرية التى اشترك فيها العثمانيون وسكان الشمال الافريقي ضد أوروبا المطلة على البحر المتوسط ، والتى كانت ــ أى الهجمات ــ ذات بأس شديد ، والتى بدأها بربروسا في الأربعينات من القرن السادس عشر ، ووصلت ذروتها خلال الستينات من نفس القرن ــ هى التى جعلت رجال المال الجنويين ، يحكمون الحصار على اقتصاد أسبانيا ويوسعون دورهم فيه ، وخلال معظم فترات القرن السادس عشر ، كانت كميات الذهب الأمريكى الأسبانية ، التى كانت تعتبر ضمان عظمة أسبانيا ــ تشحن عادة بعد عبورها الأطلنطى ، من أشبيلية الى الأراضى المنخفضة ، ثم من أنتورب Antwerp تدور عبر أوروبا الشمالية والغربية والوسطى ، لتتم المقايضة عليها بالبضائع والخدمات التى ترسى دعائم الحكم الأسبانى •

ومنذ أوائل السبعينات من القرن السادس عشر ، أصبح ثمة طريق مغاير ، يستخدم بزيادة مضطردة •

فالمعادن الأمريكية النفيسة أصبحت منذ أوائل السبعينات من القرن السادس عشر ، تنقل عبر البحر المتوسط فى سفن من برشلونة الى جنوة ، وسرعان ما حلت المدينة الليجورية محل انتورب ، كمركز توزيع ضخم للفضة الأسبانية ، وعلى هذا فقد أصبحت جنوة (المدينة الليجورية) هى العاصمة المالية لأوروبا •

وكان استخدام هذا الطريق الجديد ، مرتبطا بالحروب البحرية الكبرى فى البحر المتوسط ، فقد اتجهت معظم موارد الامبراطورية الأسبانية الى هذه الجهة ذات التكاليف الباهظة • وقد جعل هذا لجنوة وضعا استراتيجيا فى مجال الاقتصاد ، ليس للامبراطورية الاسبانية فحسب ، بل بالنسبة لكل أوروبا المطلة على البحر المتوسط ، وقد أستمر هذا الوضع الجنوى الاستراتيجى حتى بدأ فيض سبائك الذهب الاسبانية الأمريكية ، يميل للنضوب فى العقد الثالث من القرن السابع عشر •

الوعى الأوروبى بالزحف العثمانى :

يختلف تأثر العثمانيين على أوربيى القرن السادس عشر ، من طبقة الى طبقة ، ومن قطر الى قطر لقد رأينا كيف أن العثمانيين قد لاقوا ترحيبا متلاحقا ــ باعتبارهم محررين ــ من قبل الفلاحين فى البلقان ، ومن قبل سكان الجزر اليونانيين ، لكن ذلك يرجع الى أن هؤلاء السكان كانوا ينتمون الى ثقافة نصف شرقية ، وقد كانوا ألفوا ــ عبر الأجيال ــ قرب الامبراطورية العثمانية منهم • بالاضافة الى أن سادتهم الأوربيين قد أخضعوهم لاستغلال اقتصادى بشع • ولقد كان استعدادهم لقبول الحكم العثمانى يتردد صداه فى بعض مدن ايطاليا نفسها • ففى أنكونا Ancona فى سنة ١٤٨٠ ، وفى رافنا فى بداية القرن السادس عشر، قال أحد نواب المدينة للكاردينال جيوليو ميدتشى Giulio Medici السفير البابوى (القاصد الرسولى) :

« سيدي ! اذا ما وصل الترك الى راجوسا ، فاننا سنضع أنفسنا بين أيديهم » ، لقد كان هذا ملجأ أخيرا للوطنية في العصور الوسطى اذا ما اضطرت لمواجهة سياسة البابوات المركزية في عصر النهضة ·

وبوجه عام ، فقد كان العثمانيون موضع اشمئزاز واثارة للفزع ، كلما أوغلنا غربا في مجتمعات قلب أوروبا ، لقد أسهم تقدم جيوش العثمانيين على نحو لا يقاوم في اثارة روح التشاؤم والخوف العميق اللذين مازا النفسية الشعبية للشعوب الأوربية في ذلك العصر ولقد أسهمت عوامل أخرى بطبيعة الحال في تنمية هذه الأحاسيس الكئيبة ، منها انتشار الزهري والطاعون في أوروبا ، بالاضافة لمناخ الاحيائية المستعرة التي كانت سببا للحركة الاصلاحية ، ونتيجة لها ·

لقد صور مارتن لوثر — الذي عرف أكثر من الآخرين كيف يلعب على أوتار الخوف والفزع عند جماهير العامة — ذلك الرعب الذي كان يملأ قلوب مواطنيه الأوربيين ، في كتاب له صدر سنة ١٥٢٩ بعنوان عظات عن الحرب ، اذ قال ان العثمانيين (الترك) يمثلون السخطة الخاتمة التي أنزلها رب غضوب على الشعوب المسيحية المتقاعسة ، وقد رأى مارتن لوثر في العثمانيين تحقيقا لنبوءة حزقيال القائلة : « سوف ينطلق الشيطان من سجنه » كما رأى فيهم الهام القديس يوحنا : « أنظروا ··· سأجعل السيف على رقابكم ، وسآتي بأسوأ الأمم ليمتلكوا دياركم » · أما في أوروبا الشمالية والغربية ، فلم تكن المخاوف الشعبية متأصلة ، نظرا لبعد هذه المناطق وانزوائها على الرغم من أن الدعاية الصليبية لم تكن تكف عن ممارسة نشاطاتها حتى في هذه المناطق ، وعلى أية حال فان الحظر العثماني قد نتج عنه « فزع أعظم » بين فلاحي ألمانيا ووسط أوروبا · وكانت ردود الفعل لدى كثير من الرجال المؤثرين وأصحاب النفوذ ، عاطفية حماسية ، فقد كان المؤلفون ورجال الدين

قد أعادوا للأذهان روح الحـروب الصـليبية ، واصفين العثمانيين بكل صفات ومثالب الكفار ، بل لقد أكدوا على أن الترك قوم ميئوس من هدايتهم ، ليس للمسيحية فحسب، وانما لطريق الحضارة الانسانية • لقـد كتب الكاردينال بيسـاريون Bessarion الى دوق البندقيـة ، بعـد سقوط القسطنطينية قائلا : المدينة التي كانت مزدهرة ، رمز الفخامة والسناء والعظمة في الشرق •• موطن كل ماهو جيد •• هذه المدينة قد سقطت وخربت ونهبت تماما على أيدى أكثر البرابرة همجية ووحشية • حدث لها هذا على أيدى القساة غلاظ القلوب ، ذوى الطبائع الحيوانية •• وثمة أخطار كبيرة تهدد ايطاليا ــ ولن أذكر مناطق أخرى ــ اذا لم نكبح جماح الهجوم المدمر لأكثر أنواع البرابرة الهمج ضررا » •

وقد انتشرت هذه الأفكار بين العامة ، واستمرت خلال القرن السادس عشر ، بسبب حرب الدعاية الفجة التي شنها بارثولوموجورجوفتش Bartholonew Georgevich وهو كاتب من كرواتيا ، أصدر كتابا راج وانتشر، وأسماه : (الويل والثبور للمسيحى اذا وقع في أيدى الترك كعبد أو دافع ضريبة) وقد صدر هذا الكتاب عام ١٥٤٤ ثم توالت طبعاته وبعدة لغات • ومع هذا ، كان لابد أن تظهر وجهات نظر ورؤى جديدة وهامة من خـلال هـذا الرفض العنيف والقاسى لكلما هو عثمانى ، فقـد تمـكن كتاب العصـور الوسطى ، بدون اسفاف، من تصور «حوار عالمى» وابرازه، فكانوا يرون الأمر صراعا بين الاسلام في كفة ، والقوات المشتركة للعالم المسيحى ، في كفة أخرى • وكان « العـالم المسيحى » مصطلحا لا يعنى على الدوام ، سوى تعبير عن المثل والتطلعات أكثر مما كان يعبر عن حقيقة وواقع ، فالتطورات السياسية والدينية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر قد أفرغت ، في خاتمة المطاف ، هذا المصطلح من محتواه • بل انه أضحى تعبيرا محرجا مضللا ، الا أن الواقعية السياسية في شكلها البسيط ، جعلته مصطلحا ضروريا لبعض القـوى

المسيحية ، كفرنسا ، أو دول التخوم فى شرق أوروبا ، عند تفاوضها مع العثمانيين أو تحالفها معهم ، فالتركيز المستمر على مفهوم العالم المسيحى يعنى التزاما بالعداء الكامل للكفار .

وتبقى حقيقة ، وهى أن الامبراطورية العثمانية ، كانت تبدو نوعية مختلفة عن الدول الأخرى ، فالحرب ضد العثمانيين ، كانت تعطى احساسا بأنها نوع من الصراع ، يختلف عن الحروب الأخرى التى خاضتها أوروبا ، والتى كانت اما مجرد معارك بين أسرات حاكمة على ألقاب أو أراض أو مناطق أو بسبب تفسيرات انجيلية ، ان الحرب ضد العثمانيين وفقا لعبارة جيمس السادس ، ملك اسكتلندا ، هى حرب مرتبطة بأسباب عامة (قضية عامة) ، وقد مال لنفس الرأى ، البريكو جنتيلى Gentili وهو قانونى عاش فى العصر الاليزابيثى ، فقد ناقش فى كتابه De iure belli (١٥٨٨ ــ ١٥٨٩) هذه المسألة بقوله ان مجتمعات الكفار المسيحيين يؤلف بينها ترابط انسانى مما يجعل الحروب بينها أمر عرضى وغير طبيعى، أما الحرب ضد العثمانيين فهى أمر أكثر من طبيعى ، لتعطشهم الدائم للعدوان ، ان لدينا أسبابا قانونية دائما لشن الحرب ضد العثمانيين » ، ومهما كانت الاتصالات بين الأوربيين والعثمانيين ، فانها اتصالات أملتها الضرورات السياسية ، اذ كان العثمانيون دائما جديرين بكل شك وارتياب وعدم ثقة .

وتبقى مشكلة أو صعوبة ، وهى أنه اذا كانت فكرة العالم المسيحى قد ماتت بالفعل ، أو كانت فى حالة احتضار، كبؤرة تستقطب ولاء الأوربيين وتأييدهم ، ولم يبق لها وجود الا فى الصلوات وافتتاحيات المعاهدات الدولية ــ فما هو الرابط الذى يجمع دول أوربا اذن ؟ ان الاجابة التى ظهرت طوال قرن كامل من الجدال والمناقشة ، تتمثل فى كلمة واحدة ، انها أوروبا ، فحتى القرن الخامس عشر ،

بقيت أوروبا مصطلحا جغرافيا محايدا ، ولما زادت الهجمات العثمانية بوحشية ،بدأ خبراء القانون والسياسة البولنديون والهيسبرجيون يقترحون على حكوماتهم تبنى المقولة القائلة بأنهم لايدافعون عن مجرد حدود أوروبا ،وانما يدافعون بشكل أساسى عن القيم الأوربية فى مواجهة العدوان الاسلامى • وقد لاقت هذه الفكرة قبولا فى دوائر الانسانيين والأدباء ، فالشاعران الايطاليان ، أريستو Ariosto وتاصو Tasso ، استخدما كلمة (أوروبا) للدلالة على نظام اجتماعى وقيمى موحد بنفس القدر الذى استخدماها كتعبير جغرافى ، أما ارازم Erasmus فقد ناشد أمم أوروبا — والتى لم يعد يخاطبها كقوى مسيحية متفرقة — أن تشن حربا صليبية ضد العثمانيين • أما الشاعر الفرنسى رونسارد Ronsard فيطلق لخياله العنان مقترحا فى سنة ١٥٥٥ ، على الأوربيين ترك أراضى أوروبا للعثمانيين ونقل المجتمع الأوروبى بأسره الى العالم الجديد ، حيث يمكنهم — أى الأوربيين — أن يحتفظوا بقيمهم ، ويحموا تطورهم من هجمات المسلمين • هذا الانتقال من فكرة (العالم المسيحى) الى فكرة (أوروبا) هو انتقال من فكرة دينية الى أخرى علمانية • وعلى هذا فان هذا الانتقال لا يعنى نبذ الفكرة المسيحية ،فالعقيدة المسيحية كانت ما تزال ضرورية فى عيون معظم الأوروبيين لاحتفاظ أوروبا بكيانها (أو بتعبير آخر ، بدون مسيحية لا تصبح أوروبا أوربية) ، ويمكننا تمثل الفكرة بوضوح بمجرد قراءة عنوان الكتاب الأول فى هذه السلسلة التى صدر ضمنها كتابنا هذا ، فقد كان الموضوع الذى كتب فيه الأستاذ تريفور روبر Trevor Roper هو : قيام أوروبا المسيحية The Rise of christian Europe لقد أدى الضغط العثمانى على أوروبا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الى عملية اختبار للذات (نقد ذاتى) مما أدى بأفراد المجتمعات الأوربية الى التحقق من ذواتهم والى تلمس الفوارق بين أنفسهم من ناحية وبين أعدائهم العثمانيين من ناحية أخرى ، وذلك

بتأكيد ميراثهم الأوروبى ، أكثر من تأكيد ميراثهم المسيحى، اذ كان ظهور حركة الاصلاح الدينى من بين العوامل التى جعلت من الصعب على الأوربيين فى القرن السادس عشر ، أن يقرؤا فكرة مؤسسات العالم المسيحى ، اذ كانت حركة الاصلاح الدينى قد أدت الى تقسيم المجتمع المسيحى الى مذاهب متعددة متحاربة • فمنذ كانت القوى الكاثوليكية تحت زعامة الهبسبرج تحمل لواء المقاومة ضد العثمانيين كان من المتوقع أن ينظر البروتستنط للعثمانيين كعناصر أخف وطأة وأكثر اعتدالا من الكاثوليك ، ورغم أن الأدلة على أن البروتستنط قد فعلوا ذلك ـ قليلة، الا أنه من المؤكد أن اليزابيث الأولى ملكة انجلترا ، قد دخلت فى علاقات دبلوماسية وثيقة مع اسطنبول ، وسبقها فى ذلك فى وقت مبكر من القرن السادس عشر ، أكثر ملوك فرنسا تمسكا بالمسيحية ، ونعنى به فرنسيس الأول Francis I وربما كان المستشارون الدينيون للملكة الانجليزية يمثلون بصورة أفضل الموقف الدائم للبروتستنط من العثمانيين • وفى سنة ١٥٦٥ ، طلب أسقف سلسبورى ، جويل Jewel من المصلين فى أسقفيته الدعاء لخلاص مالطة • وعندما وصلت الأخبار بأن الجزيرة قد تم انقاذها ، أمر أسقف كانتربرى ، باركر ، بتأدية صلاة الشكر • وهذا الذى فعله البروتستنط هو رد فعل متوقع ولا يدعو للدهشة ، ففى سنة ١٥٢٨ على سبيل المثال ، عندما دعا لوثر ، شارل الخامس ، للاتحاد مع ألمانيا ، لشن حرب ضد العثمانيين ، فان على الباحث أن يشك فى أنه لم يغب من عقل لوثر أن هذا التحالف بين اللوثريين وشارل الخامس سيصرف انتباه هذا الأخير عن اضطهاد البروتستنط • وثمة سياسى آخر عاش فى عصر اليزابث ، وكان سياسيا داهية شديد المراس، وهو السير فرانسيس والسنجهام Francis Walsingham أجرى حساباته ، وخرج منها بفكرة أبعد • لقد كان والسنجهام يرى أن الصراع بين الكاثوليك والعثمانيين فى البحر المتوسط ، ما هوالامعركة بين طرفى شيطان واحد،

وهو يأمل أن يذهب كلاهما ــ الكاثوليك والعثمانيون ــ فى داهية (يعنى بعضهم بعضا) ، ولكنه لم يعلن رأيه هذا امام الجمهور • وثمة قس اليزابيثى آخر هو السير روبرت سيسل Cecil ، كان رأيه أكثر التصاقا بالرأى البروتستنطى المقنن ، فقد قال : « لمصلحة المسيحية ، ان لست براغب فى أى انتصار أو ازدهار وثنى » أما توماس فولر Fuller فى القرن السابع عشر فربما كان أفضل من عبر عن التآلف الطيب الذى يجمع بين المصلحة الذاتية والنفاق ــ وهو السمة المميزة لموقف البروتستنط ، فقد مدح فولر ملك أسبانيا فى كتابه الذى أصدره فى سنة ١٦٣٩ جاعلا عنوانا له : تاريخ الحرب المقدسة The Rise of Christian Europe اذ يقول : « نعم •• ان كل العالم المسيحى الغربى نيام مطمئنون بسبب يقظته الدائمة •• انه هو (يقصد الملك الاسبانى) الذى ، بسمنه الكبيرة كمم أفواه تونس والجزائر •• نعم •• ان الله بمشيئته أمره أن يفعل هذا •• فسيادة الأمراء الكاثوليك فى الجنوب والجنوب الشرقى ، قد حفظت وصانت ودافعت عن المناطق البروتستنطية » ، وقد رفض قليل من المهتمين بأمور أوروبا ، من ذوى العقول النيرة ، الانضمام الى جماعات المازفين الأوربيين ، على نغمة الخطر العثمانى • وكان معظم هؤلاء من الدبلوماسيين الذين عبروا الى الحدود العثمانية ورأوا بأنفسهم ، حقيقة الدولة العثمانية ، أو مع الدارسين الذين كانوا قادرين على انجاز دراسات وبحوث هادئة ونزيهة عن تطور الامبراطورية العثمانية وتكوينها ، ومن أشهر هؤلاء دى بوسبك Ogier Ghiselin De Busbecq مبعوث الامبراطورية الى اسطنبول فى الفترة من ١٥٥٤ الى ١٥٦٢ ، الذى كتب باعجاب يفوق الوصف عن العسكرية العثمانية والتنظيمات الادارية فى الامبراطورية العثمانية ، « انه بالجدارة وحدها يرتقى الانسان فى سلك الخدمة العامة •• انه نظام يؤكد أن المناصب لا تشغل الا بالكفاءة وحدها •• ان أولئك الذين عينهم السلطان فى المناصب

الكبرى هم فى غالبهم أبناء رعاة أو أصحاب ماشية ، وهم لا يعانون من أى خجل من أصولهم هذه ، بل انهم لفخورون بها بالفعل ·· انهم لا يدينون بشىء لأنسابهم ، فهم يعتقدون أن الكفاءة العالية لا دخل لها بالوراثة أو الميلاد ·· كما أنهم يعتقدون أنه ليس من الضرورى آن ينحدروا من أصلاب آباء ·· أو أن يكونوا أبناء أحد ·· ولكنهم يعتقدون أنهم منحة من الله ، وأنهم نتيجة تدريبات طيبة وصناعات عظيمة وحماسة مستمرة لا تعرف الكلل ··· وعلى هذا فان الشرف والمناصب العليا والقضاء ، لا يحوزها الا من حاز كفاءة عالية وكان فى عمله متفان ·· ان هذا هو السبب فى نجاحهم وتفوقهم على الآخرين ·· وهذا هو السبب فى أنهم – أى العثمانيين – يوسعون امبراطوريتهم يوميا ·· ان هذه ليست أفكارنا ، ففى بلادنا (أوروبا) ليس الطريق مفتوحا للكفاءة ، فالنسب والأصل هما مقياس كل شىء ، ان الشخص فى أوروبا يحقق وضعيته الاجتماعية بمجرد انتسابه · ان النسب هو المفتاح الوحيد للترقى فى مدارج الخدمة العامة » ·

ان مكيافيللى كان قد عود الأوربيين النظر الى الحرب كعلاقة طبيعية بين الدول ، ومن ثم فقد كان يمجد الروح العسكرية عند السلف ، الا أن الانسانيين الذين أتوا بعده قد خصوا التنظيمات العسكرية العثمانية بمديح مميز · فقد كتب باولو جيوفى Paolo Gicvic فى كتابه الذى عنوانه : Turcicarum Rerum Commentarius
الصار فى سنة ١٥٣٩ ، يقول :

« ان نظامهم العسكرى يتميز بالعدالة والصرامة ومع اليسر آن ندرك أنه يبز الأنظمة الاغريقية والرومانية القديمة » ·

أما الدبلوماسى الفرنسى فرنس – كاناى Frense — Canaye Phippa du فقد كانت نوعية الادارة المدنية العثمانية هى التى أثارت انتباهه ، لقد كتب فى كتابه الذى أسماه

(رحلة الى الشرق الأدنى (Vouyage du Levant
الصادر فى سنة ١٥٧٢ عن نظام حكم السلطان قائلا :

« انه يحكم صنوفا من البشر ، متباينين فى اللغة والدين والعادات ، ولكن كل امبراطوريته تبدو كأنها مدينة واحدة يسود جميع أرجائها السلام والطاعة » .

أما جين بودن Jean Bodin ففى كتابه الصادر فى سنة ١٥٧٦ والذى وسمه باسم (كتب الجمهورية الستة (six books of the Republic والذى ألفه خلال الحقبة المريرة التى يمكن تسميتها بحقبة الحروب الفرنسية الدينية ، فيبدى اعجابا واحتراما شديدين بالتسامح الدينى الذى يمثل شعارا عثمانيا أساسيا . كتب بودن يقول :

« ان ملك (سلطان) العثمانيين (الترك) الذى يحكم جانبا كبيرا من أوروبا ، يحمى شعائر الأديان بطريقة أفضل من أى أمير فى هذا العالم . أضف الى هذا أنه لا يجبر أحدا، بل على العكس انه يسمح لكل فرد أن يعيش وفقا لما يمليه ضميره . بالاضافة الى ذلك ، فانه فى قصر حريمه يسمح بممارسة شعائر أديان أربعة مختلفة .. شعائر اليهودية ، وشعائر المسيحية ، وفقا لطقوس الكنيسة الرومانية ، وشعائر المسيحية وفقا لطقوس الكنيسة الاغريقية ، وشعائر الاسلام »

الا أن هذه الأقوال فيها مبالغة وتضليل ، فهؤلا المعلقون من الكتاب من أمثال بوسبك وبودن ، ربما كانوا مهتمين بدفع عجلة الاصلاح فى أوطانهم ، أكثر من اهتمامهم بتقديم صورة دقيقة عن العادات العثمانية ، انهم يمثلون رغم هذا قطاعا هاما من رأى الأقلية التى ترفض ان تندرج فى هذا السيل الهستيرى من الكره الموجه للعثمانيين . وكان هذا الاتجاه ينمو من خلال كتابات الباحثين عن الامبراطورية العثمانية ، لقد كانت أوروبا فى القرن السادس عشر شغوفة وظمأى للمعلومات فى هذا الموضوع ، أكثر من شغفها

وظمئها للمعلومات عن العالم الجديد • ففى فرنسا وحدها ظهر فى الفترة من ١٤٨٠ الى ١٦٠٩ أكثر من ٨٠ كتابا عن تركيا (الدولة العثمانية) بينما لم يصـدر فيها فى نفس الفترة ذاتهـا الا ٤٠ كتـابا عن الأمـريكتين • ومن بين الأوروبيين الذين ساهموا فى الكتابة عن العثمانيين فى هذه الفترة العالم اللغوى الشهير والمستشرق الفرنسى بوستل Giullaume pistel وهو باحث عظيم رغم غرابة أطواره ، والايطالى سانسو فينو Sansovino فى كتابه :

Historia universale del origine imperio de Turchi

الذى نشر فى فينا فى سنة ١٥٦٨ • وتعتبر كتابات بوستل وسانسافينو ، ذات قيمة عالية • ان حب الاستطلاع الذكى الذى تجلى فى مثل هذه المؤلفات ـ والتى لم يكن لها مماثل على الجانب العثمانى ، بمعنى أن العثمانيين لم يحاولوا فهم نظم أوروبا الغربية بنفس القدر الذى حاول فيه الأوروبيون فهم النظم العثمانية ـ برهن علـى المدى الطويل أنه خير ضمان لكفاءة أوروبا ، وخير دافع لها للثورة على العثمانيين والتغلب عليهم • ان مثل هذه الدراسات المتأنية برهنت على أنهـا أفضـل لأوروبا من التعصب الأعمى الذى شنه رجال الدعاية ومؤلفو النشرات الرخيصه •

المتحولون عن المسيحية ، واللاجئون فى رحاب الدولة العثمانية :

كل الامبراطوريات ، على نحو ما ، لها أجهزتها التى تكرس للسلب والنهب ، ولكن قليلا من تلك الأجهزة ، كانت تستطيع أن تضارع الكفاية والعزم اللذين كان يعمل بهما الجهاز العثمانى ، كما لم نستطع أى من هذه الامبراطوريات أن تنافس العثمـانيين فى القـدرة على استيعـاب العمـالة والعناصر الاجنبية فقد كانت ضريبة الأطفال فى البلقان ، بأفضل جنودها وادارييها ، وكان الحريم السـلطانى يجلب وحملات جلب العبيد التى قام عليها تتر القرم Tarters Crimeon فى بولندا وأكرانيا ، تمد الامبراطورية العثمانية

من نفس المصادر ، فقد كانت زوجة سليمان القانوني الأثيرة وأم سليم الثاني من جنوب روسيا ، كما كانت محظية سليم الثاني من أسرة يونانية من كورفو Corfu وقد جذبت اسطنبول أنظار سيل المرتدين عن المسيحية ، واللاجئين القادمين من الدول الأوربية التى كانت الدولة العثمانية فى حالة صراع معها ، فلم تكن ضريبة الأطفال من المناطق المهزومة ومناطق الحدود لتسد شهية العثمانيين النهمة لجلب العناصر البشرية ٠

وقد ركز المؤرخون على كون أوروبا القرن السادس عشر ، كانت محلية الجذور ، وكانت تجد أمانها واطمئنانها فى هذه المحلية ، فمن المؤكد أن غالب الفلاحين والحرفيين نادرا ما كانوا يتركون بلدانهم التى ألفوها ، لكن عدة عوامل أدت الى ظهور طبقات عديدة وافدة لا جذور لها ، طبقات دخيلة لم ترث مواقعها ولا وضعياتها الاجتماعية ، وكان أفراد هذه الطبقات على استعداد لعبور كل الحدود وتجاوزها ، الحدود العرقية ، بمعنى بعدهم عن أبناء جلدتهم ، بل وحتى الحدود الدينية ، بمعنى استعدادهم لتغيير دينهم بحثا وراء الثروة والقوة ٠ ولقد كانت هناك عوامل عدة هى التى أدت لذلك ، منها التضخم المالى الناتج عن تدفق السبائك الذهبية الأمريكية ، والاضطهاد الدينى ، وحاجة السوق للمهارات الخاصة فى الطباعة والتعدين وصناعة السفن والجند (وقود الحروب) ٠

لقد مارس العالم العثمانى تأثيرا هائلا على سائر الشعوب ، فقد كان العثمانيون يطبقون مبدأ التسامح الدينى على نطاق واسع بينما كانت أوروبا تفتقر الى ذلك ٠ وكانت النظم العسكرية والاقتصادية العثمانية تدفع برجال لا أصل لهم أو من أصول متواضعة ، بسرعة ، الى مواقع اجتماعية وسياسية متفوقة ، بينما كان هذا أمرا غير مقبول فى أوروبا ٠ وكان الموظفون المنتجون الذين يتسمون بالجرأة والجسارة ، يجدون فى الامبراطورية العثمانية

مصدر كسب عظيم وسخاء كبير • ولقد أدرك المعاصرون الأوربيون ذلك ، واعتبروه سر جاذبية الدولة العثمانية فمارتن لوثر ، كان يناشد بصفة خاصة ، ذلك النفر من بنى جلدته الذين وقعوا فى أسر العثمانيين بالحرب أو بالغواية ــ أن يقاوموا ويبذلوا قصارى جهدهم للاحتفاظ بدينهم ، وعدم دخول الاسلام ، على الرغم من مغريات الحياة العثمانية ، التى يعترف لوثر بصعوبة مقاومتها •

لقد كان التحول الرسمى للاسلام ضروريا للانسان الراغب فى اعتلاء سلم المجد فى الحياة العامة العثمانية ، فاذا ما اتخذ الانسان هذه الخطوة ــ أى التحول الرسمى للاسلام ــ كان ما يحصله بعد ذلك وقفا على حظه ومواهبه الطبيعية • ففى سنة ١٥٧٣ صحب النبيل الفرنسى فيليب دى فرسن كانى Du Fresne Canaye السفير فرنسيس دى نوبلى De Noailles الى اسطنبول فى وقت كانت فيه المدينة عامرة بالنشاط. فقد كان العثمانيون يكملون ترميم الأسطول الذى كان قد تلف معظمه فى معركة ليبانتو ، قبل ذلك بعامين ، وقد كان Du Fresne حاضرا استطلاع الأسطول الجديد قبيل اقلاعه الى بحر أيجه ، وقد علم دى فرسن أن القائم على ترميم الأسطول كان هو الصدر الأعظم (الوزير الأول) محمد سوكولى Sokolli الذى كان عبدا ترجع أصوله الى مسيحيى البوسنة ، أما تفاصيل انشاء الأسطول واعداده وامداده بالرجال ، فكانت من اختصاص أمير البحر (الادميرال) ucchiali الذى كان نائبا للسلطان فى الجزائر ، وعندما أبحر الأسطول كان يأتمر بأمر بيالى Piali ، وكان حسن آغا مسئولا عن الأمور المالية ، وكان أوكهيالى كالابرى الموطن Calabrian أما بيالى فكان مجريا ، أما حسن فكان من مسيحيى البندقية وقد تحول للاسلام ، وكان ثلاثتهم من أعظم رجال العالم • ولقد التقى فرسن ومرافقوه ، فى أثناء عودتهم بعدد من تاركى المسيحية ، ممن كانوا فى أوضاع اجتماعية أقل من أوضاع بيالى ، وحسن آغا وأوكهيالى ، وقد قامت حامية عثمانية باحتجاز فرسن ومرافقيه عند جاليبولى Gallipoli

ولكن أسبانيا متحولا للاسلام كان يعمل سباهيا تمكن من تخليصهم من أيدى رتل من الموظفين العمانيين الفاسدين ، فى مقابل رشوة مجزية .

والواقع أن الانتقال للجانب العثماني ، لا يعنى بالضرورة نهاية اتصال الانسان بوطنه الاصلى ، فالمراسلات المحفوظة بأرشيفات الدولة فى جنوة – وهى المراسلات الخاصة بباتريستا فرارى Batrista Ferrari ممثل جمهورية البندقية فى اسطنبول ، فى الفترة من ١٥٦٢ الى ١٥٦٧ تتضمن تقارير مفصلة عن النشاط السياسى العثمانى واستعداداتهم البحرية كان قد أرسلها موكات آغا Mocat Aga ومصطفى ريس و Ferrato Beij ، وثلاثتهم جنويون تركوا المسيحية وتحولوا للاسلام ، وكانوا يعملون فى خدمة السلطان ، وقد عاد بعض تاركى المسيحية الى أوروبا ، بعد فترة قضوها فى ركاب الدولة العثمانية نالوا فيها جوائز ورواتب . وعندما قام المؤرخ الايطالى باولو جيوفيو Paulo Giovio بتصنيف كتابه عن تاريخ العثمانيين ، والذى حقق شهرة كبيرة فى القرن السادس عشر ، فقد كان جل اعتماده على المادة التى استقاها من عائدين كانوا فى خدمة العثمانيين واعتنقوا الاسلام ، ثم عادوا لأوروبا وارتدوا الى المسيحية كرة أخرى . فعلى سبيل المثال قدم الايطالى ميانوفينو Minavino – والذى كان يعمل وصيفا فى خدمة السلطان بايزيد ، معلومات عن ظروف الأيام الأخيرة التى كا بايزيد يعانى فيها سكرات الموت فى سنة ١٥١٢ – لباولو جيوفيو Giovio ، كما كانت معلومات جيوفيو عن حصار جرين Gran فى المجر فى سنة ١٥٤٣ مستقاة من مناقشاته مع أربعة أسبان كانوا قد تركوا المسيحية والتحقوا بالجيش العثمانى ، ولكنهم هربوا من الخدمة وهم فى مواجهة الحصن .

أما اللاجئون فيمثلون نوعا آخر من الهجرة الأوربية للمجتمع العثمانى ، فهناك اللاجئون من المسلمين الأسبان

الذين كانوا قد أجبروا على التحول للمسيحية وقد نزحوا بأعداد غير قليلة الى ممالك القرصنة فى شمال أفريقيا ، ولكن أكثر جماعات اللاجئين أهمية كانوا هم اليهود الأيبريون • وسيرة واحد من هؤلاء اللاجئين اليهود الايبريين تستحق أن نتابعها ، ونعنى به يوسف ناسى Nasi فسيرته تثبت بصورة واضحة ، ما يمكن أن يصل اليه الأجنبى ذو الموهبة والطموح ، من درجة عالية ، فى ظل الدولة العثمانية • ان التعصب الأعمى الذى مارسه المسيحيون فى أيبريا تجلى واضحا فى أواخر القرن الخامس عشر فى سياسة طرد غير المسيحيين أو تحويلهم للمسيحية قسرا ، لقد ولد ناسى حوالى سنة ١٥٢٠ من أسرة يهودية تمارس التجارة والتطبيب وطردت أسرته من أسبانيا فى سنة ١٤٩٢ ، وأجبرت على التحول للمسيحية وترك اليهودية فى لشبونة فى سنة ١٤٩٧ ، وكان لانشاء محاكم التفتيش فى البرتغال فى سنة ١٥٣٦ أثره فى ان قررت جراسيا ناسى Gracia Nasi وكانت أرملة تأتمر الأسرة بأمرها — أن ترتحل بالأسرة كلها بما فيها يوسف — ابن أخيها وزوج ابنتها فيما بعد — الى انتورب Antewerp ، وقد أصبح يوسف ثريا ورجل أعمال محترما ومشهورا ، يلقى الترحاب فى بلاط فرنسا ومجتمعاتها ، وفى بلاط الهبسبرج فى الأراضى المنخفضة ، وفى ايطاليا ، وجعله شارل الخامس فارسا ، واصطفاه صديقا لابن أخيه — الذى صار امبراطورا فيما بعد باسم مكسمليان الثانى • ولما كان اعتناق يوسف ناسى وأسرته للمسيحية أمرا شكليا وغير حقيقى ، ولما تزايدت الشكوك حول حقيقة مسيحيته ومسيحية أسرته ، اضطروا للهجرة الى البندقية فى سنة ١٥٤٤ ، ومن البندقية انتقل الى فرارا Ferrara فى سنة ١٥٥٢ وأخيرا اتخذ سبيله الى اسطنبول فى سنة ١٥٥٣ هاربا من الاضطهاد • وفى اصطنبول ، سرعان ما عاد الى دينه (اليهودية) وأعلن ذلك على الملأ فى سنة ١٥٥٤ • وفى الأعوام التالية أصبح تاجرا مشهورا ، خاصة فى مجال تجارة النبيذ ، كما كان مستشارا

سياسيا يحظى بالثقة فى الدوائر الحكومية العثمانية ، ونصيرا سخيا للدوائر الأدبية العبرية فى اسطنبول وسالونيك ، وتشير اليه الوثائق العثمانية لذلك الوقت باسم فرنك بك اوغلو Frank Bey oglu (ويعنى الأمير الافرنجى) • وكان بالنسبة لسكان اسطنبول ، هو (اليهودى الكبير) وقد فتح له باب التأثير والسلطة واسعا ، عندما تولى صديقه سليم الثانى عرش السلطنة فى سنة ١٥٦٦ • وقد عينه سليم الثانى دوقا على ناكسوس Naxos وجعلها له اقطاعا خالصا يورث ، وناكسوس هذه تتكون من ١٢ جزيرة فى بحر ايجه ، ولها أهمية تجارية كبيرة ، وأهمية استراتيجية على نحو ما • وقد بنى يوسف ناسى شبكة من الاتصالات السياسية والتجارية فى بولندا ومولدافيا (البغدان) وفاليشيا (الأفلاق) ووهبه السلطان سليم الثانى حق احتكار توريد الخمور الى اسطنبول • وكان يوسف - فى البلاط العثمانى - عضوا بارزا فى الحزب المنادى بالحرب ، مؤيدا الاستمرار فى سياسة خير الدين بربروسا ، داعيا باستمرار للكراهية والعداء لكل القوى الكاثوليكية فى البحر المتوسط • وكان يوسف ناسى يرنو الى تاج قبرص عندما دخلتها القوات العثمانية فى سنة ١٥٧٠ وقد قل تأثير يوسف ناسى بعد نهاية السلام مع البندقية فى سنة ١٥٧٣ ، وبعد موت سليم الثانى فى سنة ١٥٧٤ ، فانعزل وعاش مغمورا - كما يقول جامع سيرته سيسل روث Roth - فى قصره فى بلفدير Belvedere على البسفور • وسرعان ما حل محله فى البلاط العثمانى - يهودى آخر ، اشتغل بالأعمال والتجارة والسياسة الخارجية - وهو يهودى من أصل ألمانى ، كان مثل يوسف ناسى لاجئا وهو سولومون ناثان اشكنازى Soloman Nathan Ashkenazi الذى يشير له الحوليون العثمانيون باسم الأمان آوغلو (آوغلو الألمانى) (١) ، وعلى أية حال ، فان التعاطف العثمانى مع اللاجئين اليهود القادمين من أوروبا ، كان قد بدأ يقل ، وان كانت أبواب

(١) كذا فى النص ، والصحيح ابن الألمانى (المترجم) •

التقدم ظلت مفتوحة بالنسبة لبعضهم ، وان كان التعصب المتشنج الذى كان يهب أحيانا ضد اليهود فى الدولة العثمانية ، جعل حياتهم فى ظلها أقل أمنا من ذى قبل ، لقد كانت سطوة اليهود وهيمنتهم تعتمد على ميزتين جلبوها معهم الى اسطنبول: الاتصالات المستمرة بالاصدقاء وعلاقاتهم ووكالاتهم التجارية المنتشرة فى أوروبا ، مما جعلهم مصدرا فريدا للمعلومات اللازمة للمعارك العثمانية ضد الاسبان، بالاضافة لامتلاكهم مهارات فنية (تقنية) ومالية كانت نادرة فى المجتمع العثمانى ، بل كانت ضرورية لاستمرار الجهاز الادارى ، كثير الأعباء ، لهذه الامبراطورية العظمى وكلما مرت السنون ، قل اتصال يهود الدولة العثمانية بأوروبا ، وبالتالى أضحت معلوماتهم أقل دقة ، وفى نفس الوقت ، وجدنا فى المدن الكبيرة وفى المراكز الزراعية العثمانية ، تجارا يونانيين ــ وهم من المسيحيين الأرثوذكس ــ قد تحدوا احتكار اليهود للاعمال البنكية والمصرفية وأعمال التسليف وذلك خلال القرن السابع عشر ، ومن هنا أصبح المجتمع اليهودى فى الدولة العثمانية ، يشكل مرتبة ثانوية اذ أصبح اليهود حرفيين وأصحاب محلات تجارية ومرابين ومسلفين بالرهن، وأطباء ، أما شعوب البلقان، فقد احتفظت لنفسها بعدة مهارات مما جعل لهم دورا فى الدولة العثمانية فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، شبيها بالدور الذى لعبه فى نفس الفترة ، أهل جنوه بالنسبة لأسبانيا ، سواء فى الحياة الاقتصادية أم فى العمليات البحرية الأسبانية فى البحر المتوسط .

الفصل الخامس

بداية النهاية

كان استغراق القوى الأوربية ، فى صراعات بين الأسرات الحاكمة من ناحية ، وصراعات دينية من ناحية أخرى ، فى النصف الأول من القرن السادس عشر — قد أسهم ، بلا شك ، فى انجاح الغزو العثمانى ، الذى كان مذهلا (دراماتيكى) وواسع المدى .

وفى المقابل ، كان نجاح الأوربيين فى ايقاف بعض المد العثمانى واحراز بعض النجاح خلال منتصف القرن — مما ساعد على ايجاد توازن استراتيجى بين العثمانيين والهبسبرج فى منطقة الدانوب بعد معركة سليمان (القانونى) الأخيرة فى المجر — ناتجا عن أن سلام أوجز برج فى سنة ١٥٥٥ قد أوقف صراعا دينيا مريرا دام حوالى أربعين سنة فى الامبراطورية الرومانية المقدسة ، كما أن معاهدة كاتو كمبرسيس فى سنة ١٥٥٩ قد أنهت صراعا طويلا بين الهبسبرج وأسرة الفلوا المالكة فى فرنسا ، كما أصبح الهبسبرج النمساويون قادرين على تكريس وقت أكثر وموارد أضخم للدفاع عن حدود شرق أوروبا ودرء الخطر العثمانى عنها ، اذ تخلصوا من ورطتين كبيرتين على الأقل فى القرن السادس عشر بفضل استعداداتهم وتنظيماتهم .

غير أنه فى العقد الثانى من القرن السابع عشر ، عادت ألمانيا وأوروبا الوسطى لخلافاتها السياسية والدينية القديمة ، وبلغت ذروة هذه الخلافات فى سنة ١٦١٨ التى

شهدت اشتعال حرب الثلاثين عاما • وقد حذر معاصرون كثيرون من أن هذه الاضطرابات الناشبة بين الأوربيين ، قد تؤدى لتكرار المتاعب فى أكثر مناطق اوروبا حساسية وتعرضا للفواجع، والتى كانت تشمل الصرب والامبراطورية البيزنطية ومملكة المجر طوال قرون خلت ، خاصة وان الجيوش العثمانية تتقدم الآن صوب قلب أوروبا • ولكن سرعان ما تبددت هذه المخاوف فالاضطرابات فى ألمانيا قد تزامنت مع تركيز الدولة العثمانية على أمورها الداخلية التى كان من الصعوبة بمكان جعل العثمانيين ينهمكون فيها، مما جعلهم غير قادرين على استثمار الوضع المضطرب في ألمانيا ، أما الآمال الأوربية في أن تكون الامبراطورية العثمانية قد تفسخت وأن يكون عصر العدوان العثماني في أيامه الأخيرة فقد اتضح أنها آمال مبالغ فيها فرجال الدولة العثمانية ذوو القدرات الهائلة والذكاء الباهر ، كانوا ما يزالون قادرين على ايقاف التدهور وتأخير السقوط ، فقد شهدت السنوات الوسطى من القرن السابع عشر ، علامات دالة على تجديد الدولة العثمانية واستئناف التقدم العثماني، ففى سنة ١٦٧٦ امتدت الحدود العثمانية فى أوروبا أكثر من أى وقت آخر• وفى سنة ١٦٨٣ حاصرت القوات العثمانية فينا للمرة الثانية ، الا أن هذه النجاحات كانت جزئية عابرة • لقد كان التفاؤل الأوروبى (فيما يتعلق بتفكك الدولة العثمانية وانهيارها) سابقا لأوانه ، وان كان قد تحقق على المدى الطويل • فعلى اثر تقهقرهم عن فينا ، تعرض العثمانيون لسلسلة من الهزائم العسكرية أمام الامبراطورية فى المجر وصربيا والبوسنة ، وأمام البنادقة فى دلماشيا والمورة • وفى معركة زنتا Zenta فى سنة ١٦٩٧ ، كان العثمانيون مضطرين للتوسل ــ بكل ما فى الكلمة من معنى ــ للحصول على السلام ، وكان عليهم أن يقبلوا بنودا صعبة فى معاهدة كارلوفتس فى سنة ١٦٩٩ • وقد ظلت الامبراطورية العثمانية قوة كبرى فى أوروبا ، وظلت محتفظة بمناطق على طول الدانوب الأدنى تمتد من

بمصبه على البحر الاسود متابعة مجراه حتى التقائه بدرافا Drava شمال بلجراد • وقد دافع العثمانيون عن هذه الممتلكات بجسارة ، لكن موجة الفتوحات العثمانية الأولى كانت قد انكسرت وخمدت • وهكذا تقلص الصراع العالمي بين الشرق والغرب ، وتدنى الى أن أصبح مجرد مشكل ، وهو مشكل المسألة الشرقية •

أسباب الأفول :

لم يعد لائقا بالمؤرخين أن يركزوا على أهمية شخصية الانسان الفرد في العملية التاريخية • فهذا الكتاب بتركيزه على العوامل الاجتماعية في تفاعلاتها ودورها ، فانه بوجه عام يتمشى مع العرف الحديث • ومع هذا فليس ثمة تحليل وتعليل لعدم الكفاءة العثمانية بعد موت سليمان والى منتصف القرن السابع عشر الا أن السلاطين العثمانيين بعد سليمان كانت كفاءاتهم الشخصية في انحدار دائم ، فبعد سليمان (القانوني) مباشرة ، تولى سليم الثاني (السكير) وهو نموذج يبين لنا ميل سلاطين آل عثمان الذين أتوا بعد سليمان — للاعتكاف عند الحريم والشغف بهن ومخالطة تلك الجماعة الشاذة المتحلقة حول السلطان في بلاطه السلطاني ، فنادرا ما كان سلاطين القرن السابع عشر يذهبون للمعارك ، وحتى عندما كانوا يفعلون ذلك ، فان قيادتهم تكون مسألة زينة وتشريف• ان سليمان وأسلافه العظماء كانوا يمارسون عنفا يمكن وصفه بأنه عنف مشروع • أما الحكام الذين أعقبوا سليمان فقد أطلقوا العنان لشهواتهم وأهوائهم ، وكانت تصرفاتهم وتحركاتهم تتسم بالتقلب واتباع الهوى والنزوات ، فكان عنفهم مبتذلا كعنف نيرون ولم يكن عنف الحزم كعنف يوليوس قيصر • وبعض سلاطين القرن السابع عشر كانوا سذجا مثل السلطان مصطفى ، الذى عزل مرتين بسبب بلاهته وحماقته البالغة مرة في عام ١٦١٨ وأخرى عام ١٦٢٢ ، والسلطان ابراهيم الأول (١٦٤٤ — ١٦٤٨) وحتى مراد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠) الذى كان حاكما مؤثرا ، فقد ترك انطباعا بأنه

حاكم منفلت ، لا يحسن توجيه طاقاته ، ولم يكن يتمتع برؤية واضحة ، ولم يكن يسخر سلطانه لاعتبارات سياسية بعيدة المدى ، وهذا القصور الذى اعترى الكفاءات الشخصية للسلاطين ـ والذى كان واضحا بحيث لا يمكن لأحد انكاره ـ لم يكن من الضرورى لو كانت ظروف الامبراطورية العثمانية مواتية الى أن يفضى الى تبديل فى شخصية الامبراطورية ويؤثر على فعالياتها • أما فى أوروبا فقد كان نمو البيروقراطية (الأجهزة الادارية) قد مكن الدولة كثيرا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، من أن تستمر وتبقى ، متجاوزة عدم توازن الملوك ، الذى ينتج عنه عواقب وخيمة ، فقد كانت هذه الأجهزة قادرة على تجاوز تصرفات هؤلاء الحكام غير المتوازنين ، حتى لو كانوا مجانين أو قاصرين ، وقد كان توسع البيروقراطية العثمانية ونموها ، متوازيا مع بيروقراطية القوى الأوربية ، مع وجود فارق واحد هام • لقد كتب المراقب الهولندى ريكوت Rycaut « اذا تأمل الانسان نسيج (تكوين) الحكومة العثمانية ككل فسيجدها مصنعا للرقيق ، فقد كان مما يدعو للدهشة أن تجد من بين أفراد الجهاز الحكومى من ولد متحرر الروح مبدعا » ، وقد أدى اهتمام السلطة المركزية بالرق وجعله أساس النظام العثمانى العسكرى والادارى الى أن كان السلطان يجمع بين يديه صلاحيات ومسئوليات وسلطات عديدة فيما يتعلق بصنع القرار واتخاذه • فقد كان الوزير الأول (الصدر الأعظم) لا يزال صنيعة للسلطان ، حتى عندما كان الوزير الأول يرتب لاغتيال حاكم (سلطان) غير كفء ، فانه يكون فى نفس الوقت تحت رحمة السلطان الذى يتولى بعد السلطان المعدور ، لقد كانت الامبراطورية العثمانية ـ تعتمد الى حد كبير جدا ـ أكثر من أى دولة أخرى معاصرة لها ـ فى نشاطاتها وتوجيهاتها على كفاءة الحاكم (السلطان) فى ممارسة ـ أو تمثيل ـ السلطة والحكم • ونادرا ما كان هذا الأمر متاحا (كفاءة الحكام) فى النصف الأول من القرن السابع عشر

لكن اللدد فى الخصومة والامعان فى العداء ، الباديين فى حكم رايكوت السالف الذكر لا يمنعاننا من الاعتراف بالأمور الواضحة التى يمكن ادراكها بالحس • فقد كان كثيرون من المسئولين العثمانيين فى أوائل القرن السابع عشر يحسون بأن هناك شيئا ما خطيرا يجرى على غير مايجب ، ولم يكن هناك من هو قادر على تقديم تحليل عميق يصل لأعماق الوضع • ولم يكن هذا لقصور فى الجهد ، اذ أن مرادا الرابع تلقى من القاضى المسلم المشهور خوجه بك Khodje Beg مذكرة عن أسباب التدهور ، واذا ما قارنا مذكرة خوجه بك هذه بالانتاج الفكرى السياسى المتسم بالبحث والتعمق العقلى ، والذى أفرزته عقول أوربا فى نفس الفترة الزمنية ، ألفيناها مذكرة تدعو للاشفاق والأسى • فلم تكن هذه المذكرة التى تقدم بها هذا القاضى المسلم • أكثر من قائمة بملاحظات سطحية • وعلى أية حال، فهذه الرسالة (المذكرة) تعد برهانا تاريخيا هاما ، وما هو جدير بالملاحظة أن هذه المذكرة لاتقدم برنامجا اصلاحيا ، وانما تطالب ببعث جديد regeneration ولاتطالب بتجديد innovation وانما تطالب بالعودة الى الممارسات التقليدية بنقائها فى أصولها الأولى (١) • لقد خضعت الطبقة الحاكمة العثمانية المتحجرة للأمر الواقع رغبة منها فى الحفاظ على بقائها ، وتخلت عن المقاومة ــ لتواجه الحقيقة الصعبة ، التى يصعب تجاهلها ، وهى أنهم ما عادوا يسيطرون على الأحداث بنفس المقدرة التى كان أسلافهم فى القرن السادس عشر ، يسيطرون بها عليها • ان أى تفسير مقنع للتاريخ العثمانى فى القرن السابع عشر يجب أن يقدم لنا بعض التوضيح لهذا التغير النفسى (السيكلوجى) الذى حاق بالطبقة الحاكمة • فكل حشد الأمبراطورية العثمانية لم يعد كافيا لاحراز مزيد من النصر على الحدود

(١) يقصد العودة الى الكتاب والسنة ، والواقع ان السلفية فى الاسلام تعنى التجديد أيضا ، والدعوة السلفية تعنى تنقية المجتمع والعقيدة مما علق بهما من شوائب ، وهذا فى حد ذاته دعوة للتجديد ، لكن هذا المعنى غاب عن المؤلف ، كما نراه يغيب عن كثير من الكتاب الغربيين ــ (المترجم) •

المجرية ، أما الى الشرق فقد كانت الحدود لاتزال مفتوحة ، ذلك لأن أوروبا المطلة على البحر الأسود لم يكن بها سلسلة قلاع وحصون مماثلة لتلك التى منعت العثمانيين من مزيد من التقدم صوب المجر • لقد كانت هناك أراض واسعة وخصبة متاحة للغزاة الأول مما شجعهم على تأسيس حكم يساعد على الاستيطان • لكن هذا التأثير العثماني الاستيطاني فى هذه المنطقة قد توقف فى الفترة التى تحالفوا فيها ـ أى العثمانيين ـ مع تتر القرم Crimean Tartar الذين أدت غاياتهم للحصول على الرقيق ، الى جعل المنطقة خالية مهجورة فى معظم أنحائها ، ولم يكن بعض رجال الدولة الاستراتيجيين العثمانيين مقتنعين بترك المنطقة الواقعة شمال البحر الأسود فى هذه الحالة المؤسفة (غير المتطورة) • وفى سنة ١٥٦٩ تغلغلت تجريدة عسكرية عثمانية حتى استراخان Astrakhan وبدأت فى شق قناة تربط الدون Don بالفلجا Volga ، ولكن ثورة الروس فى استراخان ومقاومة تتر القرم ورفضهم التعاون مع الكتائب العثمانية فى مثل هذا المشروع الذى ـ اذا ما تم ونجح ـ فانه سيطوق تتر القرم فى دائرة واسعة ، كما أن المنطقة الجرداء (الخالية) كانت منطقة لا يمكن العيش فيها وكان الدفاع عنها من الناحية العملية يشكل عبئاً ثقيلا ـ لكل تلك الأسباب مجتمعات لم ينجح المشروع • ومن بين ٣٠,٠٠٠ شخص أبحروا من اسطنبول فى سنة ١٥٦٩ لتنفيذ هذا المشروع ، لم يعد فى العام التالى منهم سوى ٧,٠٠٠ ـ بدون أى جدوى وبدون أى تقرير مفيد يدل على جهودهم • وبعد هذا الاخفاق لم يفكر أحد فى تنفيذ هذا المشروع مرة أخرى •

لقد شهد عام ١٥٧٠ ، اذن ، نفاد طاقة العثمانيين التوسعية ، مؤقتا ـ فى أوروبا الدانوبية وأوروبا المطلة على البحر الأسود ، أما الحدود الأخرى للامبراطورية فقد

فشلت فى تقديم أى بديل مناسب ، فالتوسع فى هذه الحدود الشرقية لم يتوقف ، فالحملات العسكرية والبحرية فى البحر الأحمر اكدت السيطرة العثمانية على الحجاز فى سنة ١٥٧١ ، وفوق هذا كانت الفتوح العثمانية فى جورجيا وأذربيجان ، والتى نتجت عن حروب طال أمدها ضد الفرس من سنة ١٥٧٧ الى سنة ١٥٩٠ • لكن هذه الفتوح ، كانت ذات أهمية على الخريطة فحسب ، اذ أن حقيقة السيطرة الادارية العثمانية على هذه المناطق أمر مشكوك فيه • فقد كانت أذربيجان على الاسلام كواقع فعلى عندما دخلها العثمانيون ، وبعد الفتح لم يتم تقليص سلطات ملاك الأراضى ولا الزعامات القبلية المحلية ، أما جورجيا فقد ظلت تحت حكامها المسيحيين ، فى ظروف سيادة مشابهة لما كان فى ولاية ترانسلفانيا • فلم يعد من المتاح أن تحصل الجيوش العثمانية على اقطاعات جديدة لتوزيعها على المحاربين •

وقد مال السباهيون عبر الامبراطورية العثمانية كلها للاستقرار فى مزارعهم وعقاراتهم المستقلة • ونتيجة لهذا وجدنا النظام العثمانى العسكرى المرن ، يعتريه تغير وتحول سريع وحاد • فالمقاتلون الذين لا جذور لهم والذين عاشوا على صهوات الجياد فى خدمة جيش دائم الانتصار ، ولم يكونوا يهتمون الا قليلا بأصولهم ، ولا أعقابهم (نسلهم) ــ هؤلاء المقاتلون تحولوا الى اصحاب أراض كسالى ، يقطنون المدن فى الولايات ، حيث يتولى أتباعهم تسليمهم عوائد مزارعهم وعقاراتهم التى يتعيشون منها •

وقد أدت زيادة ارتباط السباهيين بمناطق بعينها ، الى مزيد من التعقيدات ، اذ أن الرغبة الفطرية لدى السباهيين وغيرهم فى أن تنتقل ممتلكاتهم ومراكزهم الى أبنائهم ــ هذه الرغبة كانت تشكل عائقا قاسيا أمام المبدأ القانونى العثمانى الذى مؤداه أن هذه الممتلكات تمنح للمقاتلين خلال فترة حياتهم فقط ، كوسيلة يرتزقون منها أثناء الشتاء حيث

لا حرب ، وكمقابل لخدماتهم التى أدوها • وقد يكون الأولاد لم يبلغوا عمرا مناسبا عند موت آبائهم ، وقد أدى هذا الى صعوبات ومشاكل حتى فى عهد سليمان القانونى • وفى سنة ١٥٣٠ أصدر السلطان عدة اجراءات ونظم مفصلة لتحديد النسبة التى تؤول لأولاد المحارب المتوفى — من دخله ، اذا كانوا صغارا ، على أن تزداد هذه النسبة اذا ما كان الآباء قد ماتوا فى المعركة • ان هذا الاتجاه التوريثى بين النخبة العسكرية فى الامبراطورية ، قد أدى الى تركيز القوة فى الأجيال المتعاقبة مما أدى الى تدمير الجهاز البيروقراطى للحكم ، الذى كان سليمان قد ورثه وأضاف اليه وأكمله •

هذا التغيير فى روح الطبقة العسكرية العثمانية قد وجد تعبيرا عنه فى قلة الحماسة الفردية أثناء المعارك ، وقلة المرونة الادارية خلف خطوط القتال • ونتيجة لهذا ، تقلصت السلطة الفعلية — ممثلة فى قدرة السلطان الشخصية على الحسم — بشكل خطير خلال النصف الأول من القرن السابع عشر ، ومع هذا ، فان بنية الدولة العثمانية قد بقيت عظيمة جليلة مهيبة كما احتفظ التراث (الثقافة) العثمانى بقوة جاذبية عند غير العثمانيين ، لمدة طويلة ، بعد سنة ١٥٧٠ ، فلم تتفسخ الامبراطورية العثمانية تفسخا تاما ، وانما كانت تنحدر مجرد انحدار الى مستوى عادى من الفوضى الادارية والمالية ، وهو المستوى الذى كانت قد ألفته منذ فترة طويلة دول فى أوروبا ، والهند فى ظل المسلمين ، وشمال أفريقيا •

وكلما ألفت الفوضى ، وشاع الخلاف ، وجدنا الحكام العثمانيين ، والمسيحيين ، وان كانوا يعملون من خلال نفس البنية الادارية ، الا أن القيود أمامهم زادت زيادة نسبية ، فما عادوا يتصرفون بنفس الانطلاق ، وفى الدولة العثمانية ، كما فى المجتمعات الأوربية ، كانت طبقة ملاك الأراضى تناضل ضد النظام الذى فرضه التاج (أو السلطنة) ، ذلك

النظام الذى كان يقوم على كاهل موظفين رسميين ليس لديهم أى حقوق أو دعاوى وراثية ، للاستحواذ على السلطة .

وقد اتخذ هذا الصراع طابعا حادا (دراماتيكيا) خاصة فى روسيا ، حيث عرفت هذه الفترة تقليديا باسم فترة الاضطرابات ، ويمكننا استخدام نفس المصطلح (فترة الاضطرابات) لوصف الصعوبات الداخلية التى واجهها الدولة العثمانية فيما بين عامى ١٥٧٠ و ١٦٥٠ .

فترة الاضطرابات فى الدولة العثمانية (١٥٧٠ ـ ١٦٥٠)

لقد استمر العثمانيون ، غالبا ، فى حروب مستمرة بعد سنة ١٥٧٠ ، لكن هذه الحروب ، فى هذه المرحلة ، نادرا ، ما كانت تجلل بانتصارات حاسمة وفتوحات دائمة ، اذ أدى توجيه الجهود لمشروعات حربية بعيدة ومتعددة ، ضد أسبانيا وايطاليا ، وضد الفرس فى شرق الأناضول ، وضد الهبسبرج فى المجر ـ الى قلة شأن كل منها ، فسرعان ما كانت تتمخض هذه الحروب فتنفد فأرا . وتزايد تقاعس أصحاب الاقطاعات وتلكؤهم فى قبول التعبئة العامة ، لخوض مغامرات عسكرية نظرا لأنهم لم يعودوا يتوقعون منها مغنما سوى التعب والخطر . كما كان الأبناء ـ غالبا ـ فى هذه المرحلة ما يرثون أراضى آبائهم ، بدون أى التزامات عسكرية ، وكان هذا يتم خروجا على القانون أو تحايلا عليه .

وفى نفس الفترة كان الرقيق السلطانى ـ وهو المؤسسة الرئيسية التى يمارس السلطان من خلالها سيطرته الشخصية على الشئون المدنية والعسكرية ـ مهددا بالانفلات من أيدى السلطة . فلقد كانت مالية الامبراطورية تعتمد بشكل أساسى على الغنائم دخلا ـ ومن هذا الدخل كان المقاتلون الأفراد يحصلون على أجورهم . لقد كان التفوق العثمانى الحاسم على جيوش أوروبا فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، يعود ، فى جانب منه ، لموارد السلطان الهائلة ، تلك الموارد التى مكنته من الاحتفاظ بقوات مسلحة

أضخم وأحسن تجهيزا بالمعدات ، وأكثر تنظيما من أى قوة مسلحة منافسة فى أوروبا • وكانت هذه الموارد تاتى كغنائم من مناطق الحدود ، نتيجة عمليات الجيوش العثمانية، وما كانت هذه العمليات الصيفية تؤتى أكلها عندما تكون فى بلاد قاحلة ، يحكمها حكام فقراء ، يحارب عنها عسكر بائس ، فمثل هذه المناطق لم تكن تدر غنائم حتى لو تم الاستيلاء عليها •

ونظراً لقلة الغنائم فى المناطق الحدودية للامبراطورية العثمانية ، فان السلطات قد عوضت ذلك بزيادة ما يتم اغتصابه من السكان الرعايا فى الوطن العثمانى نفسه • فقد كان ملاك الأراضى والاقطاعات يطلبون مزيدا من العوائد والخدمات من الفلاحين فى عقاراتهم الزراعية ، كما أن الرسميين من عبيد البيت السلطانى كانوا يطلبون مزيدا من الاموال ، سواء مقابل أداء واجباتهم ، أو كرشاو ، ومثل هذه الممارسات قد مكنت كلا من السباهيين والموظفين الرسميين من العيش فى بحبوحة ورخاء أكثر مما كان عليه أسلافهم الذين عاشوا أيام التوسع السريع والغنائم الوافرة •

لكن الشرائح الدنيا من القوات المسلحة لم تكن بطبيعة الحال لتحصل على فرص مماثلة ، ومع التضخم العام فى الأسعار ، الناتج فى جانب منه ، عن دخول الفضة الأسبانية الأمريكية فى النظم الاقتصادية لعالم البحر المتوسط ــ أصبح ما يتقاضاه العثمانيون المحاربون غير كاف • وكان الحل الرسمى الذى تبنته الدولة هو السماح للنخبة العسكرية (الانكشارية) فى استغلال وقتهم الضائع فى العمل كفنيين وكحرفيين وصناع ، فى مواقعهم ومعسكراتهم ، لزيادة دخولهم من بيع ما يصنعونه ــ كمن سبقهم من المغامرين السباهيين الذين بدأوا يتكيفون مع الوضع الجديد ، فعاشوا كطبقة طفيلية من ملاك الأراضى ــ فان الجنود العاديين (الانكشارية) عندما غدا دخلهم الأساسى يعتمد على ما يصنعونه ، أدى هذا الى اندماجهم مع السكان الحرفيين فى

اسطنبول وغيرها من المدن التى بها مواقع عسكرية ، وفقدوا كثيرا من نظمهم التقليدية ، كما فقدوا حماسهم للقتال .

وعندما أصبحت الانكشارية مؤسسات حرفية ، وبدا أفرادها يحتلطون ــ بحرية ــ مع السكان المدنيين ، أصبح من الصعب للغاية منع مبدأ التوريث ، فأبناء الانكشارية كانوا هم وحدهم ، فى البداية ، الذين يتقدمون للانضمام الى كتائب الانكشارية تحت غطاء شرعى (قانونى) وهو ان المسلم بالميلاد لا يمكن شرعا (قانونا) ان يغدو رقيقا ، وفى عهد سليم الثانى (١٥٦٦ ــ ١٥٧٤) تم تحديد نسبة لقبول أبناء الانكشارية وادراجهم فى السجلات العسكرية . وفى سنة ٦٣٨ الغى السلطان مراد الرابع نهائيا الطرائق التقليدية فى جمع العبيد السلطانى ، عن طريق ضريبة الأطفال (الدقشرمة) التى كانت تجبى من قرى البلقان الغربية ، وقد أدىهذا التشريع الى اعتراف رسمى بحقيقة قائمة بالفعل ، فأبناء أصحاب الوظائف كانوا لفترة طويلة يشغلون الوظائف الممتازة ذات المزايا فى المقر السلطانى وكل المراكز والوظائف المتاحة ، وبذلك أصبح يمكن شغل هذه المراكز بدون ضرورة الحصول على أطفال جدد بطريقة قسرية من قرى البلقان البعيدة . وقد ميز هذا التطور الحادث فى المؤسسات العثمانية ، سكان المدن والمراكز الحضرية بشكل واضح ، على حساب الزراع فى قلب الامبراطورية الا أنه لما كانت غالبية أفراد الطبقة الحاكمة العثمانية ، كانوا فى أساسهم أولادا مجلوبين من القرى بعد استرقاقهم ، فان وضعهم هذا قد أدى الى تعاطفهم مع السكان الفلاحين ، ولكن الرسميين (الديوانيين) الذين نشأوا فى المدن ثم التحقوا بالعبيد (المماليك) السلطانى عن طريق نفوذ عوائلهم أو شراء المناصب ، فلم تكن تحركهم عواطف انسانية مماثلة نحو أهل الريف . وكان هؤلاء الرجال يعتمدون فى شهرتهم وفى مجال عملهم على ممارسة اقصى درجات الشدة فى الأعمال الادارية والمالية ، التى ــ ان أدوها وتابعوها بفاعلية ــ حققت لهم شراء أعلى المناصب .

ومع كل هذا فقد ظلت الفضائل العسكرية القـديمة أمرا هاما ، ولكن حتى القادة العسـكريين ذوى الكفاءة قد خسروا المرة تلو المرة شهرتهم فى مناطق الحـدود البعيدة حيث كان احراز النصر أمرا صعبا ، بينما ــ على النقيض من هذا ــ كان الرجال النشيطون القابعون بالقـرب من مركز السـلطة فى اسطنبول يحققـون مكاسب فى حالة الفشـل والهزيمة أكثر من المكاسب التى يحققونها فى حالة الانتصار ، وذلك اذا ما ربطوا أنفسهم بالعصبة الرابحـة فى البـلاط السلطانى بسرعة ، أو دفعوا المبلغ الكافى لشراء وظائف او مناصب جديدة ، أكثر ادرارا للمال • وفى مثل هذه البيئة وتلك الظروف تنتعش خبرات المؤامرات والمقالب السياسيه وكان يتعين على الذين وصلوا للقمة ان يخوضوا منافسات قاسـية وكان من الطبيعى ان يمتازوا بطاقات وذكاء غـير عادى ، رغم أنهم اكتسبوا خبراتهم من خلال تراث لا يعترف بالقيم والاخلاق •• تراث ضـيق الأفق يتسـم بالمحـافظة والحذر •

وكان لنمو أهمية المدن فى المجتمع العثمانى ، آثره فى تمتع افراد الطبقات العليا برفاهية ورخاء متزايدين ، حتى تأثرت المدن ، بالتالى ، برفاهية افراد هذه الطبقة • ففى خلال القرن السادس عشر ، وجدنا السباهيين الذين كانوا أولادا أو أحفادا للقرويين المعدمين أو رجال القبائل نصـف الجوعى ــ قد قبلوا حياة الخشونة والجلد فى المعارك كأمر طبيعى ألفوه ، أما فى الشتاء فلم يكن لديهم وقت ولا فرص لتعميق معرفتهم السطحية باغراءات المدن والمراكز الحضريه ، بينما أصبح نسلهم ينعم بمبـاهج المدينـة يأتيهـم رزقهم رغدا من اراضيهم ، وكانوا نادرا ما يمتطون صهوات الجياد ، وان فعلوا فعلى كره منهم ، وكانـوا يتعاملون مع السـوق الرحب كتجار وحرفيين . كما أنهم من ناحية أخرى كانـوا يطلبون مزيدا من العوائد وأجورا مرتفعة من الفلاحين • لقد اتسع الخرق ، اذن ، بين المدينة والقرية ، فقد أصبح سكان القرى ناقمين على النظام العثمانى ، وكان الارتفاع الملحوظ

فى عدد اللصوص وقاطعى الطرق فى البلقان فى القرن السابع عشر خير دليل على هذا التغيير ، فالشباب ـ الذين كان من المحتمل فى الزمن الباكر ان يؤخذوا ليدونوا ضمن العبيد السلطانى حيث يظهرون فى بعض الحالات كحكام للامبراطورية ـ هؤلا الشباب اضطروا تحت ضغط الضرائب الثقيلة ان يصبحوا لصوصا ، لم تمنعهم هجماتهم الموسمية على المسئولين وسكان المدن ، من أن يعيشوا معظم وقتهم كطفيليين وعالة على الفلاحين المسيحيين الأورثوذكس •

ويمكن وصف ما حدث بطريقة أخرى ، وذلك بأن نقول ان النظام العسكرى والادارى الذى انعش نفسه فى بداية الأمر بالغارات الحدودية التى ادت الى توسيع الدولة العثمانية ، قد نقل ميدان الغارات الضاريه الى قلب الامبراطورية العثمانية نفسها نظرا لأن المناطق الاخرى على تخوم ألامبراطورية كانت قد الم بها الانهاك والفقر • فالنظام الاجتماعى العثمانى غير العادى فى القرنين الخمس عشر والسادس عشر ، والذى كان قد وصل الى ذروة التوسع، كان يتعين ان يعيد تكييف نفسه وتشكيل ظروفه بشكل مؤلم ليتمشى مع أسلوب سياة جديد لا تتاح فيه غنائم طارئة ومكاسب مفاجئة تقذف بها الريح بغير تحسب • لقد أدت الظروف المفروضة على المؤسسات العثمانية بسبب توقف التوسع وتدنى العائد من الغنائم ، الى سلسلة طويلة من الاضطرابات والمشاكل فى مقر الحكم فى أسطنبول • وعادة ما كان مثيرو هذه الاضطرابات والثورات هم الانكشارية وغيرهم من الكتائب السلطانية أو طلاب العلم وعلماء الدين فى المؤسسات الدينية فى المدينة (اسطنبول) •وفى سنة ١٥٨٩ تمرد الانكشارية عندما سلمت لهم رواتبهم بعملة مخفضة القيمة وأجبروا الصدر الأعظم وبعض المسئولين الكبار على التنحى • وكانت هذه هى المرة الاولى التى ينجح فيها تدخل الجند العاديين فى احداث تغيير فى السياسة العليا لكن سرعان ما انتشر هذا ففى سنة ١٦٢٢ وفى سنه ١٦٤٨ خلع المتمردون الانكشارية السلطان وأعدموه •

ورغم هذا كله ، ورغم اضطرابات كثيرة أقل تطرفا ، الا أن النظام العسكرى والادارى العثمـــانى ظل قادرا بين الحين والآخر على استعادة قواه ، ففى سنة ١٥٩٦ ، عـلى سـبيل المثـال ، عبأ السـلطان محمـد الثـالث كل موارد الامبراطورية لخوض حرب ضد الهبسبرج النمسويين ، حيث جمعت الغنائم بالطريقة التقليدية • وفى حكم مراد الرابع (١٦٢٣ ــ ١٦٤٠) شهدت الامبراطوريه حركة احياء اكثر أهمية ، اذ كان هناك تمسك شديد بالمبدأ القائل : لا شىء يؤمن التقدم سوى المقصلة

Rien n'avance les choses comme les exécutions

لذلك فقد كان مراد يواجه التقصير والفوضى الادارية وعدم الكفاءة العسكرية ، بعقاب قاس للغـاية كما خطط مراد لاصلاحات عسكرية بعيدة المدى ، بقصـد خلق جيش ــ وان كان أقل عددا ــ الا انه سيوفيه كل احتياجاته وينفق عليه بسخاء ليجعله أكثر تجهيزا واحترافا ، ولكن موت مراد الباكر أوقف كل اصلاحاته باستثناء تعطيل ضريبة أطفـال البلقـان ، اذ توافق هـذا مع اهتمامات ومصـالح الطبقة الحاكمة العثمانية •

وعلى أية حال ، ففى ظل الظروف العادية ، عندما لم يكن يقبض على ناصية السلطة سلطان أو وزير قوى ، كان التضامن النـاتج عن المصـالح المكتسـبة يسـود الدوائر الحكومية ، ان أية محاولة لاعادة الحياة للنظام العثمـانى من خلال عمل عسكرى فعال ، كانت تسير على عكس ما تشتهى السفن ، اذ أن هذا كان يتطلب نفقات متزايدة متعاظمـة وجهدا اداريا ، لقد كان الحـكام العثمانيـون ، حقيقة ، يواجهون مأزقا صعبا ، وكان أمامهم أمران ، أحلاهما مر ، فالاصلاح يعنى التجديد ، ولـكن التجديد فى نفس الـوقت يهدد المصالح الموروثة التى يقول أصحابها ان اعادة عظمـة الامبراطورية ، ليس فى التجديد وانما هو بالتمسك المخلص بتراث الاســلاف ، فمزايا الانكشـارية يجب ألا تمس ، وتجهيزاتها المتعارف عليها يجب ألا تتبدل لما التطـورات

الأوربية فى مجال التكنولوجيا العسكرية فلا دخل لهم بها ، وهى بالنسبة لهم ، ليست ذات علاقة بالموضوع ، فارادة الله التى وهبت العثمانيين هيمنة شاملة فى القرن السادس عشر، ــ لا يمكن تغييرها (١) ٠

فلو كانت الانتصارات العثمانية السابقة أكثر تواضعا، والماضى أقل الهاما وابهارا وقدوة ، لأمكن تحقيق اصلاحات جذرية كتلك التى قام بها ايفان الرهيب وبطرس الآكبر فى روسيا ، فالـروس لافتقارهم الى ماض امبراطورى باهر ، كانوا أكثر استعدادا للاقتداء بالأجانب ، أما العثمانيون ــ من ناحية أخرى ــ فان تحررهم من تراثهم كان أمرا صعبا٠ ولم تتقلص السلطة الاوتوقراطية بالسرعة الكافية ، اذ كان هذا فى اوروبا أسرع ، فأدوات الحكم الاستبدادى ووسائله كانت دائما كامنة فى المجتمع العثمانى وتجد من يدافع عنها ، حتى عندما كان يشغل عرش السلطنة ضعفاء أو أطفال ٠ فقد استمر القساة المقتدرون يتبوءون وظائف الادارة العثمانية ، ولم نكن قسوتهم لخدمة الصالح العام ، وانما لتحقيق أهداف ضيقة الافق ، ودخلوا فى صراعات لتكوين أوضاع مميزة لأنفسهم والاثراء السريع وقهر منافسيهم ، ومع ذلك ، فقيام حاكم قوى ذى بصيرة على راس النظام ، قد يستقطب فى زمن وجيز سائر طبقات الرسميين (الديوانيين) حوله ، تماما كما يفعل المغناطيس بالبرادة الحديدية ، ليصوغ منهم أداة طيعة تعبر عن مشيئة الحاكم الفرد ، وهذا ــ كما سنرى ــ كان انجازاللصدرين الأعظمين، محمد وأحمد كوبر يللى ولكن التراث الاستبدادى للمجتمع العثمانى الذى ، وان سمح بمثل هذه الومضات الاحيائية ، الا انه كان يحد من انطلاقهــا بحصرها وتقييدها فى نطاق أهدافه ووسائله التقليدية ٠

---

(١) هذا هو السبب الحقيقى للجمود ، وليس السلفية ، أو المطالبة بالعودة للكتاب والسنة ، فالرغبة فى الحفاظ على المكاسب ، هى التى تجعل بعض الفئات الحاكمة تطالب بالتمسك بالماضى ، وهم يتخذون ذلك ذريعة للحفاظ على مصالحهم ، وليس حبا فى الماضى لذاته ــ (المترجم) ٠

لقد سبب التفكير فى قالب محافظ ، وفى نفس الوقت كان العمل بسعار للحفاظ على المكاسب والمزايا وترك هذا تأثيره المسيطر على نظام حيازة الأرض ، وادارات الحكومة • وكان الشعور العام غير راض عن ذلك ويعتبره خطأ ، ولم يصل الأمر الى حد اغتصاب السلطنة ، فهذا كان يمكن تجاوزه اذا كان الحاكم قويا وناجحا فى تعيين عملاء جديدين له •

وعلى أية حال ، فان كل هذا قد أدى الى اتجاه مهلك اذ تفاعلت فى اسطنبول سياسات الغوغاء والتكتلات المتنافسة • لقد كان عصر الاضطراب العثمانى عصرا سطحيا بالمقارنة ، فلم يؤد الى تغييرات أساسية ودائمة فى موازنة القوى الاجتماعية كما لم يؤد الى تخلى العثمانيين ــ حقيقة ــ عن أفكارهم ومثلهم فى الحياة والحكم •

العثمانيون يتقدمون من جديد (١٦٥٠ ــ ١٦٨٣) :

لقد أوجدت الفتوحات العثمانية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر فى أطراف أوروبا ــ سواء فى شرق أوروبا ، أم فى أوروبا البحر الاسود ــ سلسلة من الدول التابعة Client states مثل ترنسلفانيا ومولدافيا وفاليشيا وخانيات التتر Tartar Khanates حول البحر الاسود وبحر أزوف Azov وكانت هذه الدول التابعة ــ رغم قيام العثمانيين بفتحها ، الا أن علاقاتها بالعثمانيين كانت أساسا ممثلة فى دفع الضرائب • ونتيجة المشاكل الداخلية التى واجهها العثمانيون خلال النصف الأول من القرن السابع عشر ، قامت سلسلة محاولات قام بها جماعة من المغامرين العسكريين لتأسيس نظم حكم استبدادية فى هذه المناطق حيث استقلوا عن الحكم العثمانى ، وتمردوا فى نفس الوقت على الهيبسبرج ، فى المناطق المجرية التى كان يحكمها الهيبسبرجيون • ففى السنوات الوسطى من هذا القرن السابع عشر ، تدهور نجاح هؤلاء الأمراء النسبى ، ذلك النجاح الناتج عن المكائد والخداع ، اذ أن المعارك خلال

الخمسينات من القرن السابع عشر قد أعادت الهيمنة العثمانية على خانات القرم وبحر آزوف • وبتوقيع معاهدة وستفاليا westphalia فى سنة ١٦٤٨ ، أعادت القوى الأوربية تنظيم صفوفها وضمنت استقلال ترانسلفانيا Transylvania ، ولكن فى سنة ١٦٥٨ وصل الجيش العثمانى الى درجة آكد فيها السلطة العثمانية • وفى نفس الفترة ، قامت المؤسسات والوكالات العثمانية مع الماليين اليونانيين الذين كانوا رعايا عثمانيين ــ بسحب نتاج المزارع الرومانية لبيعها فى سوق اسطنبول كسوق دولى للطعام ، مما أعاد مولدافيا وفاليشيا للدوران فى فلك الدولة العثمانية •

وهذا برهان واضح على أن الدولة العثمانية قد حاصرت ــ ولو بشكل مؤقت ــ مشاكلها الداخلية وجددت طاقاتها وقدرتها على الفتح والاستيعاب •

وكانت أول علامة على انفتاح شهية العثمانيين للحرب والعدوان ضد الأوربيين ممثلة فى حروب العثمانيين فى البحر المتوسط منذ سنة ١٦٤٥ عندما غزوا كريت ، احدى أهم مراكز جمهورية البندقية اذ سرعان ما طرد العثمانيون البنادقة من الجزيرة ، ولكن فشلهم فى الاستيلاء على قلعتها فى كنديا جعل الطرفين (العثمانيين والبنادقة) يخوضون حرب حصار طويلة ومؤلمة • وقد أدى عدم فعالية الانجاز العسكرى لقوات المسلحة العثمانية فى المراحل الأولى للحرب الكريتية ، الى أن صرف المؤرخون انتباههم عن هذا التطور الهام جدا الحادث فى الدولة العثمانية • فلم تقاوم الجزيرة الا من خلال قلعتها التى كانت تلقى الدعم والامدادات من البندقية ذاتها (المدينة الأم) أما سكان الجزر اليونانية فقد رحبوا فى بداية الأمر بالعثمانيين كمحررين يخلصونهم من حكم الايطاليين الرومان الكاثوليك المتسم بالعدوانية ، وفى السنوات التالية تحولوا للاسلام بأعداد غير قليلة •

ويعد هذا تراجعا خطيرا فى الممارسات العثمانية خلال

القرن السادس عشر ، فباستثناء اجبار صبية البلقان على الاسلام ــ أولئك الصبية الذين كانوا يلحقون بخدمة البيت السلطانى ــ فان العثمانيين لم يبذلوا جهودا فى عهد سليمان القانونى وبعض من خلفه لنشر دينهم بين شعوب أوروبا الشرقية المهزومة وكان المسلمون السنة ــ السلفيون ــ يطبقون مبدأ التسامح الدينى مع المسيحيين ، ويركزون على الفرق بين العقيدة الاسلامية والأديان الأخرى ، وكانوا يجرمون جماعات الدراويش المبتدعة من المسلمين ، وهم بهذا كانوا يحظرون احد الوسائل التى يدخل فيها غير المسلم الى الدين الاسلامى بالحسنى •

فكل المؤسسات الدينية قد مارست بين الحين والآخر ، نوعا من التردد بين عقيدة السنة النقية ، والاتجاهات الأخرى الراغبة فى التوائم مع المذاهب الدينية الموسومة بالابتداع (الهرطقة) الا أن سليمان القانونى عرف الاسلام تعريفا صارما ، وفرض عقيدة السنة ، وكان لابد أن ينتج عن ذلك رد فعل حتمى ، اذ عجل هذا بسلسلة من الحروب ضد فارس خلال النصف الأول من القرن السابع عشر ، وكانت هذه الحروب تخضع لاعتبارات المد والجزر ، مما عرض الحدود الشرقية للامبراطورية العثمانية لتدفق تأثيرات الشيعة المبتدعين (الهراطقة) • الا أن الانكشارية كانوا دائما مرتبطين بطريقة البقطاشية وهى احدى طرق الدراويش • وكان تدخل الانكشارية الدورى فى سياسة القصور قد أدى الى اتجاهات تحررية فى تفكير الطبقات الحاكمة • فقد كان الاسلام قد فقد صرامته العقائدية عند الممارسة الفعلية فى الدولة العثمانية من القرن السابع عشر ، وانما عمد معتنقوه الى اظهاره بمظهر جذاب وطاقات جذابة أيضا وذلك بقصد العمل على كسب أنصار جدد ، ويمكن تفسير تحول الكريتيين وغيرهم من الجماعات فى الأماكن النائية الفقيرة ، الى الاسلام ، بالرغبة فى انتهاز الفرص التى يتيحها تحولهم للاسلام من تحسين أوضاعهم الوظيفية ، فى ظل هذه الظروف المتغيرة • فتركوا المسيحية بأعداد كبيرة ودخلوا فى

الاسلام ، وكان هذا واضحا وبشكل جماهيرى بين الألبان وسكان جبال مونتنجرو (الجبل الاسود) Mon-negrin Mcunt-urees والبلغار فى تلال رودوب Rhodope ، وبلغ تحول هؤلاء للاسلام دروته فيما تبقى من هذا القرن السابع عشر، وقد كتب على الألبان الذين تحولوا للاسلام أن يلعبوا دورا حاسما فى أحياء الامبراطورية العثمانية ، لقد كانت طرائق التقدم لا تزال مشرعة فى الجيش العثمانى والادارة العثمانية ، بدفع الكفاءات ألقادرة من الملاحين ذوى الأصول المتواضعة •

لقد انطلق الألبانيون من تلالهم وجبالهم كأسراب النحل فى السنوات الوسطى من القرن السابع عشر ، ليقوموا بنفس الأعمال والوظائف التى كان يقوم بها رقيق البوسنة والهرسك خلال القرن السادس عشر • لقد كانت مهارات الألبانيين واتجاهاتهم العسكرية التى جلبوها معهم بعد اسلامهم كافية لتجعل لهم مكانا حفيا ، عندما التحقوا بالآلاف فى الجيش والادارة ، فلعبوا بذلك دورا جدد الشخصية العدوانية للعثمانيين • لقد كانت طبيعتهم القبلية قد جعلتهم غير أنانيين اذ عملوا كخدم مخلصين للسلطان العثمانى بطريقة لم تكن الامبراطورية العثمانية ، لتجدها الا نادرا فى هذه الفترة • ولقد كان أقوى اتفاق مع الألبانيين سكان الجبال هو الذى يحكمه القسم على الولاء أو الصداقة (البيسا besa) ، ولقد اكتسبت البيسا معنى جديدا بالنسبة لهؤلاء الألبانيين الذين دخلوا فى خدمة السلطان •

لقد اعتبر الألبانيون أشكال وصيغ الاتفاقات التى دخلوا بمقتضاها عرضا ، فى خدمة السلطنة العثمانية ، متفقة ومساوية لقسمهم التقليدى على الصداقة والجندية (البيسا) • وعلى هذا فقد كان المهاجرون الألبانيون الى مدن الامبراطورية العثمانية يلوذون بالموظفين الألبانيين الذين كانوا يكنون لهم الولاء والاخلاص الناتج عن قسم الصداقة

(البيسا) أو رفقة السلاح ، وكان هؤلاء الموظفون الالبان يعتمدون بالتالى على هؤلاء المهاجرين من أبناء جلدتهم لحماية مصالحهم • وكان هذا رغبة فى شرف الكلمة او الوفاء بالقسم على الطاعة مهما كانت الظروف ، ولم تكن أى جماعة عرقية أخرى فى الامبراطورية العثمانية ، غيرهم لتصمد بولائها وقسمها مثلهم •

لقد شكلت الحرب الكريتية اتجاها فى الشئون العثمانية، فقد أصبحت أسرة كوبريللى قادرة على وضع الامبراطورية فى طريق الاهتمام المتجدد بالفتوحات غير ان الاضطرابات التى كان يثيرها الانكشارية كانت تعبر عن انتشار السخط على طريقة ادارة الحرب فقد تم خلع واعدام السلطان ابراهيم فى سنة ١٦٤٨ • وفى سنة ١٦٥٦ حدث المزيد من الاضطرابات فى اسطنبول عقب انتصار البنادقة البحرى فى الدردنيل ، مما أدى الى استدعاء محمد كوبر يللى من معزله، ليتولى منصب الصدر الأعظم • وكان محمد كابريللى هذا مسئولا عثمانيا كبيرا كثير الخبرة محترما ، وكان قد بدأ عمله كمساعد طباخ (غسال صحون) فى المطابخ السلطانيه• ولم يكن محمد كوبر يللى ليقبل هذا المنصب الا فى ظروف تخويله السلطة كاملة دون اعتراض أو تحد • فسياسته الحاسمة التى اتبعها خلال خمس سنوات قبل أن توافيه المنية فى سنة ١٦٦١ غيرت الوضع تماما ، فقد طرد البنادقة من الجزيرتين الاستراتيجيتين ، ليمنوز Lemnos وتنيدوز Tenedos • وفى سنة ١٦٥٨ بدأ سلسلة من التجريدات العسكرية جعلت أمراء ترنسلفانيا ومولدافيا وفاليشيا ، يلتزمون بالطاعة ، أما فى الداخل ، فقد اتخذ اجراءات شديدة ، لتحسين نوعية الادارةواعادة النظام بين الكتائب السلطانية وقد حلف محمد كوبر يللى فى منصب الصدارة العظمى ابنه أحمد كوبر يللى الذى ظل يشغل هذا المنصب حتى سنة ١٦٧٦ • وبالتنظيم العسكرى الذى ورثة عن أبيه والذى أعاد القوات العثمانية المسلحة الى مستوى من الكفاءة قريب مما كانت عليه فى القرن السادس عشر ــ استهل

أحمد كوبريللي استلامه لمنصبه بالتجهيز والاعداد لمعركة تقليدية ضد الهبسبرج فى المجر ومورافيا وسيلزيا ٠ ولقد وضع العثمانيون قوات بلغت أكثر من ٢٠٠٠٠٠ محارب فى ميدان المعركة فى سنة ١٦٦٣ ، ولكن هذه المعركة اتخذت طابع الغارة ، اذ غلبت عليها عمليات السلب بشكل أساسى — أكثر من كونها معركة فتح أو غزو٠ لقد كانت غارة Razzia بشكل أساسى ٠ وعندما استأنف العثمانيون أعمالهم العدائية فى العام التالى ، واجهوا مقاومة جيدة حسنة التنظيم ، فقد اصطدم الجيش العثمانى بكتائب أوربية ضخمة يقودها القائد الايطالى الألمى الجنرال رايموندو مونتكوكولى Riamondo Montecuccoli الذى هزم العثمانيين هزيمة منكرة فى معركة القديس جوثارد St Gothard وقد اضطر أحمد كوبريللى نظرا لما واجهه من احباط فى ميدان المعركة الى اللجوء الى فنون الدبلوماسية ، اذ أجبرته بنود اتفاقية هدنة فاسفار vasvar فى سنة ١٦٦٤ للتنازل عن أجزاء من المجر العثمانية للهبسبرج ، غير أن العثمانيين حصلوا على تعويض مماثل فى بعض القلاع الحدودية من النمسويين كانوا قد استولوا عليها أثناء معارك سنة ١٦٦٣ التى أشرنا اليها ٠

وعلى هذا فقد كان من الواضح أن الهبسبرج الان يعيدون توزيع قواتهم العسكرية ، التى كانت وحدات المشاة فيها تتمتع بقيادة فعالة ، كما كانت وحدات مدفعيتها قادرة — فى الظروف العادية — على التقليل كثيرا من كارثة تقدم الجيوش العثمانية ، تلك الكارثة التى ما عادت أوروبا تتحملها ٠

وعلى هذا فان أحمد كوبريللي قرر أن يتحسس نقاط الضعف فى النظام الدفاعى الأوروبى ، فتابع الحرب الكريتية ليحسمها فسقطت كانديه وتخلى البنادقة عن الجزيرة فى سنة ١٦٦٩ ٠ وقد أدى هذا النجاح الى تفرغ القوات العثمانية للقيام بمغامرات جديدة فى الشمال ، فقد

قدمت أوكرانيا امكانات مغرية للعثمانيين ، اذ كانت أوكرانيا مجال نزاع بين روسيا وبولندا بينما كان سكانها الوطنيون وهم القوزاق Cossack يحاولون الظفر بالاستقلال بعيدا عن القوتين المتصارعتين ، لذا فقد قام العثمانيون بارسال سلسلة من الحملات العسكرية القوية المدمرة الى أوكرانيا البولندية (الخاضعة لبولندا) خلال السبعينات من القرن السابع عشر ، مما مكن أحمد كوبريللى من تتويج عمله باملاء معاهدة زورافنو zoravno على جون سوبسكى John Sobieski — ملك بولندا — فى سنة ١٦٧٦ ، وبذلك تخلى البولنديون عن كل ادعاءاتهم فى أوكرانيا ، ودخلت مقاطعة بودونيا الأوكرانية تحت الادارة العثمانية المباشرة ، كما تم اعلان بلاد القوقاز الزابوروريين zaporozhian Cossacks على الشاطىء الغربى لنهر دنيبر Dnieper كرعايا خاضعين للسلطة العثمانية ٠

لقدكانت أسرة كوبر يللى من أصول ألبانية ، وكان لنجاح أول وثانى صدر أعظم من هذه الأسرة ، اثره المحتمل فى تحول الألبانيين تحولا جماعيا للاسلام خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر ، كما وثق العرى بين الحكومة العثمانية وقبائل الجبال الألبانية ٠

وقد أمد هؤلاء الألبانيون المسلمون ، الجيش والادارة العثمانية ، بطاقات وحماسة جديدة ٠ فعلى نحو جزئى ، ظل التقليد القديم الممثل بادراج أفراد الطبقات الدنيا ، فى الطبقة الحاكمة ، تقليدا ساريا أو أعيد احياؤه على الأقل ، وبمثل هذه الوسائل ، فان بعض فعاليات الادارة العثمانية المتميزة ، قد نجت من الخلل الممثل فى الرشوة والفساد والتمسك بالمزايا الموروثة ، تلك الرزايا التى سربتها للادارة العثمانية خلال القرن السابع عشر ، الجماعات الحضرية (سكان المدن) وملاك الأراضى ٠ وحتى حركة الاحياء والتجديد التى قام عليها آل كوبر يللى ، كانت حركة

مؤقتة ، لا تتسم بالاستمرارية • وقد عاقت الجبال القاحلة فى ألبانيا وكريت وبلغاريا اولئك المتحولين للاسلام ، كما أن جماهير السكان فى البلقان خاصه سكن السهول والفلاحين ، ظلوا بمعزل عن الاسلام غير محتكين به ، فى القرن السابع عشر ، كما كان عليه الحال فى القرن السادس عشر •

حقيقة لقد أنعش المهاجرون الجبليون الطبقة الحاكمة فى الامبراطورية العثمانية ، لكن ذلك لم يكن كافيا لتغيير النهاية المحتومة ، فقد كان الوهن الاجتماعى ضاربا أطنابه، وتجلى هذا بوضوح خلال الفترة التى اصطلح على تسميتها بفترة الاضطرابات العثمانية

وحتى النجاحات ذات الطابع المبهر التى أنجزها أحمد كوبريللى فى أوكرانيا خلال اوائل الثمانينات من القرن السابع عشر ، كان ينقصها الديمومة والثبات اللذان مازا الفتوحات العثمانية فى البلقان فى القرن السادس عشر ، فالضغط الروسى أجبر العثمانيين على التخلى فى سنة ١٦٨١ عن بعض ما حصلوا عليه ، وعلى أية حال فان الجيش العثمانى الغازى كان قد تسبب فى ايجاد منطقة خالية فى الاقليم بعد أن كانت امكاناتها الهائلة كمخزن بشرى ومصدر للضرائب والطعام ، لا تعد ، مما أضاع ذلك كله على الأجيال التى آتت بعد ذلك •

لقد خلف أحمد كوبريللى كصدر أعظم أخو زوجته قره مصطفى الذى كان حالما بعيدا عن الواقعية مهتما بمصلحته الذاتية ، وكان أقل فهما لمجريات الأمور من آل كوبريللى ، فلم يدرك ضرورة توافر الموازد لتحقيق الطموح (علاقة الطموح بالامكانات) • لقد نسى قره مصطفى الدروس القاسية التى قدمها النمسويون فى التكتيكات العسكرية خلال أوائل السبعينات من القرن السادس عشر ، فأوقف (قره مصطفى)التوسع العثمانى فى أوكرانيا ويمم وجهه شطر أوروبا الوسطى ضد الهبسبرج ، وللحق ، فان الفرصة

كانت تبدو سانحة لذلك • غير أن جهود الهبسبرج الدائمة بعد سنة ١٦٤٨ لاخضاع نبلاء المجر المتمردين لمزيد من سيطرة فينا الادارية ، وذلك لتهيئة الفرصة أمام جهود حركة الاصلاح المناد Counter reformation للعمل خلال الولايات التابعة لفينا ولانشاء استحكامات قوية فى المجر لمواجهة العثمانيين ــ وقد أدت هذه الجهود لاخضاع نبلاء المجر ــ للأسباب التى ذكرناها ــ الى زيادة القلق والاضطراب لدى هؤلاء الحكام المجريين المحليين ولقد يمم هؤلاء النبلاء المجريون المنشقون وجوههم فى بداية الأمر صوب فرنسا ليحصلوا منها على المعونات والامدادات والتأييد السياسى ، لكن المساعدة الفرنسية أضحت غير مأمول فيها بعد توقيع سلام نمويجن Nimwegen بين فرنسا والنمسا فى سنة ١٦٧٨ ، وسرعان ما تقدم قره مصطفى بعروض ليحل محل لويس الرابع عشر كظهير ونصير لثورة المجريين ضد السلطة المركزية الهبسبرجية • لقد وجد قره مصطفى تعاونا ورغبة من توكولى Imre Tokolli الأمير الشاب ، والذى كان جده قد اشترك فى ثورة ضد الهبسبرج حيث أعدموه فى سنة ١٦٧١ ، وقد وجد الزعماء المتمردون فى توكولى قائدا قويا • وهكذا أصبح توكولى ممثلا لتحالف الحكام المحليين المجريين مع الامبراطورية العثمانية لاحباط تقدم البيرزقراطية النمسوية ، ويذكرنا هذا بجون زابولى خلال القرن السادس عشر •

لقد كان حلم قره مصطفى فى احراز نصر ساحق على الهبسبرج يجعل من الضرورى تأجيل ذلك لبضع سنوات بعد تعيينه ، لاعداد وتدريب الجيش العثمانى لتنفيذ هذا المشروع ، وقد استفاد الهبسبرج من فترة التقاط الأنفاس هذه لتعديل سياستهم فى المجر وفى سنة ١٦٨١ عندما أعاد الامبراطور ليوبرلد الأول Leopold 1 دستور مملكة المجر القديم ، أدى هذا الى زعزعة مركز توكولى وحرمانه من عضوية جماعة النبلاء المجريين ، الذين لم يكونوا راغبين

فى التخلص من طلبات امبراطور فينا ، لا لشيء ، الا ليقعوا فى قبضة السلطان العثمانى .

وفى ربيع سنة ١٦٨٣ ، أطلق قره مصطفى العنان لجيشه الهائل المتعدد المناصر ، فانساب عبر كل الولايات والدول التابعة للامبراطورية العثمانية على طول الدانوب ، فتراجعت القوات العسكرية الهيسبرجية بأعداد كبيرة وارتدت الى فينا ، وفى يوليو من نفس العام وصل العثمانيون ليحكموا حصارهم التاريخى الثانى حول فينا .

لقد أدرك الأوربيون معنى حصار فينا ، ومدى ما يمكن أن يحيق بأوروبا اذا ما سقطت ، فحتى لويس الرابع عشر الذى كان ساخطا على الهيسبرج قد أجبر فى مقابل تنازلات دبلوماسية هامة ، على الموافقة على تأجيل مهاجمة الحدود الغربية للامبراطورية الرومانية المقدسة .

وبعد ستين يوما من الحصار ، تم انقاذ فينا ، بسبب تدخل الجيش البولندى الذى كان على رأسه ملك بولندا ذو القيادة الواعية ، جون سوبيسكى John Sobeiski وهزم العثمانيون وتراجعوا ، ولم ينج الجيش العثمانى من الابادة الا بسبب الانقسامات التى حدثت بين الأوربيين . ولقد كتب جون سوبيسكى :

« ها نحن الآن على الدانوب ، كما كان اليهود على الفرات ، نندب خسائرنا من الخيول ، ونواجه الجحود ونكران الجميل من أولئك الذين أنقذناهم » .

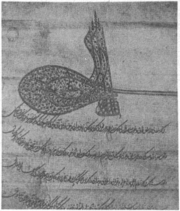
لقد خاطر قره مصطفى مخاطرة كبيرة وفشل فشلا ذريعا مسببا كارثة ، لذا فقد تم اعدامه بأمر من السلطان، ولقد كانت هزيمة قره مصطفى منعطفا دالا على آن المبادرة العسكرية والسياسية فى أوروبا الشرقية قد تفلتت — والى الأبد — من أيدى العثمانيين .



إعادة الاستيلاء على تونس بواسطة قوات شارل الخامس سنة ١٥٣٥ ، إلا أن الترك استعادوها سنة ١٥٧٤



صورة رسمها فنان أوربى فى القرن السادس عشر ، توضح ما كانت تتصف به الطبقة
الحاكمة العثمانية فى القرن السادس عشر من عظمه وقوة ،
وربما كانت الصورة لسليمان القانونى .



طغراء سليمان القانوني.



حفر على الخشب من انتاج فنان المانى فى القرن السادس عشر يوضح أن الفرسان الترك (العثمانيين) فى القرن السادس عشر رغم دروعهم الخفيفة الا انهم كانوا اكثر قدرة على الحركة واكثر فعالية من الخيالة المسيحيين .



صورة رمزية تعبر عن قوة الدولة العثمانية وهى تقف أمام القرن الذهبى وتعلو على ألوية أوربا وآسيا وأفريقيا المنكسة . ونرى تحت قدمى رمز الدولة المفتاح والصولجان اللذين يرمزان للسلطة الكهنوتية والزمنية في العالم المسيحى

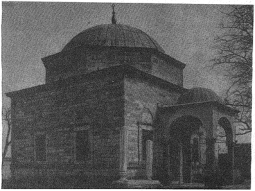


السلطان مراد الأول



السلطان أورخان

من رسوم فنانى القرن السادس عشر فى أوربا



قبر السلطان مراد الأول بأرض معركة كوسوفو (١٣٨٩) التى قضى فيها السلطان على بقايا المقاومة الصربية وكان السلطان قد اغتيل فى ظروف غامضه عقب نصره الكبير مباشرة



دفشرمة البلقان . لقد بدأ هذا المنظر منذ بداية القرن الخامس عشر



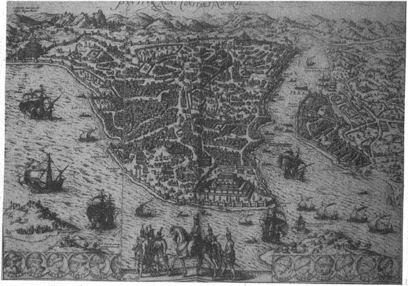
• حفر على الخشب • صورت الدعاية المسيحية في القرن السادس عشر العثمانيين ـ وكانوا يسمونهم بالمسلمين بشكل عام ـ كعبدة شيطان



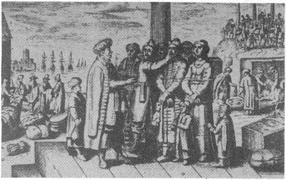
الترك كما صورهم الاوربيون في القرن السادس عشر
(عناصر ممعنه في القوة)



تاجر من راجوسا ـ وقد كان التجار الراجوسيين الماهرون بسفنهم الشراعية الضخمة يحصلون على نصيب كبير من تجارة شرق البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر وكان للراجوسيين نشاط واسع في مختلف انحاء الولايات العثمانية الأوربية



(مخطط اسطنبول (القسطنطينية) فى سنة فتح العثمانيين لها وفى الصورة الأخرى منظر للمدينة
نفسها فى أواخر القرن السادس عشر كما تصورها الزائرون الأوروبيون



منظر من سوق الرقيق فى اسطنبول



محارب عثمانى يرتدى الزى الرسمى لطائفته الحرفية



احد الطواشية السود (الخصيان) الذين
كانوا يشرفون على الحريم السلطانى



كان وجهاء اسطنبول ينفقون مبالغ طائلة لشراء المماليك والخدم



لعب الحريم دوراهاما فى البلاط
العثمانى ، وفى توجيه سياساته
ومن ذلك ان زوجة سليمان
القانونى الجركسية قد عملت
على ضمان عرش السلطنة
لابناء سليمان منها



الدراويش يرقصون.



سليمان القانونى يمتطى صهوة جواده



إنكشارى فى طريقه للمعركة . لقد كانت كتائب الانكشارية أكثر الكتائب الحربية بثا للرعب فى قلوب الأوربيين فى القرن السادس عشر



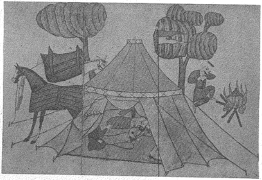
جندى مشاه مغربي الأصل من الشمال الافريقي من الأندلس



السباهي -وكان السباهيون شغوفين بالترقى ويسمون بالطموح



جندى مشاة من فلاحي الأناضول



مقاتل عثمانى يستجم

ملوك المجر



ماتياس كورفينوس



الشاه اسماعيل الصفوى القائد الشيعى (١٥٠٠ _ ١٥٢١)
الذى ادى ظهوره إلى تقسيم العالم الاسلامى _ على نفس
النحو الذى قسمت الحركة البروتستنتية أوروبا



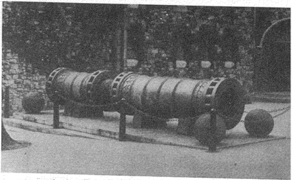
لاديسلاس الخامس



فتاة تهو



د لويس الثانى



مدفع عثمانى من القرن الخامس عشر . وكانت هذه المدافع النحاسية مدافع حصار ، يبلغ
وزن الواحد منها ما يزيد على ١٨ طنا ، اما الماسورة فهى من قياس ٢٥ بوصة





تاجر ارمنى

تاجر يهودى

لقد أصبح الاقتصاد العثمانى – وليس الجهاز الإدارى والحربى فحسب – يعتمد
على غير المسلمين فى القرن السابع عشر





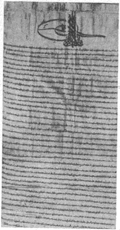
يوحنا الثالث سوبسكى ، ملك بولندا (١٦٢٩ ـ ٩٦) ورايموندو مونتيكوكولى ، الذى
احرز النصر فى معركة القديس جوثارد



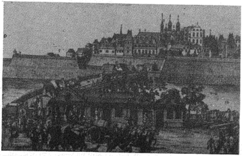
ثمن الفشل : إعدام قرة مصطفى



غلاف كتاب ريتشارد كنولز المعنون : تاريخ الترك العام ، والمنشور سنه ١٦٠٣



صفحة العنوان لمعاهدة كارلوفتش الموقعة سنة ١٦٩٩



مقهى خارج أسوار فينا القرن السابع عشر . إنه تأثير تركى (عثمانى) ، فقد دخلت عادة شرب القهوة إلى أوربا بتأثير العثمانيين ، وهو أكثر عناصر تأثيرهم رقة على حد قول كنولز

فترة التراجع العثماني والسيطرة النمسوية :
(١٦٧٣ - ١٦٩٩) :

كان ميزان القوى خلال حكم سليمان (القانوني) يميل لصالح العثمانيين ، ومنذ سنة ١٥٧٠ ، كان هذا الميزان متعادلا بين العثمانيين والأوربيين ، اذ كان الموقف الاستراتيجي بينهما مقفلا (متعادلا) وظل كذلك حتى أواخر القرن السابع عشر ، الا ان هذا التعادل (التوازن) بدأ يختل بشكل حاد لصالح النمسويين وحلفائهم • الا أن الجهود التي كان يقوم عليها صدر أعظم قادر ومؤثر ، كانت لا تزال قادرة على احياء النظم الادارية والعسكرية العثمانية وبث الروح فيها ، كما رأينا في الفترة من ١٦٨٩ الى ١٦٩١ ، وهي الفترة التي شغل فيها هذا المنصب مصطفى زاده ابن محمد كوبريللي ، غير ان سلسلة الهزائم العسكرية التي منى بها العثمانيون ، وخسرانهم لمناطق كانت تابعة لهم أظهر أن الروح العدوانيه القديمة والقدرة على الاندفاع قد استنفدا ولم يعد العثمانيون بقادرين على ممارستهما ، أما تفسير كون العثمانيين لم يتخلوا الا عن الولايات النائية في امبراطوريتهم الاوربية ، خلال ما تبقى من سنوات في هذا القرن السابع عشر ، فيمكننا أن نعزو ذلك الى حد كبير للمعارك والإنقسامات الناشئة بين القوى الأوربية أكثر مما يمكننا أن نعزوه الى طاقات العثمانيين وامكاناتهم وقدرتهم على المقاومة • لقد شغلت الحكومة العثمانيه عدة سنوات بتكوين قوات مسلحة، تحل محل تلك التي تمزقت اربا أمام أسوار فينا في سنة ١٦٨٣ • وقد أسرع قادة الهبسبرج باستغلال الموقف لصالحهم ، ففي سنة ١٦٨٤ أزاحوا توكولي ، ومن تبقى من مؤيديه عن المدن ذات القلاع في المجر العثمانية ، وفي سنة ١٦٨٦ اجتاحت قوات الهبسبرج بودا Buda العاصمة الاقليمية والقاعدة الاستراتيجية وبذلك تخلصت معظم مملكة المجر القديمة من الاحتلال العثماني وفي سنة ١٦٨٧

دخل العثمانيون الميدان بجيشهم الإحتياطي والتقوا مع النمسويين في موهاكس في نفس الموقع الذي سبق لسليمان القانوني ، فيه ، أن بعثر قوات الملك المجري وقادته المحليين في سنة ١٥٢٦ . غير أن النصر في هذه المرة (١٦٨٧) كان حليف الجانب المسيحي ، الذين أعقبوا انتصارهم باجتياح مولدافيا Moldavia وفاليشيا Wallachia وكرواتيا Croatia ، وأجبروا ترنسلفانيا على نبذ السلطة العثمانية . وبينما كان العثمانيون يواجهون ضغطا كبيرا في المجر ، ضرب البنادقة في جنوب شرق أوروبا ، ففيزو المورة Morea واستولوا على أثينا وكورنث Corinth وطردوا العثمانيين من معظم دلماشيا بين عامي ١٦٨٦ و ١٦٨٨ ، وخلال سنة ١٦٨٨ استغل الهبسبرج انتصارهم في موهاكس فاستولوا على مدينة بلجراد وقلعتها ، وهي (المدينة) مفتاح الدانوب الأوسط ، ودفعوا بطوابيرهم (كتائبهم) الاستطلاعية حتى فيدن Vidin وقبالة البوابات الحديدية Iron Gates في بلغاريا ونيس Nis في جنوب الصرب .

غير أن انسحاب القوات النمسوية الاضطراري من مسرح عمليات الدانوب لمواجهة الأعمال العدوانية التي قام بها الملك الفرنسي لويس الرابع عشر ، في البالاتين Palestinate في سنة ١٦٨٨ أعطى العثمانيين فترة التقطوا فيها أنفاسهم ، وأحسن مصطفى زاده استثمارها ، ففي سنة ١٦٩٠ استعاد العثمانيون نيس Nis وبلجراد وأكدوا نفوذهم في ترنسلفانيا حيث تم تثبيت توكولي كأمير. غير أن كل هذا لم يكن الا عمليات لكسب الوقت ، ففي سنة ١٦٩٧ ، كانت الحكومة النمسوية قادرة على سحب كتائب لها من ايطاليا ، لتوظيفها في عمليات شرق أوروبا . وفي هذا العام (١٦٩٧) قام القائد الهبسبرجي الجديد واللامع يوجين السافويي Eugene of Savoy بتجهيز جيش نمسوي جيد الاعداد ومتمرس ، أنزل بالقوات العثمانية

هزيمة ساحقة فى زنتا Zenta على نهر Theiss فى ترنسلفانيا ، ولقد تضافرت عوامل عدة اقنعت العثمانيين بضرورة البدء فى مفاوضات سلام ، ومن هـذه العوامل ، قيام الثورات فى بلاد العرب والرافدين وصعوبة تمـويل حرب كبرى لسنوات طويلة، بالاضافة لنصائح سفير بريطانيا وهولندا ، لقد اصيب الكبرياء العثمانى بعمد مناطق كانت تابعة للامبراطورية العثمانية ، وبالقـبول غـير المشروط لهزيمة كبرى على يد القوى المسيحية • ولم يكن من الممكن استعدة الكبرياء العثمانى الا اذا تخلت القوات العثمانيـه عن أساليبها التقليدية وبدأت فى محاكاة التقنيات العسكرية الأوربية بشكل منظم ففى هـذه الحالة فقط ، كان يمـكن للعثمانيين أن يأملوا فى النصر ، لكن هذا التغير ، حال دونه وتصدى له ، تمسك العثمانيين بتقاليدهم (١) ، حتى لـو أدت الى ترقيعهم على معاهدة مهينة ، ولان العثمانيين كانوا قد فقدوا أربعة جيوش على التوالى فى ميادين المعارك ، فقد كانوا مستعدين للتنازل عن بعض المناطق التابعة لهم لتجنب مزيد من المتاعب المؤلمة ولنحافظ على تراثهم ومؤسساتهم •

وبتـوقيع معـاهدة كارلوفتس Karlowitz فى يناير سنة ١٦٩٩ تخلى العثمانيون عن معظم المجر ــ بما فى ذلك ترنسلفانيا ــ للنمسا ، وأعادوا بودوليا Polodia لبولندا ، واعترفوا بحق الروس فى احتلال ميناء أزوف Asov وأعادوا معظم دلماشيا والموره وجزر بحر ايجة للبندقية •

المشاكل العسكرية والاقتصادية :

أجمع المراقبون الأوربيون فى القرن السادس عشر على الاعجاب بالتنظيم العسكرى العثمانى ، أما فى حالة حروب أواخر القرن السابع عشر ــ والتى أشرنا إليها فى الصفحات السابقة اجمالا ــ فقد بدأ هذا التنظيم عتيقا غير متمش مع

(١) استخدم المؤلف تعبير Amour propre ويعنى حب الذات أو احترام الذات ، وقد فضلنا ما أوردناه فى المتن لقربه للسياق •

العصر ولا يعمل بالكفاءة المطلوبة • فقد فشل العثمانيون ــ في اللحاق بالعصر ، اذ كانت الطبقة الحاكمة العثمانية غير معاطفة مع أى تغيير في الأساليب والتقنيات العسكرية التقليدية ، ونتج عن هده السياسة اضطرابات عامة كانت هي السمة التي وسمت فترة الاضطرابات التقليدية التي أشرنا اليها ، ولم يكن حتى بطرس الاكبر وأمثاله ــ اذا ما قدر لهم الوصول الى قمة السلطة العثمانية ــ بقادرين على استخدام سلطاتهم الأوتوقراطية لأغراض ثورية رغم الرغبة في مواجهة هذه الأخطار ، وما كان أى صدر أعظم (وزير أول) بقادر على احداث هذه الثورة نظرا لأنه لو فعل سيكون عرضة دائمة للنقد ، وعرضة للسقوط ، وما كان ليتأتى له ذلك اذا كان مشغولا دوما بمكائد القصر ومؤامرات الحاشية كما كان الاتجاه الممعن في المحافظة الناتج عن التعليم الاسلامي في الامبراطورية العثمانية في هده الفترة قد غرس في الاذهان أن النجاح والفشل ــ في الحرب والسلم ــ مسألة خاضعة لارادة الله (سبحانه) وليست ناتجة عن الآلات في أيدى الرجال ، كما أدى التعليم الاسلامي العثماني في هذه الفترة إلى النظر لأى برنامج للتغيير الراديكالي متناف مع التقوى ، ولا جدوى منه • أما على الجانب الأوروبي ، فقد أدت الخبرة الطويلة والقاسية الناتجة عن حرب الثلاثين عاما ، الى أن أصبحت المانيا وسائر دول وسط أوروبا تألف التقنيات العسكرية المتطورة ، والأسلحة المتطورة ، كما تم الغاء التشكيلات العسكرية غير الفعالة والمسببة للهزيمة • لقد برهن سلاح المشاه الجيد التدريب على قدرته على مجابهة سلاح الفرسان مهما كان كثيفا ، وعندما يدعمه سلاح المدفعية ، فانهم يكونون قادرين على ابادة المهاجرين • وكلما كانت هجمة الخيالة عنيفة ، كلما ازدادت خسائرها ، خاصة بالنسبة لسلاح الفرسان قديم الطراز الذى يسود معارك شرق أوروبا سابقا •

لقد كان العثمانيون من بين القوى الأولى التى أدركت أهمية سلاح المدفعية ، ولا يستبعد استخدامهم للمدافع منذ

سنة ١٣٨٩ فى معركة كوسوفو الأولى، ولكن فى هذه الحالة ، كما فى حالات أخرى ، ظلوا أسرى عاداتهم (١) ، فبينما كانت كتائب الفرسان العثمانية لا يمكن مقاومتها فى المناطق المفتوحة ، الا انها كانت تواجه سلسلة من الصعوبات فى مواجهة المدن المحصنة الصغيرة • لهذا وجدناهم يرحبون ويطورون سلاح المدفعية ــ فى بداية الأمر ــ كسلاح حصار، خاصة فى انشائهم مدافع ثقيلة الوزن واسعة مواسير القذف bore وقد أدى تركيز العثمانيين على مدافع الحصار، الى تشكيل صعوبة عسكرية ، نظرا لثقلها الشديد مما كان يعوق حركتها ، وقد ظلت هذه المشكلة قائمة فى القرن السابع عشر ، وكان العثمانيون يصبون المدافع من النحاس الأصفر فقط ، وقد يكون هذا راجعا الى أن الامبراطورية العثمانية لم تكن تضم الا مناجم حديد قليلة وفقيرة ، بعكس النحاس الذى كان متوفرا فى مناجم الأناضول الغنية • وخلال نفس الفترة ــ حيث كانت السويد تقود المسيرة الأوربية ــ أحرزت أوروبا تطورا سريعا وجوهريا فى تصنيع مدافع ميدان ذات كفاءة حركية عالية • وعلى هذا فقد حدث فارق خطير فى تكنولوجيا المدفعية بين القوات العثمانية والقوات الأوربية ، وهو المعنى الذى ركز عليه وتحقق منه ريامندو مونتوكوكولى Riamondo Montecuccoli محقق الانتصار ــ على العثمانيين فى موقعة القديس جوثارد Gothard (٢) فهو يقول :

« هذه المدفعية الضخمة تسبب تدميرا هائلا عندما تطلق قذائفها ، لكن تحريكها كان عملية صعبة جدا كما كانت تحتاج لوقت طويل لاعادة حشوها (تعميرها) ولتثبيتها • وأكثر من هذا فهى تستهلك كمية كبيرة من البارود ،

(١) لم يطوروا سلاحهم ــ هذا هو المعنى المقصود (المترجم) •

(٢) تكتب أيضا سنتوثار (المترجم) •

بالاضافة لهذا ، فهناك التصدع وتكسر العجلات والعربات الحاملة ، بل وحتى تحطم المتاريس أو الحواجز الساندة للمدافع ... أما مدافعنا فهى أيسر حركة وأكثر كفاءة ، ومن هنا تأتى ميزات مدافعنا على مدافع العثمانيين » .

لقد كانت المدفعية الفعالة مصدر قوة لا تقدر ، ولكن فى أواخر القرن السابع عشر ، كان العامل الحقيقى الحاسم فى الحروب هو الجيش الضخم المكون من فرق مشاة جيدى التدريب ومزودين بالأسلحة والمعدات .

لقد كان اعداد قوة عسكرية يكلف تكاليف باهظة وهذا يوضح أن الامبراطوريات الكبيرة فى شرق أوروبا هى وحدها التى كانت قادرة على تحمل نفقات اعادة هيمنتها على الامارات الصغيرة التى كانت تتمتع بقدر من الحكم الذاتى والاستقلال ، خلال النصف الأول من القرن السابع عشر ، عندما كانت كل القوى الأخرى تواجه صعوبات داخلية قاسية ، فالمشكلة الرئيسية التى واجهت حكومات كل شرق أوروبا هى الموارد الاقتصادية والبشريه لتكوين جهاز حرب فعال ، وكانت الخصوصيات المحلية فيما يتعلق بالبيئة الدينية والثقافية والاجتماعية تؤثر فى الوسائل المستخدمة لتحقيق ذلك ، كما كانت مقاييس النجاح مختلفة وفقا لاختلاف هذه الخصوصيات المحلية ولكن الهدف العام كان واحدا ، سواء بالنسبة للأورثوذكس الرومانيين أو الكاثوليك الهبسبرج ، أو سلاطين آل عثمان المسلمين .

وخلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر اعتمد العثمانيون على أداتين كانتا الأساس الاقتصادى والمالى لمؤسستهم العسكرية ، أولهما نظام التيمار والحصول على الغنائم والأسلاب ، ورغم الضغط المستمر واسع النطاق ، الناتج عن المصالح المكتسبة التى دفعت البعض الى تشجيع مبدأ التوريث ، الا أن الاقطاع غير القابل للتوريث والمخصص للفرسان المسلمين خلال حياتهم أو خلال فترة خدماتهم الفعلية — هذا النظام ظل حيا خلال القرن السابع عشر فى

بعض المناطق المختلفة فى الامبراطورية العثمانية حيث استمر وجود الزراعة فى امتداد المقاتلين العائدين الى أراضيهم شتاء بالتموينات والمؤن استعدادا للقتال ٠

فالجيوش العثمانية فى المرحلة الكوبريللية كانت تضم فرق فرسان كبيرة كانت تقضى الشتاء فى المدن الكبيرة وتعيش على عائد عقاراتها الزراعية كما كان يفعل أسلافهم منذ عهد سليمان القانونى ـ لكن كل كتيبة أو فرقة من هذه الكتائب أو الفرق ، كان الزمن قد تجاوزها ، نظرا للتطورات التكنولوجية الجديدة والتنظيمات العسكرية المستحدثة ، وحتى الاصلاحيين من آل كوبريللى لم يحدثوا تأثيرات هامة لترميم واصلاح نظام الاقطاع العسكرى (اقطاع الفرسان) بالغاء تلك الاجراءات والتنظيمات ـ التى لا تخصى مساوؤها ـ المتعلقة بنظم حيازة الأرض فى الامبراطورية العثمانية ، والتى جرى اعتمادها فى الأيام الخوالى ٠

أما الغنائم والأسلاب ـ كما رأينا ـ فلم تعودوا متوافرتين بما فيه الكفاية لتمويل مشروعات تدريب وتمويل واطعام وتجهيز جيش ضخم من العساكر المحترفين فالحكام العثمانيون فى القرن السابع عشر ، مثلهم مثل نظرائهم فى موسكو وكراكوف Cracow وفينا ـ لم يعد امامهم بديل عن الأسلاب والغنائم الا فرض الضرائب النظامية لتكون موردا أساسيا للتمويل ٠ ولم يكن من الممكن تحصيل الضرائب الا بجهاز ادارى تدعمه قوة عسكرية لمواجهة سكان المدن والفلاحين والارستقراطية القابعة فى الأماكن النائية ، وكان تحصيل الضرائب من هذه الارستقراطية يتم نادرا وفى المناسبات ٠ وبينما كانت القوات المسلحة ضرورية لتحصيل الضرائب ، فان تحصيل الضرائب كان ضروريا لتدعيم وتقوية القوات المسلحة ٠ انها دورة اذن ، ولا يمكن توظيف هذه الدورة بفاعلية الا اذا كان المسئولون قادرين على التاكد من أن الأموال المجموعة والمواد المجهزة (مثل

المدافع والبارود والملابس والأغذية وغيرها كالمخالى – أو حقائب الظهر – وعصى القادة) (١) تتخذ طريقها بالفعل الى القوات المسلحة ·

ونتيجة انتشار الاقتصاد النقدى واتساع مدى الزراعة التجارية تغيرت الظروف فى شرق أوروبا بما فى ذلك المناطق العثمانية دون تدخل كبير من السلطات الرسمية · وكانت هذه التطورات ثمرة التنسيق بين التجار فى أوروبا العثمانية عامة من يونانيين ويهود وأرمن وصرب · مع ملاحظة هيمنة وسيادة اليونانيين وأصحاب الأراضى (الرسميين العثمانيين) فى القرن السابع عشر ، وقد ساعد على هذا ما كان معروفا عن هذه المنطقة منذ العصور الوسطى من ظروف جغرافية مواتية ، فالفائض الزراعى من لحوم وغلال كان يصدر عبر مسافات طويلة الى المراكز الحضرية والى اسطنبول بالذات، حيث كانت هذه الصادرات تسهم فى دعم المؤسسة العسكرية العثمانية ، أما المناطق الداخلية كترنسلفانيا والمجر فلم تكن تتبوأ فى هذه الزراعة التجارية مكانا متقدما ، نظرا لصعوبة جلب منتجاتها للسوق ، ومع هذا فان الزراعة التجارية قد اتسع نطاقها بسرعة وبشكل متواصل خلال القرن السابع عشر فى معظم سهول أوروبا الشرقية ومناطقها المحيطة بالأنهار · ونتج عن هذه العمليات التجارية ، ظهور الدخل النقدى وهذا الدخل يشكل قوة أكثر مرونة وأقوى تركيزا، غير أن هذا الدخل النقدى كان دائما غير كاف لمواجهة الحاجات المتزايدة للدولة فعمدت الى مزيد من الضرائب تفرضها ، والرسوم تطلب دفعها ، مقابل الحماية ، وزاد الطلب على الرشاوى ، وكانت هذه الأموال المجموعة من مصدر أو آخر من المصادر التى أشرنا اليها آنفا ، تستخدم فى بناء مسجد أو اقامة مهرجان عام أو تجهيز جيش ·

الى هنا ، وكانت الحكومة العثمانية – على الأقل – فى وضع يماثل أوضاع أى من نظيراتها فى شرق أوروبا ، من

(١) حرفيا : عصا المارشالية التى يحملها القادة فى الميدان (المترجم) ·

حيث انشاء نظام عسكرى ذى طابع جديد ، وكانت القوات الضخمة التى قادها أحمد كوبريللى وقره مصطفى الى المجر مكونة بشكل أساسى من جيش محترف من المشاه مستقدم من المناطق الحضرية فى مصر واليونان والبلقان ومن المناطق الريفية فى الأناضول ، وكانت هذه القوات تضم قوات فرسان خفيفة كانت أكبر من أى قوة فرسان أخرى يضمها أى جيش من جيوش أوروبا المزامنة ٠

وما كان ينقص الممارسات العثمانية هو الترابط المنطقى والتناسق الماهر فى العمليات البنكية والمالية التى تدعم النظام العسكرى ، لقد كان ثمة فاصل عريض فى المجتمع العثمانى بين مهارات الحكم والمهارات التجارية ، فقد سلم العثمانيون العمليات المالية والتجارية فى امبراطوريتهم لرعاياهم من غير المسلمين ، الذين كانوا - أى العثمانيين - يحتقرونهم ، لذا فقد كان هؤلاء النصارى واليهود يعارضون القوانين العثمانية على نحو سرى ، ولكنهم لم يكونوا سبب الاضطرابات التى حاقت بالدولة العثمانية ٠

وفوق هذا ، فان المؤامرات المالية التى كان ينسجها الماليون اليونانيون واليهود والأرمن حول المحاربين والاداريين العثمانيين قد ضيقت الخناق على هؤلاء المحاربين والاداريين ، فلم تعد اسطنبول قادرة على اطعام نفسها الا من خلال الأجهزة المالية المعقدة (للماليين اليونانيين واليهود والأرمن) ولم يعد الجيش العثمانى قادرا على اعداد وتجهيز جنده بدون العمل من خلال هؤلاء الماليين ٠ لكن حقيقة فشل المجموعات الحاكمة العثمانية فى فهم أسلوب تشغيل هذه الأجهزة المالية ، جعلتهم يميلون الى الظن فى أن أسلوب التهديد وممارسة العنف يمكنهم من كشف الأموال السائلة الضرورية لمواجهة أزمات الامبراطورية المتراكمة ٠

لقد كان الضعف الأساسى الذى اعترى المجتمع العثمانى فى القرن السابع عشر يتمثل فى الفشل الكامل فى فهم الصلة الوثيقة بين أجهزة الحكم من ناحية والمصالح المالية والتجارية من ناحية أخرى - خاصة اذا ما قارنا هذا مع مجتمعات غرب

أوروبا حيث كانت الحكومة ورأس المال والطبقة ، متداخلة بعضها مع البعض الآخر ومترابطة معا ، وموجهة جميعا نحو قيم مشتركة وأهداف واحدة . وكان هذا الترابط مفتقدا في الامبراطورية العثمانية .

ففي أواخر القرن السابع عشر ، أساء العثمانيون أيضا وبوجه عام ادارة تنظيم الامدادات العسكرية ، بشكل فعال ، ولم يحسنوا استثمار نجاحاتهم العسكرية ، ونتج هذا عن رفضهم الدائم لالغاء الاجراءات والتنظيمات التي كانوا قد أحرزوا من خلالها انتصاراتهم الأولى في أزمنة سابقة كانت أقل تعقيدا . فقد كانت غارات السلب المنتظمة على المناطق الحدودية قد مكنت العثمانيين في القرن السادس عشر من العيش على ساحات واسعة من الأرض ، مما هيأ لهم مدخولا كبيرا ، وما عاد هذا متاحا للقوات العثمانية في القرن السابع عشر خاصة اذا ما أخذنا في الاعتبار ان القوات العثمانية في هذا القرن السابع عشر ، كانت اكبر حجما ، اذ كانت غالبا قد بلغت ثلاثة أو أربعة أضعاف ما كانت عليه في القرن السادس عشر ، بالاضافة الى أنها كانت تمارس عملياتها العسكرية في مناطق أقل سكانا كأوكرانيا البولندية أو المناطق المجرية المنعزلة الخالية من السكان . أضف الى هذا أن الحكومة العثمانية لم تتخذ أيه خطوات لتحسين أو تحديث الميرة (نظام تمويل الجيش بالطعام) كما أن نظام تزويد الجيش بالأسلحة وامدادالفرق الخاصة ، كالعاملين في التعدين والمهندسين العسكريين ــ بالمهمات اللازمة ، كل هذا كان معرضا للاهمال ، ولم يكن منتظما . أما الهبسبرج ، فانهم قد أحسنوا استخدام الموارد التقنية والفنية في ألمانيا وايطاليا وبوهيميا لانتاج الأدوات والتجهيزات اللازمة للمعارك .

لقد كانت الطاقات الحرفية والصناعية في اسطنبول متعددة وماهرة ، ولكنها كانت ضيقة التفكير متسمة بالجمود والمحافظة ، وكانت قدرتها على الابداع أمرا مشكوكا فيه ،

فقد كان وجود نظام الطوائف الحرفي ، كنظام قوى ومنغلق (بمعنى عدم امكان دخول أعضاء جدد ضمن أفراد الطائفة الحرفية بسهولة) فى المجتمع العثمانى لا يشجع على أية مشروعات أو اختراعات أو ابداعات ، فقد كانت معظم الطوائف الحرفية مندمجة ادماجا كاملا بجماعات الانكشارية الذين كانوا يحافظون على تقنياتهم العسكرية التقليدية ويغارون عليها ، مما حدا بهم الى رفض أية اقتراحات لتحسين التكنولوجيا العسكرية التى ترجع أصولها الى جماعاتهم الحرفية • وعلى هذا فقد أجبرت الجيوش العثمانية فى القرن السابع عشر ، على استخدام المواد غير المقننة أو المواد الاقل جودة •

ولقد أظهرت معركة القديس جوثارد Gothard فى سنة ١٦٦٤ تفوق جيش الهبسبرج الجيد التدريب على أى جيش عثمانى . الذى كان بنظام امداده وتدريبه وتمويله ، عتيقا اعتباطى التخطيط اذا ما قورن بالنظم الهبسبرجية ، ومرور ما يقرب من عشرين عاما دون أن يترجم التفوق الهبسبرجى الى انتصارات متواصلة يرجع فى المقام الأول الى خلل فى قيادة الهبسبرج العليا ، متمثلا فى تداخل السلطات ، وقد تدارك الهبسبرج ذلك فى معركة سنة ١٦٨٣ عندما انسحب حلفاء النمسا على التوالى وبسرعة من الجيش النمسوى الذى كان يطارد العثمانيين المتراجعين عن فينا ــ وبذلك وجد الهبسبرج أنفسهم يديرون بمفردهم ويفرقهم العسكرية وحدها ، حربا كبرى ، وقد أدى هذا الى إصلاح القيادة العليا فأصبحت أكثر توحدا وتآلفا • وما دام هذا قد حدث ، فلم يكن ثمة ما ينقذ العثمانيين من الانسحاب الى جنوب الدانوب ، والى الشرق من جبال كارباثيان •

المشكلة المجرية :

لقد ترك العثمانيون أثناء احتلالهم لمجتمعات شرق أوروبا ، أو عبورهم لها ، علامات عميقة ودائمة • وحتى

عند تراجعهم ، كانوا قادرين على ممارسة ضغوط وأخذ زمام المبادرة بهجومات مضادة ، تركت تأثيرات فى تشكيل تاريخ بلدان أوربية ، هى الآن (أواخر القرن السابع عشر) خارجة عن نطاق حكمهم المباشر • وظهر هذا جليا من خلال التطورات التى حدثت فى المجر خلال التسعينات من القرن السابع عشر •

وعندما بدأت علامات الاحياء والتحديث تظهران فى مسار التاريخ العثمانى خلال منتصف القرن السابع عشر ، اتخذ الهبسبرج حذرهم بانشاء ادارة عسكرية خاصة على طول الحدود الجنوبية للجانب الذى يخص النمسا من مملكة المجر ، وهى الحدود موضوع النزاع كما اتخذ الهبسبرج ترتيبات محلية ، على نسق نظام Militargrenzen الكرواتى القديم ، وان كانت الهيمنة الادارية الآن لفينا ، وانتهى الوضع شبه الاستقلالى الذى كانت تمارسه هذه المناطق من خلال مجلس تشريعى افنيمى • وقد وطن الجنود الصربيون والكرواتيون بشكل مستمر فى هذه الأراضى وتم تنظيمهم فى فرق كما تم اعفاؤهم من الضرائب العادية • ولهذا قامت مجتمعات صربية متعددة فى جنوب المجر ، وكانت هذه المجتمعات الصربية ذات ولاء عميق للهبسبرج ، كما كانت تتمتع بحكم ذاتى خاص تحت ادارة الأساقفة الأورثوذكس وبطريارك الصرب •

لقد نقلت الحروب النمسوية ضد العثمانيين خلال الثمانينات من القرن السابع عشر ، خط المواجهة بعيدا الى جنوب وشرق حدود هذه المستوطنات التى سبق انشاؤها ، ولكن عندما كانت حكومة فينا مضطرة فى عامى ١٦٩٠ و ١٦٩١ لسحب فرقها من شرق أوروبا لمواجهة العدوان الفرنسى من الحدود الغربية ، انتهز العثمانيون هذه الفرصة لشن هجوم مضاد وغمرت معاركهم هذه المستعمرات الصربية • وقد أشرف البطريارك الصربى على خروج اللاجئين الجماعى زاحفين شمالا من آبرشيته فى Pecs الى كارلوفتس ، وكان الزاحفون مع البطريارك شمالا يبلغون ٠٠٠ر١٠٠

من الرجال والنساء والولدان • وفي البداية ، كان ينظر لهذه الهجرة على أنها مؤقتة ، لأنهم كانوا ينتظرون تدبيرا انتقاميا نمسويا • ولكن استمرار النزاع والاضطراب في غرب أوروبا آخر الهجوم النمسوى المضاد لبضع سنين ، فاستقر الصرب أسفل شمال الدانوب ، وتمتعوا بنظام شبه مستقل • وكان وجود هذه الجماعات التى تحكم حكما خاصا على الأرض المجرية ، أمرا غير مقبول للنبلاء المجريين (الماجيار) كما كان وجودهم يشكل خطورة للزعماء المحليين فى مملكة المجر ، حيث يهدد سيطرتهم العسكرية ، كما كانوا يمثلون نموذجا (مثلا) خطرا لعبيد الأرض الذين يعتمد عليهم الزعماء المحليون فى تحصيل دخولهم •

ولقد ارتبط غضب النبلاء المجريين وشكهم فى هذه الهجرة الصربية بالنشاطات العثمانية • فقد كانت احدى ملامح الممارسات العثمانية التى لم يعترها تغير من القرن السادس عشر حتى القرن السابع عشر ، أنها قوة شغوفة بالتدمير والتخريب شغفا يفوق الوصف • إنها (الرعب الأعظم فى العالم) تلك الحقيقة التى عبر عنها رتشارد نولز Knolles ، الكاتب الانجليزى فى العصر الاليزابيثى من خلال وصفه لتقدم الجيش العثمانى ، وذلك فى كتابه التاريخ العام للترك الذى نشره فى سنة ١٦٠٣ : (باستثناء الحالة التى كان فيها العثمانيون يرسلون حملات تجميع الرقيق ، فانهم نادرا ما كانوا يحملون أنفسهم مشقة الاحتفاظ بالأسرى (١) كما كان اسرافهم فى استخدام الاكنجز Akinjis — وهم فرسان تتر خفاف يستخدمون فى مقابل مكافأة من الأسلاب والأسرى — يؤدى الى توسيع دائرة الدمار عدة أميال فى مختلف الاتجاهات حول الخط الذى يقفون عنده (خط سارس) • ففى سنة ١٦٨٣ ، على سبيل المثال ، كان تقدم قوات قره مصطفى الاستطلاعية الى

(١) يقصد أنهم يقتلون الأسرى (المترجم) •

بوابات فينا ، سابقا لوصول القوات العثمانية الرئيسية بأسبوع .

ولم تؤد تجربة الهزيمة المريرة والتراجع الى تعديل العقلية الفردية الهمجية التى كانت تتحكم فى قيادة الجيوش العثمانية ، والتى كانت تؤدى الى تخريب المناطق التى تمر بها هذه الجيوش ، لقد كان جنوب المجر مازال يعانى من الخراب وقلة السكان منذ اجتياح سليمان القانونى له ، وها هو مرة أخرى ـ جنوب المجر ـ يعانى من الخراب والاضطراب على أيدى العثمانيين خلال معارك الثمانينات والتسعينات من القرن السابع عشر . تلك كانت هى الصورة الحقيقية للأراضى التى لا تنبىء بخير كثير ، والتى آلت للهبسبرج بموجب معاهدة كارلوفتس ، لقد كانت مروجا تناثر سكانها ، تغمرها المستنقعات ، وتعلوها الكثبان . وفى ظل هذه الظروف كان من المتعذر اعادتها الى حالة الرخاء كما كانت ، فحتى منتصف القرن الثامن عشر كانت الدواب (التى كانت غالبا ماشية عجفاء يتركونها بدون زرائب صيفا وشتاء) تكون الصادرات الوحيدة الهامة للسهول المجرية ، كما كانت الزراعة هى وسيلة الاعاشة فى معظم المناطق . وكان عبيد الأرض يعتمدون أساسا على ما ينتجونه محليا ، ولا يستهلكون الا قليلا مما لا تنتجه أيديهم . وقد صبغت هذه الظروف ـ الممثلة فى هذا التراث المرعب المخلف عن انتصار العثمانيين وتراجعهم على سواء ـ نظرة النبلاء المجريين الأقل مرتبة بشكل أبدى ، اذ هاجر الزعماء المحليون الكبار الى صالونات ومحافل فينا وغدوا نمسويين وضعا وثقافة أما بالنسبة للنبلاء الأقل مرتبة ، فلم يكن أمامهم طريق مماثل للفكاك وتدهورت أحوالهم فى ظل المحلية الفقيرة العتيقة التى تمثلت فى العودة الى الشكل التقليدى للمجتمعات الريفية التى كانوا يحكمونها ، ولم يكن أمامهم من سبيل لتحسين أوضاعهم وأوضاع هذه المجتمعات . ولم تكن ثقافتهم تتميز بالأناقة والصنعة ، كما كانت ثقافة هبسبرج فينا التى يتصف أصحابها بالإنغماس فى الملذات

والاغيراق فى الترف مع الولاء والطاعة للكاثوليكية الرومانية •

وأخيرا فقد تقلصت حركة المد والجزر فى الفتوحات العثمانية الى الجنوب من الدانوب ، ولم يعد ثمه خطر خارجي يجبر نبلاء المجر على طلب الحماية مما ادى الى تراخى القبضة النمساوية ، مما ادى الى ظهور مشكلة ممثلة فى كيفية استيعاب هذه النقلة أو هذا التحول ، أضف الى هذا عبئا جديدا على الجهاز الادارى وجهاز الحكم النمسوى خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، وهو استيعاب كل القوى المحلية ودمجها فى البنية الاجتماعية والسياسية وربطها بالسلطة المركزية فى الدولة النمساوية •

لقد فرضت الانتصارات العثمانية المشكلة المجرية الصعبة على الهبسبرج منذ العشرينات من القرن السادس عشر • كما أن المعارك التى صحبت فترة انسحاب العثمانيين وهزائمهم بين عامى ١٦٨٢ و ١٦٩٩ قد انتجت مشاكل اجتماعية وتدهورا اقتصاديا فى نفس المنطقة ، مما عمق من أبعاد المشكلة وحجب أى حل عاجل لها •

تراجع القوى العثمانية (١) :

كانت معاهدة كارلوفتس Karlowitz علامة ونقطة حاسمة فى التوازن العسكرى بين أوروبا والعالم الاسلامى ، فقبل هذه المعاهدة بستة عشر عاما كان العثمانيون قد أثبتوا انهم مازالوا قادرين على تحدى الغرب بفاعلية شديدة ، أما بعد كارلوفتس ، فقد وجدت الامبراطورية العثمانية نفسها فى موقف دفاعى ونادرا ما كانت قادرة على أن تكون ندا للقوات المسلحة لأى كيان أوروبى • ولقد أسهمت الفوضى الداخلية الخطيرة ممثلة فى قيام حكام

---

(١) الترجمة الحرفية (تراجع الاسلام) وقد آثرنا ما أوردناه فى المتن (المترجم) •

الولايات المتمردين باغتصاب الاستقلال المرة تلو المرة ، وانتشار اللصوصية وقطع الطرق ، واندماجها مع الحركات الثورية في المناطق الأوربية التابعة للدولة العثمانية في حركة قومية — أسهم كل هذا في الضعف العسكرى الذى حاق بالامبراطورية ، وقد شهدت نفس الفترة عجزا وتدهورا حاقا بالامبراطوريتين الاسلاميتين الاخريين الكبيرتين وهما الامبراطورية المغولية بالهند ، والدولة الصفوية بفارس ٠

وقد أدت هذه الفوضى الناشبة في العالم الاسلامى ، الى افساد الحياة الاقتصادية ، وازاحت عصر الرخاء فقد كان تغير بنية التجارة — خاصة مع زيادة الحاجة الى المنسوجات الأوربية وغيرها من البضائع المصنعة — سببا في اضعاف روابط (نقابات) الصناعات اليدوية في المدن الاسلامية ، وفي القرن الثامن عشر وجدنا اقتصاديات العالم الاسلامى في كل مكان ، في حالة انكماش أمام الضغط الاوروبى ٠

ولم يكن ثمة شيء من الماضى ، أعد المسلمين وهيأهم لمثل هذه المآسى والنكسات ٠ فحتى نهاية القرن السابع عشر ، كانت نتيجة الصراع الطويل بين الاسلام والمسيحية في صالح الجانب المسلم غالبا ٠ وهذا أمر متوقع من رجال الله الذين حقق نبيهم (صلى الله عليه وسلم) النصر في معاركه ضد الكفرة ٠ لكن هذا التراجع المجائى في مسار التاريخ الذى واجه المسلمين كان يبدو مشكلة تدعو لليأس ولا حل لها ، هل تخلى الله عنهم ؟ اذا كان الأمر كذلك ، فلماذا ؟ ومهما كان نقص عقيدتهم فكيف يمكن لله (سبحانه) أن يؤازر المسيحيين ؟ حقيقة ، لقد شهد التاريخ العثمانى قبل سنة ١٦٩٩ ، كثيرا من المشاكل والمآسى السياسية ، ولكنها — دائما — كانت مؤقتة ، لقد كان رد الفعل الغالب للمشاكل والمآسى التى بدأت في أواخر القرن السابع عشر ، غير سريع ولا حاسم ، وانما تلكأ حتى أتت العاصفة لتطفىء الشمعة ذاتها ، بينما كان التنبيش في الماضى بحثا عن نموذج أو مثل أصبح غير قابل للتحقيق في ظل الظروف الحالية ٠ ولم

تستطيع العاصمة (حركة التجديد) فرض الاصلاح ، لذا فقد بذلت محاولات غير منضبطة وخرقاء لتطبيق نظم الحضارة الأوربية التى بدت للعثمانيين سبب النجاح ٠ وكانت أكثر المحاولات وضوحا ، تلك التى اتخذت فى مجال التكنولوجيا العسكرية ، فمنذ سنة ١٧١٦ بذل الرسميون العثمانيون جهودا دؤوبة لاعادة بناء القوات المسلحة التركية على النسق الاوروبى ، ولكن ــ لأكثر من قرن ــ كانت نزعات الانكشارية المتحفظة والعنيدة ، وموقف علماء الدين ــ تجهض اى مشروع فى هذا المجال ، فالتغيرات التى كان يبدأها سلطان مصلح أو صدر أعظم كانت تعرقل بسبب اضطرابات العامة أو ثورات الانكشارية ٠ فالثورات والاضطرابات المتوالية فى الداخل ، والكوارث الناجمة عن الحروب المستمرة ضد القوى الأوربية ، عاقت السلاطين عن بذل الجهود اللازمة لتدعيم وتقوية المؤسسة العسكرية ٠ فلم يعد فرد مهما كان سلطانه وجبروته بقادر على فرض الاصلاح من عل ٠ ولهذا ظل الاصلاح جهيضا (ولد ميتا) فغالب المسلمين كانوا فى حالة ذهول واغماء غير قادرين على المواجهة سواء على المستوى الفكرى أو التطبيقى فى ظل هذه الظروف الجديدة التى أوجدها التفوق الأوروبى العسكرى والثقافى ، فقد ساد الجسود الأعمى ، وزاد الالتصاق بنظام اجتماعى بدأ يتلاشى ، متمسكين بخرق بالية حتى منتصف القرن التاسع عشر ٠

ثبت باهم الوقائع التاريخية

١٢٨١م موت زعيم الغزاة ارطغرل ، مؤسس الامارة العثمانية فى شمال غـرب الاناضول ·

١٣٢٦ العثمانيون يستولون على بروسا Brusa
الأمير أورخـان يتخـذ لقب سـلطان ·

١٣٢٩م استيلاء العثمانيين على نيقية Nicaea

١٣٣١ــ١٣٥٥ انشاء الامبراطورية الصربية على يد ستيفان دوشـان Dusan

١٣٣٧م استيلاء العثمانيين على نيكوميديا Nicomedia

١٣٤٥م الأتراك العثمانيون يدخلون أوروبا كجنود مرتزقة لحسـاب البيزنطيين ·

١٣٥٠م الأتراك (العثمانيون) يستولون على سالونيكا

١٣٥٢ العثمانيون يهزمون الصرب فى معركة ماريتزا الأولى (معركة نهر ماريتزا Maritza)

١٣٥٤م العثمانيون يستولون على ادريانوبل

١٣٦٢م العثمانيون يفتحون ثراقيا Thrace

١٣٦٣م الامبراطورية البيزنطية تعترف بممتلكات السلطان العثمانى فى أوروبا ·

١٣٦٦م اعلان ادريانوبل عاصمة رسمية للدولة العثمانية ·

١٣٧١م العثمانيون يستولون على نيس Nis ويهاجمون بلغاريا ، بعد انتصـارهم الثانى فى معركة نهر ماريتزا Maritza الثانية ·

١٣٨٩م العثمانيون يسقطون امبراطورية الصرب فى معركة كوسوفو Kossova الأولى .

١٣٩٣م العثمانيون يجتاحون بلغاريا .

١٣٩٦م الأتراك العثمانين يدفعون الحصار الأول عن القسطنطينية ليسحقوا الحملة الصليبية ضد نيكوبولس .

١٤٠٢م العثمانيون يرفعون الحصار الثانى عن القسطنطينية عندما غزا المغول آسيا الصغرى .

١٤٠٧م تأسيس بنك القديس جورج فى جنوه .

١٤٢٨ تأسيس كتائب الانكشارية .

١٤٤٤م العثمانيون يهزمون الحلف المجرى فى معركة فارنا Varna

١٤٤٤-١٤٩٠ ظهور مملكة المجر القوية على يد هنيادى Hunyadi (مات سنة ١٤٥٨) وماتياس كورفينوس Corvinus

١٤٤٨م العثمانيون يهزمون الحلف المجرى فى معركة كوسوفو الثانية .

١٤٥١م العثمانيون يبداون الحصار الثالث للقسطنطينية .

١٤٥٢م الجنويون يفقدون فوكيا phocaea لصالح العثمانيين .

١٤٥٣م سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين وجعلها عاصمة للامبراطورية .

١٤٥٦م الجيش العثمانى يفشل فى الاستيلاء على بلجراد .

١٤٥٦-١٤٦٢م الجنويون يخسرون مستعمراتهم الجزرية فى بحر ايجة لصالح العثمانيين .

١٤٦٣م العثمانيون يفتحون البوسنة .

١٤٦٤م فشل الحملة الصليبية التى كان يخطط لها البابا بيوس الثانى .

١٤٦٩م اتحاد المملكتين الاسبانيتين تحت حكم فرديناند وايزابيلا .

١٤٧٠م البندقية تفقد يوبيا Eupea لصالح العثمانيين .

١٤٧٥م العثمانيون يستولون على كافا Caffa وسائر الموانىء الجنوبية فى البحر الأسود .

١٤٧٩م العثمانيون يفتحون البانيا

١٤٨٢ العثمانيون يفتحون الهرسك Herzegovania

١٤٨٤م العثمانيون يحكمون السيطرة
على مدخلى الدانوب ودنيستر

١٤٩٠ــ١٥٢٦م الأرستقراطية الهنجارية (المجـــرية) تستعيد مواقعها (نفوذها) على حساب الملك لاديزلاس Ladisla (مـات ١٥١٦) والملك لويس ٠

١٤٩٢م سقوط غرناطة / كولمبس يكتشف العالم الجديد ٠

١٤٩٤م الملاحون البرتغاليون يصلون للهند عن طـــريق الكيب (راس الرجاء الصـــالح) ٠

١٤٩٦م العثمانيون يحكمون القبضة على مونتنجيرو (الجبل الأسود) Montenegro البنادقة يستولون على قبرص ٠

١٤٩٩ــ١٥٠٨م الشاه اسماعيل الصفوى يؤسس امبراطورية شيعية فى ايران والعــراق ٠

١٥٠٢م اسبانيا تتبع سياسة التنصير القسرى لرعاياها المسلمين ٠

١٥١٢ــ١٥٢٠م تولى سليم الأول السلطنة ٠

١٥١٤م العثمانيون يقمعون ثورة شيعية فى الأناضول ويهزمون الفرس فى موقعة جالبدران ٠
الفلاحون المجريون يثورون ٠

١٥١٦م شارل الخامس ملكا على اسبانيا ٠

١٥١٦ــ١٥١٧م العثمانيون يفحتون مصر وسوريا ٠

١٥١٧م حركة (ثورة) لوثر فى المانيا ٠

١٥١٩ــ١٥٥٨م شارل امبراطور للامبراطورية الرومانية المقدسة ٠

١٥٢٠ــ١٥٦٦م سليمان القانونى (الفاخر) سلطانا ٠

١٥٢١م سليمان القانونى يستولى على بلجـراد ٠

١٥٢١ــ١٥٢٢م فرديناند الأول يمنح حق الاشراف على أرض أسـرة الهبسبرج ٠

١٥٢٢م العثمانيون يستولون على رودس من فرسان القديس يوحنا ٠

١٥٢٦م العثمانيون ينتصرون فى معـــركة موهاكس الأولى ويسقطون مملكة هنجـــاريا (المجـــر) ٠

١٥٢٦ـ١٥٦٤م فرديناند الأول ملكا على النمســـا ، والمجر الهبسبرجى (امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة منذ ١٥٥٨) ٠

١٥٢٨م اندريا دوريا يصبح ادميرالا (أمير بحر) أسبانيا ، وحاكمــا مؤثرا لجنـــوة ٠

١٥٢٩م حصار العثمانيين الأول وغير الناجح لفينا / مارتن لوثر يدعو لحرب صليبية ضـد العثمانيين ٠

١٥٣٤ـ١٥٤٦م ظهور خير الدين بربا روسا كادميرال للاسطول العثمانى وزعيما للفريق المطالب بالحرب ٠

١٥٣٥ حملة شارل الخامس لاستعادة تونس ٠

١٥٣٧م القوات البحرية العثمانية تهاجم جنوب ايطاليا وكورفو ٠

١٥٣٨م معركة بريفيزا Prevesa البحرية غير الحاسمة ٠
سليمان القـانونى يتخذ لقب خليفة ٠

١٥٤١م ضم المناطق المجرية التى فتحها ســليمان القانونى رســـميا للامبراطورية العثمانية ٠
فشل حملة شارل الخامس ضد الجزائر ٠

١٥٤٣م حلف تركى فرنسى / معركة عثمانية ناجحة فى هنجاريا (المجر)

١٥٤٤م خير الدين بربا روسا يهاجم سواحل ايطاليا الغربية ٠

١٥٤٧م فرديناند الأول يعترف بالسلطة العثمانية فى المناطق المجـــرية المفتوحة (التى فتحها العثمانيون) ٠

١٥٥١ـ١٥٦٥م سنوات النشاط البحرى للقرصان المغربى (المجـــاهد) أمير البحر داغور المتمركز فى طرابلس الغرب ٠

١٥٥٤م يوسف نامى ينتقل من ايطاليا الى القسطنطينية ٠

١٥٥٥م صلح أوجزبرج ينهى الصراع الدينى فى المانيا ٠

١٥٥٦ـ١٥٩٨م فيليب الثانى ملكا على اسبانيا ٠

١٥٥٧م افلاس التاج الاســـبانى ٠

١٥٥٩م معاهدة كاتو كمبرسيس تخلص الهبسبرج من الصراع مع البيت المالك الفرنسي .

١٥٦٠م موت اندريا دوريا / هزيمة عسكرية وبحرية اسبانية فى جزيرة جربة .

١٥٦٤-١٥٦٥م ثورة الفلاحين ضد الترك فى مقدونيا .

١٥٦٥م حصار عثمانى فاشل لجزيرة مالطة .

١٥٦٦م العثمانيون يستولون على شيوز Chios من الجنويين / السلطان سليم الثانى يمنح يوسف نامى لقب دوق ناكسوس Naxos / معركة تركية عديمة الجدوى فى هنجاريا .

١٥٦٨-١٥٧٠م ثورة المسلمين الأسبان Moriscos فى اسبانيا .

١٥٦٩-١٥٧٠م فشل الحملة العثمانية على استراخان .

١٥٧٠م العثمانيون يخرجون البنادقة من قبرص .

١٥٧١م هزيمة العثمانيين فى معركة ليبانتو البحرية / ثورة ضد الحكم العثمانى فى اليونان وجزر بحر ايجة .

١٥٧٣م انسحاب البنادقة من الحلف الأوروبى ضد العثمانيين / التجار الانجليز يدخلون بفعالية ميدان تجارة البحر المتوسط / ثورة الفلاحين ضد الهبسبرج فى كرواتيا وسلوفنيا .

١٥٧٤م تونس فى حوزة العثمانيين .

١٥٧٥م الافلاس الثانى للتاج الأسبانى .

١٥٧٧م مفاوضات لاحلال السلام بين العثمانيين والأسبان .

١٥٧٧-١٥٩٠م الحرب بين العثمانيين والامبراطورية الفارسية .

١٥٨٠م اسبانيا تضم البرتغال .

١٥٨١م هدنة بين الامبراطورية العثمانية واسبانيا .

١٥٨٤م تجديد الهدنة بين الامبراطورية العثمانية واسبانيا .

١٥٨٥م اسبانيا تعلن الحرب على انجلترا .

١٥٨٧م تجديد الهدنة بين الامبراطورية العثمانية واسبانيا .

١٥٩٣-١٦٠٦م حروب الحدود بين العثمانيين والنمساويين .

١٦٠٦-١٦٢٩م حروب الحدود بين الامبراطورية العثمانية والدولة الفارسية .

١٦٠٩م طرد المسلمين (وغير المسيحيين) من اسبانيا .

١٦١٤-١٦١٧م حروب البنادقة ضد الاسكوكوس Uskokos فى الادرياتيك

١٦١٨-١٦٤٨م حرب الثلاثين عاما على الأرض الألمانية .

١٦٢٢م تمرد الانكشارية يؤدى لخلع واعدام السلطان عثمان الثانى .

١٦٣٨م السلطان مراد الرابع يلغى تحصيل ضريبة العبيد الخاصين بالقصور السلطانية من اطفال البلقان .

١٦٣٩م احلال السلام الدا م بين العثمانيين والفرس .

١٦٤٥م العثمانيون يغزون كريت .

١٦٤٨م المتمردون الانكشاريون يعزلون ويعدمون السلطان ابراهيم الأول

١٦٥٦-١٦٦١م محمد كوبريللى يعين وزيرا أول (صدر أعظم) .

١٦٥٨م الامبراطورية العثمانية تحكم قبضتها وسيطرتها السياسية على ترانسلفانيا Transylvanya ومولدافيا Moldavia وفاليشيا Valicia .

١٦٦١-١٦٧٦م احمد كوبريللى وزيرا اول (صدر اعظم)

١٦٦٤م معركة سانت جوثارد التى هزم فيها العثمانيون .

١٦٦٩م البنادقة يسلمون كريت للعثمانيين .

١٦٧٦م معاهدة زوافنو Zuravno تعترف وتقر بالمناطق التى حصل عليها العثمانيون فى اوكرانيا / تعيين قره مصطفى وزيرا اول

١٦٨٣م الحصار التركى الثانى الفاشل لفينا - اعدام قره مصطفى .

١٦٨٧م هزيمة العثمانيين فى معركة موهاكس الثانية وخروجهم من المجر (هنجاريا) وصربيا .

١٦٩٠م العثمانيون يستعيدون Nis وبلجراد .

١٦٩٧م هزيمة العثمانيين فى معركة زنتا

١٦٩٩م معاهدة كارلوفتس .

مصنفات المترجم

اولا ـ كتب في مجال التاريخ :

١ ـ المدخل الى عالم التاريخ ، الرياض ، دار المريخ ٠

٢ ـ حيازة الأرض في نيجيريا في القرن التاسع عشر ، الرياض ، دار العلوم ٠

٣ ـ التطورات التعليمية والثقافية في افريقيا ، الرياض عالم الكتب ٠

٤ ـ دول الاسلام وحضارته في افريقيا ، الرياض ، دار اللواء ٠

٥ ـ تاريخ جنوب افريقيا (مترجم) الرياض ، دار المريخ ٠

ثانيا ـ مقالات في الدوريات العلمية (في مجال التاريخ) :

١ ـ اثر دخول الأسلحة النارية في مجتمعات جنوب افريقيا في القرن ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، مجلة كلية الآداب جامعة الملك سعود ٠

٢ ـ الحركة الأوربية المناهضة للتثليث ، حركة اصلاح ديني لم تلق الاهتمام الكافي ٠ مجلة كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ٠

٣ ـ كتب الأمالي والمجالس والمحاضرات ، مجلة عالم الكتب ـ الرياض

٤ ـ كتب الأخبار مرحلة من مراحل الكتابة التاريخية عند المسلمين ، مجلة عالم الكتب (الرياض) ٠

ثالثا ـ فى مجال المكتبات والمعلومات :

١ ـ تنظيم المكتبات العامة (مترجم) الكويت ، وكالة المطبوعات ٠

٢ ـ مكتبة المدرسة الابتدائية وما تؤديه من خدمات ٠ (مترجم) ٠

٣ ـ مكتبة المدرسة الثانوية وأثر الاتجاهات التربوية عليها ٠

٤ ـ الأسس الفلسفية والاجتماعية لمهنة المكتبات ٠ (مترجم) ٠

٥ ـ دليل القارىء والباحث لاستخدام الكتب والمكتبات ، ساهمت جامعة الكويت فى طبعه ٠ (مترجم) ٠ الكويت ، دار البحوث العلمية

فهـــرس

صدر من هذه السلسلة :

اسم الكتاب	اسم المؤلف
١ ـ أحلام الأعلام وقصص أخرى	برتراند رسل
٢ ـ الألكترونيات والحياة الحديثة	ى • رادونسكايا
٣ ـ نقطة مقابل نقطة	الدس هكسلى
٤ ـ الجغرافيا فى مائة عام	ت • و • فريمان
٥ ـ الثقـافة والمجتمـع	رايموند وليامز
٦ ـ تاريخ العلم والتكنولوجيا • جـ ٢ • القرن الثامن عشر والتاسع عشر	ر • ج • فوربس
٧ ـ الأرض الغامضة	ليستردبل راى
٨ ـ الرواية الانجليزية	والتر الن
٩ ـ المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
١٠ ـ آلهـة مصـر	فرانسوا دوماس
١١ ـ الانسان المصرى على الشاشة	د• قدرى حفنى وآخرون
١٢ ـ القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	أولج فولكف
١٣ ـ الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
١٤ ـ مجمـوعات النقـود صيانتها •• تصنيفها •• عرضها	ديفيد وليام ماكدوال
١٥ ـ الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عزيز الشوان
١٦ ـ عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د• محسن جاسم الموسوى
١٧ ـ ديلان توماس مجموعة مقالات نقدية	اشراف س• بى• كوكس
١٨ ـ الانسان ذلك الكائن الفريد	جون لويس
١٩ ـ الرواية الحديثة • الانجليزية ـ والفرنسية جـ ١	جول ويست
٢٠ ـ المسرح المصرى المعاصر • أصله وبدايته	د• عبد المعطى شعراوى
٢١ ـ على محمود طه • الشاعر والانسان	أنور المعداوى
٢٢ ـ القوة النفسية للاهرام	بيل شول أدنبيت
٢٣ ـ فن الترجمـة	د• صفاء خلوصى

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٢٤ ـ تولستوى	والف ثى ماتلو
٢٥ ـ ستندال	فيكتور برومبير
٢٦ ـ رسائل واحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
٢٧ ـ الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
٢٨ ـ التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
٢٩ ـ فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف · ع · أدنيكوف
٣٠ ـ أدب الأطفال · (فلسفته ـ فنونه ـ وسائطه)	هادى نعمان الهيتى
٣١ ـ أحمد حسن الزيات · كاتبا وناقدا	د· نعمة رحيم العزاوى
٣٢ ـ أعلام العرب فى الكيمياء	د· فاضل أحمد الطائى
٣٣ ـ فكرة المسرح	جلال العشرى
٣٤ ـ الجحيم	هنرى باربوس
٣٥ ـ صنع القرار السياسى فى منظمات الادارة العامة	السيد عليوة
٣٦ ـ التطور الحضارى للانسان (ارتقاء الانسان)	جاكوب برونوفسكى
٣٧ ـ هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟	د· روجر ستروجان
٣٨ ـ تربيــة الدواجن	كاتى ثير
٣٩ ـ الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا · سبنسر
٤٠ ـ النحل والطب	د· ناعوم بيتروفيتش
٤١ ـ سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
٤٢ ـ سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د· لينوار تشامبرزرايت
٤٣ ـ كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د· جون شندلر
٤٤ ـ الصحافة	بيير ألبير
٤٥ ـ أثر الكوميديا الالهيــة لدانتى فى الفن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
٤٦ ـ الأدب الروسى قبـل الثـورة البلشفية وبعدها	د· رمسيس عوض

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٤٧ ـ حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د٠ محمد نعمان جلال
٤٨ ـ الفكر الأوربى الحديث جـ ١	فرانكلين ل ٠ باومر
٤٩ ـ الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
٥٠ ـ التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د٠ محيى الدين أحمد حسين
٥١ ـ نظريات الفيلم الكبرى	تاليف : ج٠ داهلى أندرو
٥٢ ـ مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
٥٣ ـ الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد ؟	د٠ جوهان دورشنر
٥٤ ـ حرب الفضاء طائفة من العلماء الأمريكيين	أ٠ د٠ محمد أسعد عبد الرؤف
٥٥ ـ ادارة الصراعات الدولية	د٠ السيد عليوة
٥٦ ـ الميكروكمبيوتر	د٠ مصطفى عنانى
٥٧ ـ مختارات من الأدب اليابانى (الشعر ـ الدراما ـ الحكاية ـ القصة القصيرة)	اختيار وترجمة صبرى الفضل
٥٨ ـ الفكر الأوربى الحديث ٠ جـ ٢	فرانكلين ل ٠ باومر
٥٩ ـ تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييل باير
٦٠ ـ أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	أنطونى دى كرسبينى
٦١ ـ الفكر الأوربى الحديث ٠ جـ ٣	فرانكلين ل ٠ باومر
٦٢ ـ كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
٦٣ ـ الزمن وقياسه	زافيلسكى ف ٠ س.
٦٤ ـ أجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
٦٥ ـ الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر ر٠ داى ردای.
٦٦ ـ سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
٦٧ ـ التجربة اليونانية	س ٠ م بورا
٦٨ ـ مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د٠ عاصم محمد رزق.
٦٩ ـ العلم والطلاب والمدارس	رونالد د٠ سمبسون و نورمان د٠ أندرسون
٧٠ ـ الشارع المصرى والفكر	د٠ أنور عبد الملك

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٧١ ــ حوار حول التنمية الاقتصادية	ولت روستو
٧٢ ــ تبسيط الكيمياء	فرد ٠ س ٠ هيس
٧٣ ــ العادات والتقاليد المصرية	جـون بوركهارت
٧٤ ــ التذوق السينمائى	آلان كاسبيار
٧٥ ــ التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
٧٦ ــ البذور الكونية	فريد هويل شندرا ويكراما سينج
٧٧ ــ دراما الشاشة جـ ١	حسين حلمى المهندس
٧٨ ــ الهيروين والايدز	روى روبرتسون
٧٩ ــ صور أفريقية	دور كاس ماكلينتوك ل ٠ باومر فرانكلين ل ٠ باومر
٨٠ ــ نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
٨١ ــ الفكر الأوربى الحديث جـ ٤	فرانكلين روى روبر رتسون
٨٢ ــ الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د٠ محمود سرى طه
٨٣ ــ دراما الشاشة جـ ٢	حسين حلمى المهندس
٨٤ ــ المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
٨٥ ــ وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس، فيدروفيتش سيرجيف
٨٦ ــ الهندسة الوراثية	ويليـــام بينز
٨٧ ــ تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
٨٨ ــ كتب غيرت الفكر الانسانى	أحمد محمد الشنوانى
٨٩ ــ الفلسفة وقضايا العصر جـ ١	جمعها : جون ٠ ر ٠ بورر٬ وميلتون جولدينجر
٩٠ ــ الفكر التاريخى عند الاغريق	أرنولد توينبى
٩١ ــ ملامح وقضايا فى الفن التشكيلى	د٠ صالح رضا
٩٢ ــ التغذية فى البلدان النامية	م٠هـ كنج وآخرون
٩٣ ــ الفلسفة وقضايا العصر جـ ٢	جمعها : جون ٠ ر ٠ بورر وميلتون جولدينجر
٩٤ ــ بداية بلا نهاية	جورج جاموف

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٩٥ ـ الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د. السيد طه ابو سديرة
٩٦ ـ حوار حول النظامين الرئيسيين للكون جـ١	جاليليو جاليليه
٩٧ ـ حوار حول النظامين الرئيسيين للكون جـ٢	جاليليو جاليليه
٩٨ ـ حوار حول النظامين الرئيسيين للكون جـ٣	جاليليو جاليليه
٩٩ ـ الارهـــاب	اريك موريس ، وآلان هو
١٠٠ـ اخنـــاتون	ســيريل الدريد
١٠١ـ القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
١٠٢ـ الفلسفة وقضايا العصر جـ ٢	جمعها : جون ر. بورر وميلتون جولدينجر
١٠٣ـ العلم والتكنولوجيا	ر.ج. فوبس ، ا.ج. ديكسترهوز
١٠٤ـ الأساطير الاغريقية	كوفلان
١٠٥ـ التوافق النفسى	توماس ا. هاريس
١٠٦ـ الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
١٠٧ـ لغة الصورة	روى آرمز
١٠٨ـ الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجـــاى متشيو
١٠٩ـ العالم الثالث غدا	بول هاريسون
١١٠ ـ الانقراض الكبير	ميكائيل ألبى جيمس لفلوك
١١١ ـ التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
١١٢ ـ تاريخ النقــود	فيكتور مورجان
١١٣ ـ صناع الخلود	موريس بيربراير
١١٤ ـ قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد كوبريلى
١١٥ ـ العثمانيون في أوربا	بول كولز

رقم الايداع بدار الكتب ١٦١١/١٩٩٣
ISBN — 977 — 01 — 3231 — 4

قبل بضعة قرون زحف العثمانيون بجحافل جيوشهم على أوروبا . فاخضعوا البلقان وزحفوا على وسطها حتى أحدقوا بفيينا عاصمة الهبسبرج وكادت قوتهم أن تعصف بأوروبا في أولى قرون النهضة . ثم ما لبثت قوة العثمانيين أن تهاوت حتى باتت رجل أوروبا المريض ..

ويحاول هذا الكتاب بالكلمة والصورة أن يرسم لوحة لهذا العصر . لا بالسرد التاريخي فحسب . بل بالتطرق إلى مختلف أبعاده الاجتماعية والاقتصادية ويصور في بعض منه نشأة المجتمعات الإسلامية في شرق أوربا والبلقان والتي وإن تتراجع عنها سلطان تركيا . مازالت قائمة .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٤٧٥ قرشا